الشيخ جلال الحنفي

الرّصافي

في اوجه وحضيضه

الجزء الأول

ساعدت وزارة المعارف على نشره

مطبعة العاني - بغداد

١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م

الثمن (   )

توطئـــة ...

الرصافي شـاعر ضخم التعابير جزل الألفاظ .. ولـكن هـذه الخصيصة لا تطـّرد في شعره دائماً .. فانّ فيه ما هو ركيك ضحل ، وفيه ما هو متكلـّف مصنوع ، وفيه ما هو فهّ ممجوج ..

وفي هذا المؤلف سنعنى بنقد شعر الشاعر نقداً بيانياً . وقد تناولنا ــ هنا ــ جميع القصائد والمقاطيع المثبتة في الجزء الأول من ديوانه المطبوع سنة **١٩٥٦** ، والمتداولة نسخه بين الناس فأشرنا الى الفخم من جمله ، والرائق من معانيه ، والى ما يؤاخذ عليه ، من أداء ومعنى وصياغة ..

والمآخذ البيانية على الرصافي كثيرة كثرةً ظاهرة .. ومن العجيب ان يقول الشيخ عبدالقادر المغربي في مقدمته على الديوان : (أما مواضع المؤاخذة في شعر شاعرنا فقليلة جداً ، وقد كددت ذهني لأجمع منها شيئا فلم يقع لي الاّ القليل) . ذلك هو قول المغربي بفيه ، وها هي ذي قصائد الشاعر ــ في ديوانه ــ تشير الى ما فيها من الغثّ والسمين والمحكم والركيك ..

ومن المهم الاشارة الى ان الدواعي التي يجود فيها شعره ، قد تكون محدودة

المناحي ، من نحو التشبيب والفخر والحماسة ، فانّ كثيراً مما قاله في هذا الوجه كان بارع الأداء ظاهر الجودة • ، والرصافي حين يجيد يأتي بالتراكيب الفخمة التي يمشي فيها جنباً الى جنب مع المتنبي والبحتري ومهيار الديلمي ••

اما ما ينظم في غير ذلك من المعاني فانه يوفق فيها تارة ويفشل أخرى ، ويكون الفشل نصيب ما يطيل فيه من القصائد ، كقصيدته الركيكة (اليتيم في العيد) وقصيدته الركيكة الأخرى (العالم شعر) ••

ولابدّ ان اشير الى ان نسخة الديوان مشحونة بالاغلاط المطبعية والتحريف المشوّه للفظ والمعنى ، غير اني تنبهت الى ذلك فنقلت الألفاظ على وجهها الصحيح ما وسعني الجهد والمجال ••

وكان نهجي في بحثي هذا ان أتناول القصيدة بيتاً بيتاً أو فصلاً فصلاً فأشير الى قضّها وقضيضها وأنبّه الى أوجها وحضيضها ، وربما شرحت بعض ما اقتضى الامر شرحه من ظروف القصيدة ودواعي نظمها ••

اما الألفاظ والمفردات فلم اجد ما يصرفني اليها ما دام بامكان القارىء ان يراجعها في المعاجم ••

وآمل ان يكون ما سعيت فيه غير خلو من الفائدة المرجوّة للأدب والمتأدبين •

وعلى الله قصد السبيل ••

ا م لرا لحل

١) في مشهد الكائنات

قال الرصافي :

جمالك يا وجه الفضاء عجيب   وصدرك يأبى الانتهاء رحيبُ

اضافة وجهٍ وصدر الى الفضاء معنىً غيرُ متصوَّر ، وهو تحكم غريب في التخيل فان الفضاء كله شيء واحد ، كله نمط واحد ، ووصفه الصدر بأنه يأبى الانتهاء اكثر غرابة في التعبير والتخيل فلقد أراد الشاعر ان يقول ان الكون غير متناه ، ولكنه فشل في اداء هذا المعنى وصياغته بما يلائمه من اللفظ •

ثم قال :

وما زلتَ تغضيها فنخطيء قصدنا   وتفتحها برّاقةً فنصيب

أراد وصف النهار ، بأنه يهتدي فيه سالكوه ، ووصف الليل بأنه يخطأ فيه القصد ، ولكنه ناقض قوله بالبيت الذي تلاه :

ويخلفها البدر المنير حفيدها   وعنها اذا جنَّ الظلام ينوب

ان اطلاق هذه التسمية على القمر ، أي جعله حفيداً للشمس اطلاق تافه •• اما ان البدر ينوب عن الشمس عند غيابها فلا يطّرد ، لأن البدر لا يوجد حيث يوجد الظلام دائما وانما يظهر في مواقيت خاصة به •• ثم قال :

وليل كأنّ البدر فيه مليحة اغازلها والنيرات رقيب

البدر مذكر ، وانزاله منزلة المؤنث هنا غير مناسب وقد خالف الشاعر بهذا ذوق الشعراء من قبله ، وفي جعله النيرات جميعها رقيبا واحدا مجانبة للتوفيق (على انه لم تجر العادة ان يقوم الاناث بدور الرقيب لأنهن لا يتيسر لهن البروز والترصد لمثل هذه الاغراض) وكان الشاعر يستطيع ان يقول (وليل كأن البدر فيه مهفهف (أو مقرطق) اغازله ...) ولو اختار احد النيرات ليكون رقيبا لكان أجود كأن يقول – مثلا – (والسماك رقيب) .

والرصافي لا يتحاشى الغزل بالمذكر فكان عليه تشبيه البدر به وهو امر معتاد في البيان العربي وليس في ذاك غضاضة فانها محض أوصاف[1] .

ومما يؤخذ عليه قوله :

ورحت واهل الحي في قبضة الكرى وفي الليل صمت بالسكون مشوب

فكنت كأني اسمع الصمت سارياً له بين احشاء الفضاء دبيب

(اهل الحي في قبضة الكرى) أداء جميل ولكن الرواح لا يتناسب مع السُرى الذي جاء في البيت الآخر ، وكذلك شوبه الصمت بالسكون وهما شيء واحد ، ليس فيه غناء من معنى ..

اما قوله :

ولو انّ صمت الليل لم يك مطرباً لما هزّ اعطاف النسيم هبوب

فليس في البيت الاّ تركيب لفظي ضخم ، اما ما احتجنه من المعنى فضئيل ضحل .. فان الشاعر أراد ان يأتي بالتعليل الحسن ففشل ، فالنسيم يهبّ في مختلف الاوقات

---

(١) فعل الشاعر نفسه مثل هذا في أوساط القصيدة حين قال :

كأني وعلويّ العوالم عاشق أطلّ من الأعلى عليه حبيب

فقام له مستشرفاً ويمينه تشدّ ضلوعاً تحتهن وجيب

والأحايين وفي ردّ هذا الهبوب الى حال من الطرب يتركها الليل بصمته ، شيء بعيد عن حسن التعليل •• ثم قال (يصف ماء البحر وما يلامسه من ضياء القمر وقد اجاد فيه) :

ترقرق منساباً به الماء والسنى فلم أدر ايّ اللامعين يسيب

ثم قال :

وقفت ولألاء السنى يستخفني فتطرب نفسي والكريم طروب

ترى ما مغزى ربط الطرب بالكرم في هذا المقام ؟ وليس في المشهد شيء انساني تنبعث به الاريحية ، لذا كان عليه ان يحذف الكرم والطرب جملة واحدة ، ويتم البيت بما يتسق بأصل معناه ••

ومما راق من أبياته قوله :

ولما رأيت الكون في الأصل واحداً عجبت لأنّ الخلق فيه ضروب[2]

ألا ان بطناً واحداً انتج الورى كثيرين في أخلاقهم ، لرغيب

وانّ فضاءاً شاسعاً قد تضاربت بأبعاده أيدي القوى لرهيب

وان اختلاف الآدميين سيرة وهم قد تساووا صورة لعجيب

قوله (تضاربت بابعاده ايدي القوى) مضطرب المعنى ، لان التضارب في ابعاد الفضاء انما هو تضارب الافكار والعقول لا تضارب الايدي التي اضافها الى القوى ولعله لو قال (تضاربت عليه تصاريف القوى) بمعنى انها تقلبت عليه لكان لقوله وجه •

ومما اتيح ان يكون مضرب الامثال من ابيات هذه القصيدة قوله في وصف الانسان :

---

(٢) لو قال (تعجبت أن الخلق •••) لكان أجود في الأداء ••

يذمم فعـل السوء وهو حليفه ويحمد قول الصدق وهو كذوب

ومن روائع البيان قوله :

ويجتنب المـرء العيـوب لأنهـا لـدى عائبيـه لا لديه عيـوب

رثاء قديم في الورى شقيت به قبـائل منهـم جمّة وشـعوب

ورتبة اخـلاقٍ يراهـا خبيثةً اناسٌ وعنـد الآخـرين تطيب

وفي اخريات القصيدة أبيات يصف فيها الشاعر ضروباً من الطباع ، غير انها وردت على نهج من التعبير والاداء ظاهر الابتذال ، وذلك لـكثرة ما تعاور مثل هذه المعاني اصحابُ المنابر والوعاظ واصحاب الرقائق في شتى الازمنة ، كقوله :

لقد احجم المثري فسموه حازما واحجم ذو فقر فقيـل هيـوب

وإنْ يتواضعْ معدم فهو صاغر وان يتواضع ذو الغنى فنجيب

وذو العدم ثرثار لـكثر كلامه وذو الوُجْد منطيق به ولبيب

الى آخر ذلك .. وهي أبيات تبدو تراكيبها غير موفقة ، وليس بين ألفاظها شيء مختار من فصيح الـكلم ورائق العبارة ، كما ان المعاني التي حرص عليها الشاعر ليست رصينة ولا مطردة فقد يجتمع الغني والفقير وقد يتعاكسان فيما نسب اليهما .

واول القصيدة يباين آخرها ، وآخرها لا يلتفت الى اولها ، فهي في ميزان النقد ليست بذات ثقل ..

ومن الامثال الحسنة فيها :

وقد يفتري المال الفضائل للورى وليس لهم مما افتراه نصيب(٣)

وهو وان كان معنى قديماً فان الشاعر اجاد عرضه ، واجاد في البيت الذي تلاه اجادة ظاهرة :

---

(٣) استعمال لفظة الافتراء هنا لا يخلو من اعتراض اذ ان الافتراء انما يكون في الهنات والمعايب وليس في الفضائل والمناقب ..

وللفقر بين الناس وجـه تبيّنت   بـه حسنات المـرء وهي ذنوب

على ان هذه الاحكام لا تطرد الا في المجتمعات التي عرقها الفساد وطوّح بها الجهل •

ومن حكمه التي اضطرب قوله فيها :

فكم جمل في مجمع القوم يتّقى   بـه ثعلب عنـد الخلاء وذيب

ومما يعاب عليه من امر القافية انه لجأ الى استعمال لفظة الرقيب مرتين فيها • واذا كان مثل ذلك مباحاً لغيره فلا يباح لمثله •

٢) العالم شعر

هذه القصيدة التي مطلعها :

قرأت وما غير الطبيعة من سفر　　صحائف تحوي كل فن من الشعر

كتلك التي سبقتها لم تكن موفقة في مقدمتها الطويلة التي تبلغ سبعة أبيات شرّق فيها الشاعر وغرّب دون جدوى ، وقد وَجَدَتْ قصيدة (العالم شعر) من اعجب بها من النقاد واعتبرها من غرر شعر الرصافي ، ومما قيل فيها انها نظمت على نهج قصيدة تركية لشاعر تركي هو عبدالحق حامد على ما نقل عن الاستاذ فهمي المدرس ..

والرصافي حين يجعل العالم شعراً[٤] متألفاً من قصائد منظومة لم يتهيّأ له ان يسمي الطبيعة ديواناً انما سماها (سفراً) والاختصاص يقتضي التزام المصطلحات .

ثم قال :

ارى غرر الاشعار وهي نضيدة　　على صفحات الكون سطراً على سطر

وفي تعبيره بالسطر تقصير واضح عن رعاية المصطلح ، وانما كان عليه ان يقول

---

(٤) العنوان ليس من مبتكرات الشاعر فلقد سمع مثل هذا التعبير في عهد الخليفة الناصر ، اذ نظم الشاعر في فنّ (القوما) ــ يومئذ ــ ما جاء فيه :

والخلق شعر منقح　　وانت بيت القصيد

(على صفحات الـكون شطراً الى شطر) معبرا عن ذلك بالشطر دون السطر ، لأن الاشعار التي تبـدو نضيدة انما تبدو نضيدة بشطورها فهي غير النثر الذي يعرف بسطوره •

وخير ما في هذه المقدمة المملة قوله :

تنظّمنا الايام شـعراً وانمـا ترد ّ الليـالي ما نظمن الى نثر

ولـكن استعمال لفظة التنظيم بهذه الصيغة يخرج بالقول عن مصطلح أهله فان الاصل فيه النظم وليس التنظيم •

واذا تتبعنا مسلك الشاعر في أبياته الخمسة هذه وجدناه اختار لها اسوأ الاحوال ، اذ انه كرر في كل بيت منها لفظة (الشعر) من نحو قوله (كل فنّ من الشعر) و (ارى غرر الاشعار) و (وما المرء الاّ بيت شعر) و (تنظمنا الايام شعرا) •• ان هذا ليس من حسن توفيق الشاعر حين يريد ان يقول شعرا ••

حين نظم الرصافي هذه القصيدة لم يكن الاّ فقيهاً متمرناً ، ولم يكن الشعر عند الناس يومئذ قد دار به الشعراء في غير هذا المجال ، وقد كان السيد شكري الآلوسي يصحح للرصافي شعره[٥] فلا يزيد شعره بذلك الاّ تشبثاً بنمط منظومات المتون ••

ومن تمام مقدمته قوله :

فمنّا طويل مسهبٌ بحر عمـره ومنا قصير البحر مختصر العمـر
وهـذا مديح صيغ من اطيب الثنا وذاك هجاء صيغ من منطق هجر

ان هذا محض كلام لا يتمخض عنه معنى سديد ولا حكمة رشيدة ، ولم

---

(٥) ذكر لي العلامة السيد هبةالدين الشهرستاني ان الآلوسي حدّثه عن نفسه بهذا ••

يوفق الشاعر للعثور على لفظة اخرى غير قوله (قصير البحر) بحيث يتلاءم القول مع طبيعة المصطلح الذي يحوم في مجاله ، وقد علمنا انه ليس بين بحور الشعر بحر يسمى بالبحر القصير ..

وابدع الشاعر في ابياتٍ قالها بعد هذا :

ورب نيـام في المقـابر زرتهـم	بمنهلّ دمع لا ينهنـه بالزجـر
وقفت على الأجداث وقفـة عاشق	على الدار يدعو دارس الطلل القفر
فما سال فيض الدمع حتى قرنته	الى زفرات قد تصاعدن من صدري

ثم اكدى حين قال :

أسكّان بطن الارض هلاّ ذكرتم	عهوداً مضت منكم وانتم على الظهر
رضيتم بأكفـان البلى حللاً لـكم	وكنتم اولي الديباج والحلل الحمر

فلقد اخفق الشاعر في التعبير عن كون القوم كانوا على ظهر الارض احياء وذلك بما استعمله من لفظ الارض معرّفةً مطلقة (وانتم على الظهر) .. أما وصفه الحلل التي كانوا يلبسونها على عهد حياتهم بأنها (حلل حمر) فشيء جدّ تافه وضرب من السماجة ظاهر .

وقد كان هذا من بعض ما اصاب الشعراء من توريط القوافي ..

ثم قال :

وقد كنتمُ تؤذى الحشايا جنوبكم	فكيف رقدتم والجنوب على العفر

في الشطر الاول اعاد الشاعر نغمة قديمة كانت تتردد على ألسنة بعض المدنفين والمتعشقين (وربمـا سمع مثل هـذا القيل من أفواه النائحات) وهو معنى تافه ضحل ، فكيف ترى تؤذى الحشايا جنوب الناس ؟

على ان الشاعر لم يمز بين صنوف الموتى هنا وانما رآهم جميعاً ممن كانوا

في الحياة يزدهون بالحلل الحمر وانهم كانوا ـ جميعاً أيضاً ـ تؤذي الحشايا جنوبهم ..

ترى ما هي آية ايذاء الحشايا لجنوبهم ؟ .

اما قوله (فكيف رقدتم والجنوب على العفر) فهو ادعى الى التعجب مما ورد في صدر البيت ..

ثم قال :

ألا يا قبوراً زرتها غير عارف بها ساكن الصحراء من ساكن القصر

فخرج بهذا على ما كان قاله من قبل حين ظنّ ان الحشايا تؤذي جنوب القوم ، فها هو ذا يميز بين طبقاتهم ومنازلهم بعد ان جمعهم على حشية واحدة ..

اما قوله بعد ذلك :

لقد حار فكري في ذويك وانه ليحتار في مثوى ذويك اولو الفكر

ففي الواقع ليس هناك ما يدعو الى حيرة اولي الفكر في ذوى هاتيك المقابر .. والحيرة التي يريد الشاعر ان يشير اليها انما هي حيرة الموت نفسه فأعياه التعبير عما يريد .

على ان هنالك ما هو أعجب من هذا فانّ الشاعر ـ في أوائل هذا الفصل ـ اوضح انه زار نيام المقابر بدمع منهل لا ينفع فيه اللوم والزجر واضاف الى فيض دموعه زفرات محرقة تصاعدت من صدره ، ويفهم من هذا ـ بداهةً ـ ان الشاعر زار موتى له بهم صلات وذكريات ، حتى حسر الشاعر عن الحقيقة حين ابان انه لا يعرف ممن بكاهم احدا ..

وحين نأتي الى الفصل الثالث من (العالم شعر) نجد اوله :

وليل غُدافيّ الجناحين بتّه اسامر في ظلمائه واقع النسر

واقلع من سفن الخيال مراسيا فتجري من الظلماء في لجج خضر

واراد بالخضر هنا وصف اللجج بالسواد وهما بيتان استوفيا نصيباً من السداد والتوفيق . ولكن الشاعر ألحقهما بقوله :

ارى القبة الزرقاء فوقي كأنها رواق من الديباج رصّع بالدر

وفي هذا البيت تعابير كانت كثيرة الشيوع على لسان ابن المعتز واضرابه ممن أوغلوا في البديعيات ولا يتلاءم مثل هذا الاسلوب مع طبيعة المنطق الحديث ..

وخير ما في هذا الفصل قوله :

الى ان رأيت الليل ولّت جنوده على الدهم يقفو اِثْرَها الصبحُ بالشقر

وفي الفصل الرابع من القصيدة يبدأ الشاعر قوله :

ويوم به استيقظت من هجعة الكرى وقد قَدَّ درعَ الليل صمصامةُ الفجر

في هذا البيت سبك بياني يستثير الاعجاب ، وفيه تصوير فخم لانسلاخ الليل من النهار ، وهو جدير باطراء كبير .. ولكن البيت الذي تلاه جاء مثخناً بالسخافة الصلعاء :

فأطربني والديك مشج صياحه ترنم عصفور يزقزق في وكر

فانك ترى ان المعاني التي التمَّ عليها هذا البيت ليست الاّ معاني عجافاً ضحلة تتألف من ديك يصيح وعصفور يزقزق في وكره .. ألا قاتل الله القافية ، لقد ورطت شاعرنا ثانية فساقته الى اقحام لفظة الوكر في شعره لينتهي بها الى نظم بيت جديد ..

اما وصف صياح الديك بالشجو فلا معنى للاشارة اليه في تضاعيف هذا البيت على ان صياح الديكة لا أثارة للشجو فيه ألبتة ، وكل ما هنالك ان نظام

التفاعيل هو الذي دفع الشاعر الى دسّ هذا الحشو السمج في قيله ، والبيت كله حشوٌ سمج ، صدره وعجزه ••

وقال بعده :

ومما ازدهى نفسي وزاد ارتياحها هبوب نسيم سجسج طيب النشر

وهو قول لا قيمة لمعناه •• ولكنه جاء بعده بالبليغ الحسن حين قال :

فقمت وقام الناس كل لشأنه كأنّا حجيج البيت في ساعة النفر

وعاد الرصافي فوصف الشمس بأنها ترفل في غلائلها الحمر وقد سبق ان وصف سكان بطن الارض بأنهم كانوا يلبسون الحلل الحمر

وقوله ـ في وصف الشمس ـ :

غدت ترسل الانوار حتى كأنها تُسيل على وجه الثرى ذائب التبر

جميل رائع مبتكر في وصف الاشعة •

ولكن قوله من بعده :

الى ان جلت في نورها رونق الضحى صقيلاً وفي بحر الفضاء غدت تجري

معيب بتكرار لفظة (غدت) في بيتين متتابعين ، ومعيب من حيث استعمال هذه اللفظة ذاتها ، ولو قال (مضت) لكانت أقرب الى المناسبة ، فان الغدوة يليها الرواح وفي المضي ما يعوض عن الرواح بعض التعويض ، ولكن وضع الغدوّ موضع الرواح ظاهر الخطأ •• الاّ أن يكون خطأ مطبعياً صوابه (عدت) بالمهملة • وهي في كل دواوينه المطبوعة واردة بالمعجمة •

ولفظة (صقيلا) لا مورد لها في مقامها هذا •• لاسيما بعد أن ذكر النور والرونق والجلوّ والضحى • وقد وقعت (في) في غير موقعها لأن المراد (جلت

بنورها) فالملائم باء الاستعانة لا (في) الظرفية •• وهذا فاشٍ بين معاصري الشاعر •

اما قوله :

واهدت حياة في الشعاع جديدة الى حيوان الارض والنبت والزهر

فليس الا محضاً من لغو الكلام مما لا طائل فيه من معنى ، فضلاً عن ركاكة التعبير وضحالة المعنى ، اذ لا مفهوم لوصف الحياة هنا بأنها جديدة •• وقوله (اهدت في الشعاع) تركيب ركيك • وعطف الزهر على النبت تافه ظاهر التفاهة •• و (حيوان الارض) تعبير ضحل عاطل ••

اما ختامه هذا الفصل ، وقد جاء بقوله :

فقلت مشيراً نحوها بحفاوة الا ان هذا الشعر من ابدع الشعر

فمجرد ألفاظ جمعها الوزن والقافية ، ولم يتح لها من الاشراق والجدة ما يجعلها جديرة بشيء من الاصغاء ••

وجاء على اثر هذا فصل جديد بدأه بقوله :

وبيضة خدرٍ ان دعت نازح الهوى اجاب الا لبيك يا بيضة الخدر

ان هذا البيت حسن المفردات فصيح اللفظ وقد نهج فيه نهج المولعين بالمحسنات البديعية ، ولكن ماذا وراء البيت من مقصد ؟ فلننظر •• لقد رأى الشاعر ان يوغل في وصف بيضة الخدر هذه فقال :

من اللاء يملكن القلوب بكلمة ويحيين ميت الوجد بالنظر الشزر

كانت لفظة (كلمة) هنا من معالم الخيبة في البيت •• ـ وقد اقتضى ورودها ان تجيء لامها ساكنة مما زاد في دواعي الخيبة ••

أجل انها من معالم الخيبة •• كأنَّ مئين من المفردات التي تناسب هذا المقام قد حذفت من معاجم اللغة وكأنّ الشاعر لم يقرأ شيئا لشعراء الهوى والتشبيب ممن سبقه من عذريين وغير عذريين ••

أما قوله (ويحيين ميت الوجد بالنظر الشزر) فمجرد ألفاظ ميتة بالية ليس لها أيّ مفهوم منطقي أو شعري •• فما هو يا ترى ذلك الوجد الميت وما محل هذا النظر الشزر من الاعراب في هذا الباب ؟؟[٦] ثم قال :

تهادت تريني البـــدر محدقة بها	اوانس احـداق الـكواكب بالبدر
فلله ما قـد هجن لي من صـبابة	ألفت بها طيّ الضلوع على الجمر

أصل الامر ان الشاعر يتحدث عن (بيضة خدر) مصطفاة مخصوصة ، فاذا بالامر ينتقل الى جوّ آخر ، فما ذاك التخصيص وما هذا التعميم ؟ •• ثم قال في وصف جماعة الاوانس هؤلاء :

تصافح احداهنّ في المشي تِرْبَهَا	فنحر الى نحر وخصر الى خصر
مررن وقد اقصرت خطوي تأدّباً	واجمعت امري في محافظة الصبر
فطأطـــأن للتسليم منهـــن ارؤساً	عليهـا اكاليل ضفرن من الشـعر
فألقيت كفي نحـــوهنّ مســـلماً	واطرقت نحو الارض منحني الظهر
وارسلت قلبي خلفهـــن مشـــيعاً	فراح ولم يرجع الى حيث لا ادري
وقلت وكفي نحـــوهن مشـــيرة	الى ان هذا الشعر من اجمل الشعر

---

(٦) حار شارح الديوان في تعليل هذا البيت ، كما يبدو من شرحه على الحاشية •

انها ستة أبيات ولـكنها ليست الا خليطاً من المبالغات الساذجة ، وخلاصة ما يقال فيها انها (سالوفة) لم يتقن الشاعر عرضها عرضاً موفقا ..

لقد سمعنا كثيراً من شعراء العرب يصفون مثل هذه المشاهد فلم نجدهم تبالدوا مثل هذا التبالد في وصف مشاهدهم .. فها هو ذا امرؤ القيس الشاعر الجاهلي يصف مشهد نسـاء اجتمع بهن فلم يأت الا بكل لفظ جميل ومعنى بارع ..

فظل العذارى يرتمين بلحمهـا وشحم كهدّاب الدمقس المفتّل

وذلك عمر ابن ابي ربيعة وغيره من شعراء الغزل ، فما بال الرصافي يعرّج في وصف آنساته الى توافه المعاني كقوله (تصافح احداهن في المشي تربها) وقوله (واجمعت امري في محافظة الصبر) وقوله (والقيت كفي نحوهن مسلّما) وقوله (منحني الظهر) الى آخر هذا النسال المتهافت ..

اما الفصل الذي يليه فيتألف من عشرة أبيات ليس فيها مما يحسن روايته شيء خلا الابيات الاربعة الاخيرة فانهـا في الحق من الحسـنات اللائي يذهبن السيّئات . ويتعلق هذا الفصل بوصف الفنغراف ـ وكان قـد ظهر بين الناس حديثا ـ حيث قال :

ومائدة نسج الدمقس غطـاؤها بمجلس شبان هُمُ انجم العصر
رقى من اعاليها الفنغراف منبراً محاطاً بأصحاب غطارفة غـــرّ
وفي وسط النادي سراج منوّر فتحسبه بدراً وهم هالة البـدر

لقد كرر الشاعر وصف اولئك الشبان في كل من هذه الابيات الثلاثة من دون حاجة الى مثل هذا الاغراق في الوصف ، فهم انجم العصر وهم الغطارفة

الغرّ وهم هالة البدر •• فما معنى هذه الاطالة في وصف القوم على حين ان اصل الموضوع يتجه الى آلة الفنغراف التي ادهشت الشاعر وبلبلت افكاره •

في العادة ان المجالس التي هي من هذا النوع ـ أي المجالس التي تلتمّ حول اعجوبة من الاعاجيب لتتفحصها وتمحّصها ـ انما هي مجالس يجتمع فيها اخلاط الناس ، اما ان يكون هؤلاء جميعا هم نجوم العصر وهم هالة البدر وهم الغطارفة الغر ففي الحق انه لأمر عجيب ••

اما وصف السراج الذي في النادى بأنه بدر فقد جاوز به حد الابتذال في الوصف •• والابيات التي نراها موفقة في هذا الفصل هي قوله :

امين ابى التدليس في القول حاكياً	فتسمعه يروي الحديث كما يجرى
تراه اذا لقنتـــه القول حافظـــاً	تمر الليالي وهو منـــه على ذكر
فيالك من صـــنع به كل عاقـــل	أقرّ لأديسون بالفضـل والفخـر
فقلت وقـــد تمّت شقاشق هدره	الا ان هذا الشعر من اعجب الشعر

وفي الحق ان هذا الوصف للفنغراف استوفى اروع جوانب الوصف ••

اما الفصل السابع من هذا العالم الشعري فليس فيه ضرب جديد من القول وقد ختمه الشاعر بقوله (الا ان هذا الشعر من افجع الشعر) وقد سبق له ان قال مثل هذا في خاتمة الفصل الثاني ••

وما عرضه الشاعر في هذا الفصل ليس مما يقع للناس الا نادراً ••

ويحوم الفصل الاخير من (العالم شعر) حول امرأة عجوز سجن ولدها ظلماً ، فكانت تأتيه السجن لتراه وكان السجان يزجرها على ذلك ، وختم الفصل بقوله (الا ان هذا الشعر من أقتل الشعر) •• فما معنى (من اقتل الشعر) ؟

والفصل الاخير ـ هذا ـ ركيك التراكيب تافه المعاني مشحون بالحشو الذي

لا زبدة له فضلاً عن غرائب المزاعم •• ومن كذب القول فيه ما قاله :

فجئت اعاطيها العـــزاء وأدمعي   كأدمعها تنهـلّ مني على النحر

هذه هي قصيدة (العالم شعر)[٧] •

---

(٧) يرى الشيخ عبدالقادر المغربي ان هذه القصيدة (العالم شعر) بجملتها توشك ان تكون من قبيل الابداع والابتكار لما تضمنته ــ على ما يرى ــ من جمال الاسلوب وحسن التنسيق والتفنن في ايراد الاغراض •• اهـ

ولـكن الشيخ المغربي واهم فها هي ذه ، وصدق الله اذ يقول (قل فائتوا بالتوراة فاتلوها) •

٣) تجاه اللانهاية

هذه القصيدة من روائع قصائده نمطا وبيانا ، ولـكن أبياتها تتباين من ناحية القوة والضعف ، فان أوائلها واضحة القصد ظاهرة المنحى جيدة السبك مألوفة المعاني ، ولا يصدق شيء من هذه الخصائص على خواتيمها ولعلّ تعليل ذلك يرجع الى ان الشاعر بدأ القصيدة بحسّ خاص ثم اختلف عليه نهج التفكير قبل اتمامها •• قال الشاعر :

أبْعَدَ الدهرُ في الفضاء مكرّه ... عالقـا من مكـرّه بالمجـرّة

ان امّ الفضـاء بنت زمـان ... لم تزل حـادثاته مسـتمرّه

في فضاء لو سافر البرق فيـه ... ألف قـرن لمـا اتى مستقرّه

ولو الشمس ضوعفت الف ضعف ... لم تكـن في اثيره غـير ذرّة

ولو الفكر غاص فيه مغـذّا ... لم يكن بالغا يد الدهـر قعره

سعة تحسب المجـرّة فيهـا ... حلقـة ألقيت بصحراء قفـرة

يقف الفكـر دونهـا مكوئدّاً ... مقشعرّاً وتأخذ العقـل حـيرة

لو اضـفنا الى الفضاء فضـاءا ... مثله لم يزد ولا قيـد شعرة

ان تكن هـذه المجرّة نهـرا ... مستفيضا فشمسنا منـه قطرة

او تكن ارضنا من الشمس جزءا ... فهي سقط من جمرة مستحرّة

من المآخذ المأخوذة على الشاعر في هذه الابيات قوله (يد الدهر) فاذا لم تكن اللفظة خطأ مطبعيا صوابه (مدى الدهر) فانما يريد بذلك القسم ولا يلائمه استعمال (يد الدهر) في هذا الموضع وانما يلائمه استعمال صيغة (يد الله) وبذلك يجيء القسم أدقّ وأبرع .

وكذلك يؤخذ عليه قوله (حلقة ألقيت بصحراء) فان النصّ على الحلقة لا يعني شيئا معيّنا ، ولو قال ما قاله غيره من تشبيه تلك السعة بالنواة تلقى في الفلاة لجاء بما هو معهود من القول مألوف ..

ثم قال :

ان تسائل عنّا فنحن هباء	ذرّ من صنعة القوى بمذرّة[8]
صادفتنا اشعة من حياة	فظهرنا وهل لأول مرّة
كل من جاوز الاشعة منّا	فهو هاو في ظلمة مكفهرّة
فعلام الحقود يضمر حقداً	وعلام الجهول يظهر كبره

ما هي صنعة القوى هذه ؟ ومن اين جاء بهذا الاصطلاح وما معنى (فنحن هباء ذرّ بمذرّة) .

وما هي اشعة الحياة التي صادفته فظهر وما كتم في (اول مرة) من قصد ومن حاجة ؟

وكيف يجاوز المرء هذه الاشعة ليهوي في الظلمة المكفهرة وما هذه الشقشقة في الالفاظ والفيهقة في المصطلحات ؟ ثم ما هذا الختام الاخلاقي الوعظي لقضية تتعلق بفلسفة الأفلاك ؟

في الواقع ان الشاعر أراد ان يبدو فيلسوفاً فلم يجد غير ان يشرح عظمة الكون على أساس نسبة هذه العظمة الى القوى الموهومة ، ولقد كان على الشاعر ان يذكر الله ولو بايجاز مخلّ ليكون قد نسب الامر الى من صنعه وابدعه .. والشاعر نفسه لم يكن قد استطاع ان ينكر ما تثيره عظمة هذا الكون من حيرة

---

(٨) القوى ، يكثر الشاعر من استعمال هذا اللفظ ويعني به القوى الطبيعية .

في الافكار وقشعريرة في النفوس فقد قال :

يقف الفكـر دونهـا مكـوئداً مقشعراً وتأخذ العقـل حيرة

ترى أكانت نتيجة هذه القشعريرة التي اصابت الفكر ، والحيرة التي أخذت العقل ، ان تنسب عظمة الـكون الى المصادفات ؟؟

ولقد كان اقرب الى المناسبة ان يختم الشاعر قصيدته بغير ما ختمها به من معنى وعظي جامد ، لقد كان عليه ان يختمها بالنعي على الذين ينكرون الخالق العظيم ضلة منهم وجهلا وتغابياً عن هذه الآيات والمعالم القائمة في كل مكان من الارض والسماء ••

٤) من اين والى اين ؟

تتقوم هذه القصيدة من سبعة وخمسين بيتا ولـكن الجيد منها نزر لا يجاوز عدد أصابع يد واحدة لا غير ، والمراد بالجيد هنا ما كان متقن الآداء حسن النسق ..

وقد أراد الشاعر الظهور ـ في قصيدته ـ بمظهر الفيلسوف الباحث في اغوار الطبيعة وفي خفايا ملـكوت الله العريض ..

ونجد بعض أوصافه وأقواله وهي تبدو كأنها كلام لا مفهوم له ، كقوله :

نحن على رغم ما علمنـا　　　نعيش في غيهب العمـــاء

وكثير من أبيات القصيدة مجرد ربط كلمات لا طائل في ربطها .. وقد حاول الشاعر ان يحتجن في أبياته بعض النظريات العلمية في الطبيعة ولـكنه غلف هذه النظريات حين نظمها بغلاف من التعمية بحيث لم تعد مفهومة ولا واضحة ، كقوله في نظم حركة الجزيئات في الاجسام :

وفي دقاق الجماد عـــرك　　　يتهـــم الحسّ بالخطـاء

وغمز الشاعر مسألة الروح وما يقال في امر عروجها وارتقائها بعد ان صوّر وضع الارض والنجوم وانها كلها في فلك واحد بحيث تبدو الارض سماءاً لغيرها من النجوم حين يبدو غيرها من النجوم سماءاً لها ، فقال في ذلك :

فليت شعرى اىّ ارتقـاء　　　للروح يبقى اىّ ارتقـاء

وفي فصل من فصول هــذه المنظومة تحدث الشاعر عن مناجـاته للنجوم

ومناداته اياها ، وكان هذا الفصل في الحقيقة كخاتمة كوميدية لهـذه التمثيلية المشوهة ، وقد جاء ضمن أبياته هذه من ضحل المعاني ما فيه العجب فقد قال :

وليــلة بتّهــا انادي نجومها ابعــد النــداء

آخــذ منهــن بالتداني فكراً ويأخــذن بالتنائي

فأنثني باكيــا بشــعري ويطرب الليـل من بكائي

وربما كرّ بعــد وهنٍ فكري فألفي بعض الشفاء

فأرجــع القهقرى اغنيّ وما سوى الشعر من غناء

فليس في هذه الابيات أي معنى سام ولا أي غاية سليمة ، فهو ينثني باكيا بشعره ويطرب الليل من بكائه دون ان يكون ثمة ما يدعو الى هذا البكاء ، ثم يكرّ فكره بعد كلال فيجد بعض الشفاء .. فمن ماذا كان هذا الشفاء وفيم كان ذاك الكرّ وما هذا الرجوع القهقريّ وذلك الغناء وما هذا التخليط والوصف الممل الذي لا يزيد الكلام الاّ غموضاً وعماءا ..؟

في هذه الابيات بيت واحد يصح ان يوصف بأنه جميل المعنى رصين السبك :

آخــذُ منهــن بالتداني فكــراً ويأخذن بالتنائي

ومما ورد في القصيدة أو بلفظ أصح المنظومة من خيار القول ورائق المعنى قوله في وصف المجرة :

كأن أمّ النجــوم سيف سلّ على الليل ذو مضاء

فهو في الحقيقة معنى بارع جميل .

ومما ورد مورد النكتة اللاذعة قوله في نجم السها وهو نجم خفيّ تمتحن الابصار برؤيته :

كأنّ نجم الســها اديب في ارض بغداد ذو ثواء

وقد وفق الشاعر بقوله هذا في تصوير حياة الاديب في بغداد وما هو عليه من ضياع واهمال ومهانة ..

وجاء في ختام المنظومة :

انت ابن فقــر الى امور بهن تدعى بابن الثــراء

والخطاب هنا للمترف المتكبر ، والحقيقة ان الشاعر اهتدى الى اصدق تعبير يعبر به في معرض توبيخ مترف متكبر ، وفي تركيب البيت ابداع في الطباق والمقابلة حقيق بالاعجاب .

ومن الابيات الجزلة الرصينة ما كان قد جاء في أوائل المقطوعة :

ان طريق النجــاة وعــر يكبو بــه الطرف ذو النجاء

يا قوم هل في الزمان نطس يهــدي الى ناجـع الدواء

هذان البيتان مستوفيان لـكثير من عناصر البلاغة ، ولـكن محلهما ليس في مثل هذه المنظومة الفلـكية الجامدة .. أما قوله :

ما زلت من حيرة بأمرى معــانق اليأس والرجاء

فلا مفهوم للرجاء هنا ، ولا معنى لمعانقته ..

ومن ركيك التعبير :

نشرب مــاء الظنون عبّاً فلم نعــد منــه بارتواء

ليس لاستعمال (لم) هنا موقع صحيح ، وكان عليه ان يستعمل للنفي (لا) التي لا تقلب زمان الفعل المنفيّ الى الماضي فعل (لم) لان الموضوع موضوع استمراري لا ماضويّ .. اما قوله :

تأتي علينــا مشــاهدات نروح منهــن في مراء

فانه يشير الى ان الشاعر يكذب المحسوسات ويماري في الحقائق الثابتة ، وليس في هذه المقولة ما يستحق ان يذكر طيّ هذا الموضوع ، اذ ان الشاعر يشكو غموض الامور وخفاء سرّ الطبيعة ، فاذا وضح له من الامر شيء وجاءته الامور مشهودة فليس من المنطق ان يغلفها بالمراء ويحيطها بالجدل ، فاذا فعل هذا كان حرياً ان يستوي عنده البين والغامض والجليّ والخفيّ ، ففيم هذا العناء وراء غيوب الطبيعة ومبهمات شؤونها اذا كانت المشاهدات عنده هي في حكم الغوامض التي يماري فيها ويتجادل حولها ..

واما قوله :

لأيّ امر ذه الليـــالي تمضي وتأتي على الولاء
فتطلع الشمس في صباح وتغرب الشمس في مساء

فان شيئا من هذا الـكلام لا يصلح ان يكون مادة للفلسفة اصلا ، وانما هو محض كلام عابر ..

وبهذا يكون الشاعر قد فشل في توخي سبيل الفلسفة فشلا ذريعا بالرغم من انه حاول ان يجعل مثل هذه القضايا آية من آيات الفلسفة كما يلاحظ من اشارته التالية وهو يخاطب الـكهرباء :

وكم تقاضـــاك فيلسوف حقيقـــة صـــعبة الاداء
فقال والقول منـــه ظنّ ما الـكون الاّ بالـكهرباء

٥) نحن على منطاد

هذه القصيدة خليط من البحوث الطبيعية والوعظية وفيها من الاقاويل ما هو بعيد عن وحدة الموضوع ..

وعلى القصيدة مآخذ كثيرة ، منها التناقض البارز في وصف الارض ـ فوق كون هذا الوصف في بعض جوانبه غير علمي ـ فهو يقول في وصف الارض بأنها منطاد جائل في شواسع الابعاد ، طائر في عرض الفضاء وطوله ، ثم يحجر هذه الشواسع من الابعاد حين يقول :

فلك دائر على الشمس طـورا   في اقتراب وتارة في ابتعـــاد

ومن خطل الوصف قوله :

فيك دفع وفيك يا أرض جذب   لك ذا سائق وذا لك حـــادي

ومن مواعظه الرائقة :

ايهـا الغـرّ لا تغـرّك دنيـاك بكون مصـيره لفسـاد

ومما استعمله من مصطلحات الحساب استعمالاً موفقا قوله :

ضاع جذر الحياة عنّا فخلنـــا   أنهـــا كالأصمّ في الأعـــداد

ومن الابيات الرائعة في القصيدة :

ضلّ من رام راحة في حيـــاة   نحن منها في معرك وجـــلاد

ولو قال (هو منها) لـكان الانسجام اوضح .. وقوله :

لا تلمنـــي اذا جـــزعت فاني   ما ملـكت الخيار في ايجـــادي

ظاهر فيه اختلال القياس المنطقي •• اما قوله :

كـدرت عيشي الحوادث حتى لا ارى الصفو غير وقت الرقاد

فانّ عليه من المآخذ ان الرجل اذا كدرت الحوادث عيشه بان اثر ذلك عليه في يقظته ورقاده فهو لا يرى الصفو في أية حالة من الحالتين ، ولله قول الشيخ الشاعر محمد رضا الشبيبي :

(نوم طفيف ويقظات مروّعة لله حالة امسـائي واصباحي)

ومما استعمله الرصافي من القواعد الفيزيائية استعمالا رائقا قوله :

خفّ من غاص في الغرور كما في لجة المـاء خفّ ثقـل الجمـاد

اما قوله :

انمـا هـذه الحياة جروح اثخنتنا والموت مثل الضماد

فهو ضرب من الرقائق المبتذلة •• وللشيخ الشبيبي ما هو اعلى مستوى من هذا حين يقول :

(وما الموت الاّ صحّة معنوية لمن شاء ان يقضي الحياة سقيما)

اما قوله :

خاب قوم اتوا وغى العيش عزلا من سلاحي تعـاون واتّحاد

فجميل المعنى حسن التأدية •• وقوله :

فمتاع الحياة احقر من ان يستفزّ القلوب بالاحقـاد

فانه رغم فهاهته منتزع من قول المتنبي :

(ومراد النفوس أصغر من ان نتعادى فيـه وان نتفـانى)

غير ان بين البيتين بوناً كالبون الذي بين السماء والارض •• وقول الرصافي :

ان لي ان سمعت أنّة محزون أنيناً مرجّعاً في فؤادي

رائق بليغ الاداء •• اما قوله :

عصـر حكم البخـار والـكهربائية والماكنـات والمنطـاد

فليس الا ّ مجرد ألفاظ رصفها فوق أخرى ، على أن ّ مثل هذا لا يصلح ان يعد ّ سمة ً وطابعاً للعصر الذي يتحدث عنه ••

ومما ابدع فيه :

لا تسابق في حلبة العز ّ ذا العلم فما للهجين شأو الجواد

وقوله في ختام القصيدة :

هكذا دار دائر الـكون من حيث انتهى عاد راجعا للمبادى

فان فيه من حسن الصياغة ما هو ظاهر غير انه لا مفهوم له علمي •
ومما قاله في تعيين شخصية الليل والنهار فأحسن فيه :

ايها الارض سرت سيرك مثنى ذا نتاجـين في زمان احـاد
فتقلبـت في نهـار وليـل ذا مضل ّ وذاك للناس هـاد
في بـلاد يكـون سيرك تأويبـاً على انـه سُـرى ً في بـلاد

ومن رقائقه الوعظية :

شغلتنا الدنيا بلهـو ولعب فغفلنا والمـوت بالمرصاد

وابدع الشاعر في وصفه حركة العلم الجبارة رغم من وقف في وجهها من رجال الـكنيسة في الغرب ونحوهم :

فاض فيض العلوم بالرغم ممن ضـربوا دونهـن ّ بالأسـداد

ومن حكمياته الساذجة المصوغة بقالب علمي الاسلوب :

لو عقلنا لما اختشى قط ّ محسودون وقع الاذاة من حسّاد

وجميل ٌ بارع ٌ قوله :

لا أحب ّ النسيم الا ّ اذا هب ّ على كل حاضرٍ او باد

ومن روائع ابياته في الوصف :

رب يوم وردت دجلة فيـه مورداً خاليـا عن الوراد

حيث ينصبّ في سكوت عميق　　ماؤها لا نساً ضفاف الوادي

ومنها قوله وقد أحسن أداءه :

ايها المـــاء اين تجري ضياعاً　　وحواليك قاحــــلات البوادي

فمتى تفطن النفوس فيحيـــا　　بك سقياً موات هذي البـــلاد

لو زرعنا بك البقـــاع حبوباً　　لحصدنا النضار يوم الحصـــاد

ان هذه القصيدة تفتقد وحدة الموضوع فقد باتت من دون ذلك كأنها مرقعة الدراويش ..

٦) كلمة معتبر

هذه قصيدة وعظية متخنة بالبديهيات من الآراء والاقاويل ، أتهم فيها الشاعر وأنجد ، وهي بصورة عامة ركيكة السبك خلا' ما ندر من أبياتها •• المطلع منها رقيق عاطفي الحسّ :

اقوى مصيف القوم والمربع فالدار قفــر بعدهم بلقــع

يليه بيت مهلهل خلق المعنى هو قوله :

سارت بنا الارض الى غـاية لنا وللارض هي المرجـــع

ثم يقول :

ونحن كالماء جرى نابعــاً لـكن علينـا خفي المنبـع

في عجز البيت ركة نشأت من تقديم (علينا) على (خفي) •

والابيات التي تلي هذا يتحدث فيها الشاعر عن العلم ويأخذ في مخاطبته ، ولـكنها بمجموعها ضحلة ركيكة •

والعلم قـد انكر منهاجنا ولم يبن اين هو المهيـع
خرقت يا علـم رداءا لنا كنا ارتديناه فهـل ترقع
فجعتنـا يا علـم في امرنا أمعتب انت اذا تجـزع
لقد طغت حيلة اهل النهى هل فيك يا علم لها مردع

اما قوله :

كم نشرب الظنّ فلا نرتوي ونأكل الحدس فلا نشـبع

فقد جنى عليه الحرص على المطابقة ان يأتي بهذه المقولة المضطربة •• ان شرب الظن واكل الحدس من التعابير البلهاء في مثل هذا المقام ••

ثم قال :

والناس ويل الناس من غفلة ترتع والمــوت بهـــم يرتع

هذا البيت غير منطقي لأن رتوع الموت بالناس لا يمسكه ان يكونوا واعين أو متنبهين •• وهو من هذا الوجه لا ينطوي على حكمة وليست له قيمة منطقية ، اللهم الاّ لمن شاء ان يستشهد به من اهل الرقائق ••

اما قوله :

والـكون قد لاح بمـــرآته للعيش وجـــه شاحب اسفع

فمحض ألفاظ مسطورة لا غير •• وقوله :

وانّ في البدر لخطباً بـــه في البدر لاحتْ بقعٌ أربع

لا يعدو ان يكون مما ينظمه المبتدئون من صغار الشعراء وهو لا يحتجن من الشعر غير التزام الوزن والقافية اما المعنى فلا ، واما العدد الذي عدّ به البقع فليت شعري كيف ضبطه ؟

وما هذا الخطب بالبدر وما معنى العروج على وصف البدر بمثل هــذا الوصف وما جدوى هــذه الالفــاظ التي يبدو عليهــا العيّ والاختلاج وسيطرة القافية ؟!

أما قوله :

فالعين ما يورث حزناً ترى والاذن ما يزعجها تســـمع

فانه لا صلة له بما قبله ، ولـكنه من المقولات الوعظية التي تصلح للاستشهاد ضمن المواعظ والرقائق لاسيما لدى الذين ينظرون الى الحياة بمنظار أسود ••

ومن بديهياته الباردة :

والارض في منقلـب بالورى والشمس من مشرقها تطلـع

حتى اذا ما بلغت شوطها لاحت نجوم في الدجى تطلع
وهكذا الظلمة تتلو الضيا والضوء للظلمة يستتبع
ونحن في ذاك وفي هذه بالنوم واليقظة نستمتع

وعاب البيت التالي استعمال لفظة (يميت) :

ما بين مسعود يميت الدجى نوماً ومنكود فلا يهجع

وكذلك عابه استعمال (الفاء) في قوله (فلا) وهو يريد الصفة ، ولا يجوز الفصل بين الموصوف وصفته بمثل هذا الفاصل ..

واتبعه ببيت من البديهيات التافهة :

ومسرع يسبقه مبطىء ومبطىء يسبقه مسرع

ومن الابيات التي تصلح لاستشهاد اصحاب الرقائق :

لو كان للقسوة عين وقد رأته كانت عينها تدمع

على ان تراكيب هذا البيت ظاهرة التلكؤ ..

ومن بديهياته :

والماء يمشي وشلاً تارة وحوضه آونة مترع
والريح تجري وهي ريدانة حينا وحينا عاصف زعزع
وبعضهم تمرع وديانه وبعضهم واديه لا يمرع

وهي أبيات رغم بداهتها لم تعدم جودة السبك واختيار الالفاظ .. ثم انتقل الشاعر الى فصل آخر أمعن اغراقا في الرقائق ..

قد يحسب الانسان آماله والموت مصغ نحوه يسمع

وهو بيت جميل الصياغة بارع المعنى .

وقال :

حتى اذا اكمل حسبانها وافاه ما ليس له مدفع

صدر البيت بديع جيد ولكن عجزه واهٍ ركيك •• ثم أتبع قوله بأبيات لم يوفق فيها لشيء من الجدّ أو شيء من الهزل ، الى ان قال :

فاستلّ مثل السيف من مطرف طرائق الوشي بـه تلمع

وهو بيت حسن التركيب والتشبيه •• وقال يصف الكفن فأجاد فيه :

ولفّ في ثوب له واحد ليس له رقم ولا ميدع

على انه قول جاءت به القافية وكان الشاعر مغرماً بغريبها ••

ومن بارعات حِكَمِهِ قولُه وقد استوى له حسن الاداء وفصاحة اللفظ :

لله درّ المـوت من خطـة فيها استوى ذو العيّ والمصقع
يخون فيهـا القول منطيقه كما تخون البطـل الادرع

ومن الرقائق :

ما اقدر الموت فمن هوله لم ينج لا كسرى ولا تبّع

ولو قال (لم ينج كسرى لا ولا تبع) لجاء بالفاعل ظاهرا على الاقل ••
ومن معانيه المتخَيَّلَة :

يا رافع البنيان كم للردى من سلّمٍ يدرك ما ترفع

ولو قال (يبلغ) لأحسن ففي القرآن الكريم (لَعَلّي أبلغُ الاسباب) اما الادراك فلا يرد في مثل هذا المعنى •
اما قوله :

ويا طبيب القوم لا تؤذِهم ان دواء الموت لا ينجـع

فمما يسمع كثيرا على افواه النائحات •• وهو مما لا قيمة له •
ثم قال :

لابدّ للمغرور من منـدم بالعضّ تدمى عنـده الاصبع

وهو من الحكميات الساذجة التي لا بأس من الاستشهاد بها في الرقائق والمواعظ ••

ثم قال :

وما عسى تغني وقد حشرجت ندامة ليست اذن تنفع

ان صدر البيت مضافاً اليه أول العجز جميل مستوف الكثير من ضروب الجودة ، اما ما بقي من ألفاظ العجز (ليست اذن تنفع) فقول لا قيمة له ، بل انه أتلف به سمعة البيت من الناحية البيانية ..

وقد ختم الشاعر قصيدته ببيت بديع :

وليس في الامكان عند النهى ابدع مما خلق المبدع

وهو نظم للقول الشائع ، ليس بالامكان ابدع مما كان ..

٧) ألــكني يا ضياء

من قصائده التي نظمها في دور الانتقال من شعر الفقهاء الى شعر الأدباء ، وقد اجتمع له فيها الى جانب القوة ضعف ظاهر الهزال والى جانب البيان والابداع ركاكة واختلال ..

ومما احسن في ادائه ما جاء في أوائل القصيدة :

أجــدّك يا كواكب لا ترينــا ... بيــانا منــك يخبرنا اليقينــا

كــأنّ العالم العلويّ ســفر ... نطالعــه ولســنا مفصــحينا

نحاول منــه إعراب المعــاني ... بتأويل فنرجــع معجمينــا

كواكب في المجرّة عائمــات ... حكت في بحر فسحتها السفينا

سرت زهر النجوم وما دراهــا ... فلاســفة مضــت ومنجمــونا

شموس في السماء علت وجلّت ... فظنــوا في حقيقتها الظنــونا

سوابح في الفضــاء لها شؤون ... ولمّا يعملــوا تلك الشــؤونا

وما ارتجفت بجنح الليــل الآ ... لتضحك فيــه ممــا يزعمونا

وعلى مثل هذه المقدمة مآخذ قليلة منها قوله (فلاسفة مضت) ولو قال (مضوا)

لكان احسن بيانا ، ومنها قوله (لا ترينا) وهو يريد ان يقول (لا ترينا) ، وكذلك قوله (وجلت) بعد قوله (علت) وانما جاء باللفظة سدا للشاعر من التفاعيل • والبيت الذي قال فيه :

وما ارتجت بجنح الليل الا   لتضحك فيه مما يزعمونا

جميل الاداء بارع التخيل •• ثم يقول :

لعل لها بهذا الجو شأنا   سوى ما نحن فيه مرجّمونا

ولا محل لقوله هذا بعد ان أثبت قبله ان لها شؤوناً لم يعلمها الفلاسفة والمنجمون (سوابح في الفضاء لها شؤون) ومن اثبت لشيء خصيصة فليس له ان يكرر القول في ذلك على وجه التردد ••

ثم قال :

تودّ الغانيات اذا رأتها   لو انتظمت لها عقداً ثمينا
تقلّده على اللبّات منها   وتطّرح الدمالج والبرينا

وقد جاء في هذا بمعنى سخيف ، ويبدو انه حاول تقليد الشاعر القائل :

(ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها   عقود مدح فما ارضى لكم كلدي)

فجعله هوى غانية تود ان تتقلد عقداً من النجوم •• وليس للغواني هوى مثل هذا الهوى ولا خيال مثل هذا الخيال ••

ومما حسن من قوله :

ألكني يا ضياء الى الدراري   رسالة مسهرٍ فيها الجفونا
لعلك راجع منها جواباً   يزيل عماية المتحيرينا

وأراد ان يتفيهق قليلاً فقال ـ في مخاطبة المجرة ـ :

وهل بك مثل هذي الارض ارض وفيهـــا مثلنـــا متخالفـــونا
وهـل هم مثلنـــا خُلُقاً وخَلْقاً هنـــاك فيأكلـــون ويشـــربونا

ومن الاضطراب البياني قوله :

وقالـــوا مالعـــدّتك انتهـــاء فهل صدقوا ام ارتكبوا المجونا

فانه لا مقابلة بين الصدق وارتكاب المجون •• وقال وهو قول لا يعتصر منه غير المعنى التافه :

وقالوا الارض بنتك غـير مين فهـل أبنـــاء بنتـك يصـدقونا
وقالوا ان والـــدك المفـــدّى أثير في الفضـاء أبى السـكونا

ولا مساغ لوصف هذا ـ الوالد ـ بالمفدى لولا ان في استعمال هذه اللفظة تسوية لوزن التفاعيل ••

ولـكنه احسن في قوله :

ترصّـــدك الأنام ومـا اتانا بعلـــم كيانك المترصـــدونا
فهرشل ما شفى منا غليـــلاً ولا غاليل أنبـــأنا اليقينـــا

وختم الشاعر قصيدته بهذه الابيات :

الى كم نحن نلبس فيك لبساً ومن جـرّاك ندّرع الظنـونا
لعـــل النجم في احدى الليالي ســـيبعث للورى نوراً مبينـــا
تقـوم لـــه الهـواتف قائـلات خذوا عني النهى ودعوا الجنونا

ان ضحالة المعنى وخطل الفكرة وركاكة التعبير واضحة كل الوضوح في هذه الابيات ..

هذه القصيدة تومي كما قلنا الى ان الشاعر كان لا يزال يدرع غلالة الفقهاء في نهجه الشعري وان كان قد هفا بشوق وحرص عظيمين الى الدراسات العلمية التي كانت تنشرها (المقتطف) ونحوها من مجلات ذلك العهد ..

٨) الارض

تشبه الموشحة التالية من حيث موضوعها ما اعتاد نظمه الفقهاء من متون اللغة والحديث والمصطلحات الفنية •• والرصافي في موشحته لم يفعل غير هذا ، على ان شعر المتون ليس من الشعر الذي يكتب له التوفيق وذلك لما يضطرّ اليه ناظمه من حشر المصطلحات وتعداد التسميات التي تفرض نفسها عليه فرضاً فتنمحي من الشعر بذلك كل لمحة من لمحات الابداع والسحر والروعة ، ولذلك كان شعر المتون في الغالب ضرباً من أردأ ضروب الشعر •

والرصافي رغم جدّة المادة التي أثبتها في قصيدته ، وما تبع ذلك من غرائب أسماء النجوم والافلاك فان الركة والتداعي كانا سائدين تماماً في جو تلك الموشحة ••

وقد خذل الشاعر خذلاناً واضحاً في كل مقطع من مقاطيع موشحته من الناحية التعبيرية فلقد جاءت تعابيره في الغالب الأعمّ فجّة وفيها من الالتواء ما لا يستقيم معه ظلّ ••

قال في صدر القصيدة :

خبر في الارض أوحته السما   لأولي العلم برسل الفكر

ان هذي الارض كانت اوّلا   ما ترى بحراً بها او جبلا
او سهولاً او رُبا او سبلا   او رياضاً زهرها الغضُ نما
من سحاب جادها بالمطر

انمـــا كانت كتلك الاخـــوات   من نجـــوم ســائرات دائرات
حول شمس هي احدى النيرات   كنّ من قبـــل عليهـــا سدما
كتـــلة واحـــدة في النظـــر

ثم بعد انفصلت من ذا السديم   قطع منهـا صـــغير وجســـيم
ضمن افلاك بهـــا الدور تديم   فاستقرّ الـكلّ فيهـــا أنجمـا
حول غير الشمس لم تســـتدر

اولاً (نبتون) منـــه انفصلا   ثم (اورانس) يهدى زحـــلا
ثم للمشتري مرّيخ[9] تـــلا   ثم هذه الارض فالزهرة مـــا
بعدها غير اخيهـــا الأشهر[10]

واخو الزهرة بالشمس اقتدى   ولهـا اقـــرب ســـيار غـــدا
وهي سارت خلفه طول المدى   فامـــام الارض ذان انتظمـــا
خلفهـــا المرّيخ ثم المشـــتري

ارضـــنا كانت لظى مشـــتعلة   مُذْ من الشمس غدت منفصلة
لم تزل في دورهـــا منتقلـــة   كتلة فيهـــا اللهيب احتـــدما
وهي ترمي في الفضـا بالشـــرر

كان فيح النار منهـــا مصـــعدا   وَهَجاً في الجوّ عنهـــا مبعدا
حيـــث لا يملك ان ينعقـــدا   فوقها منـــه بخـــار ديمـــا
هاطـــلات بالحيـــا المنهمـــر

(٩) هذا شأن المتشاعرين لا شأن الشعراء المقدمين ..

(١٠) ان عطارد ليس أشهر النجوم بل اخملها من حيث خفاء جرمه ، وقد سماه الشاعر اخا الزهرة ..

بقيت حيناً وهذا امرها وهي بالاشعاع يخبو حرّها
وانثنى يبرد من ذا ظهرها فاكتست قشراً يحاكي الادما
واستمرت بطنها في سعر[11]

ثم قد صارت على مرّ الزمان قشرها يغلظ آناً بعد آن
بيد ان النار عند الهيجان قد اعادت قشرها منخرما
بصدوع مدهشات البصر

شخصت اطراف هاتيك الصدوع بجبال شمخت منها الفروع
ولها في العين أشكال تروع تقذف الأفواه منها حمما
صار منهن ركام الحجر

حصلت من قذف هاتيك المواد حيث يجمدن جبال ووهاد
وركاز وصخور وجماد بعضها دقّ وبعض عظما
وهو صلب الجسم صعب المكسر

وهنالك انعقدت فيها الغيوم من بخار كان في الجو يعوم
ردّه البرد مياهاً في التخوم فجرى السيل عليها مفعما
كل غور فوقها منحدر

عمّها السيل فغطى حين سال سطحها مجترفاً منها الرمال
فطما الماء ولكن كالجبال شخصت في الماء لما ان طما
وعلت كالسفن فوق الأبحر

غمر الماء بها ما غمرا ثم خلّى بعضها منحسرا
محدثاً في السطح منها جزرا انزل الماء بها ما حطما
من طفال وحتات المدر

(١١) البطن مذكر ولم يرد تأنيثه في الفصيح ٠

بسيول المـــاء كم فيهـا ارتكم　　من رمـــال رسبت فيهـــا أكم
ولـكم خدّت أخـــاديد وكم　　قـــد بنت من طبقـات علمـــا
نضـدت فيـــه صـفيح المرمـر

ثم صارت وهي من قبـل موات　　تصلح الاقطار منهـا للحيـــاة
فانبرت تنبت في البدء النبـــات　　ثم أبدت من قواهـا النســـما
وارتقت فيهـا لنوع البشر[١٢]

فغـدت اذ ذاك تزهو بالرياض　　وبها الأرواح تنمو في الغيـاض
ثم ترميهـــا أكف الانقـراض　　بانحطـــام حيث تمسي فَحَمـا
حجـــرياً بمـــرور الأعصـــر

من حطام الخلق في الارض هضاب　　كوّنتهـــن أكـــفّ الانقـــلاب
ما تـــراب الارض والله تـــراب　　انمـــا ذاك حطـــام قـــدما
من جســوم باليـات الـكســـر

كم على الارض رفات باليـات　　من جسوم طحنتهـــا الدائرات
فاحتفر في الارض تلك الطبقات　　تجـد الانقاض فيهـــا رممـــا
هـــي للأحيـــاء أو للشـــجر

كل وجه الارض للخلق قبور　　خفف الوطء على تلك الصدور[١٣]
والعيون النجل منهـم والثغور　　انمـــا انت ســتفنى مثلمـــا
قد فنوا والدهـــر دامي الظفر

---

(١٢) يكرر الشاعر من استعمال لفظة (القوى) في اسوأ مواطن القول ٠
(١٣) اصله للمعرّي
خفف الوطء ما أظن أديم الارض الاّ من هذه الاجساد

ظلت الارض على كرّ الدهور　　تبحر الاجبل فيهـــا والبحور
فوقهـــا تجبل والمـــاء يغـــور　　وعلى ذاك استـدلّ الحكمـــا
بجبـــال السَمَك المستحجر

علمـــاء الارض لم تبرح ترى　　حيـــوان البـــر لمـــا دثـــرا
منـــه في الابحـــر ابقى اثرا　　وكـــذا في البر ألفى العلمـــا
أثراً مـــن حيـــوان الأبحـــر

كل ما في الارض من قفر وبيد　　وجبـــال شهقت فوق الصـعيد
عن زهـــاء الربع منها لا يزيد　　وسـوى ذلك منهـــا انكتمـــا
تحت مـاء البحـــر لم ينحسـر

في صـــعيد الأبحـــر المنغمس　　مثـــل ما يوجـــد فوق اليبس
من جبـــال ناتئـــات الأرؤس　　ووهـــاد تســـتزلّ القـــدما
ورُباً مختلفـــات القـــدر

ما نرى اليـوم من الماء الحميم　　والبراكين التي تحكي الجحيم
ومن الزلزال ذى الهول العظيم　　دلّ ان الارض فيهـــا قدمـــا
ذات جـــرم ذائـــب مســـتعر

كل ما كـــان بحـــال السيلان　　فهـــو يغـــدو كرة بالدوران
وكذاك الارض في ماضي الزمان　　كروّياً قـــد غـــدا ملتئمـــا
جرمهـــا من سيلان العنصـــر

ثم ان الارض من قبل الجمود　　ولدت منهـــا وليست بالولود
قمـــراً دار عليهـــا بســـعود　　وجلا في الليل عنهـــا الظلمـــا
فهي بنت الشمس أمّ القمـــر

ولقد نقلنا هذه القصيدة بعجرها وبجرها ليكون ظاهرا للقارىء ما تتركه مطالعتها وقراءتها من عناء في النفس فكيف بالتلميذ الذي نظمت متناً له وكلّف حفظها واستظهارها ؟؟

ولقد اجهد الرصافي نفسه لأياً من دهره في نظم مثل هذه المتون الجامدة التي كان ظاهر الاعتزاز بها ـ على ما يبدو من اِقحامها في دواوينه ـ •

٩) نحن والماضي

من قصائده الموفقة بما يطغى عليها من الحسّ الوطني والذكريات التاريخية المجيدة ، وهي في تراكيبها وأسلوبها واضحة الجدّة والقوة •• على انها لا تخلو من بعض المآخذ البيانية ومن ذلك قوله :

بشــعر لا تزال تنوط منــه   بجيــد بدائع الدنيا عقــودا

فان نسبة الجيد الى بدائع الدنيا ووضع العقود فيه ليس الاّ من التخيلات السخيفة •• وكذا قوله :

ولو تستنهض الجبناء يومــاً   به لتقحمــوا الدنيا اســودا

فانه محض تراكيب ملفقة وأخيلة واهمة ، واستعمال المضارع هنا مع (لو) كان مدعاة الى جرّ الفهاهة على البيت •• وأما قوله :

ولو كررته للنــاس ألفاً   لأقسم سامعوه بأن تعيــدا

فتافه المعنى ، والمبالغة فيه سخيفة ••

واما قوله :

وأنت اذا قرعت بــه عبيداً   ردت الى الحرار به العبيدا

فمبتكر المعنى رصين المتن •• وكذلك قوله :

وكم تهتز أعطاف المعــالي   اذا ما قلت قافيــة شــرودا

فانه من خير ما وصف به الارتياح للشعر والانتعاش به •

ثم قال :

فقلت له وقد أبدى ارتياحا ... اليّ اذ ارتجلت له القصيدا

وهو معنى لا مورد له مستساغ ، وانما أراد الشاعر ان يشير الى انتهاء المقترح من اقتراحه ، والى انه سيبدأ القول ردا على مخاطبه ، وقد التوى عليه القول في هذا فركّ اداؤه ••

ثم قال وقد احسن في مقاله :

أجلْ ان القبائل من معدٍّ ... علاءا فتسنّموا المجد التليدا
وان لهاشم في الدهر مجدا ... بناه لها الذي هشم الثريدا
ومذ قام ابن عبدالله فيهم ... اقام لكل مكرمة عمودا
وانهضهم الى الشرف المعلّى ... وكانوا قبلئذْ عنه قعودا
فأصبح وارياً زند المعالي ... وقبلاً كان مقدحه صلودا
فهم فتحوا البلاد ودوّخوها ... وقادوا في معاركها الجنودا
وهم كانوا اشد الناس بأساً ... وامنع جانباً واعمّ جودا
وأرجحهم لدى الجلىّ حلوماً ... وأصلبهم لدى الغمرات عودا

أراد بـ (ابن عبدالله) الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ••

ومن محاسن قوله ما قاله في الابيات التالية :

أرى مستقبل الايام أولى ... بمطمح من يحاول ان يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع ... يردّد في غد نظراً سديدا
فوجّه وجه عزمك نحو آتٍ ... ولا تلفت الى الماضين جيدا
وهل ان كان حاضرنا شقياً ... نسود بكون ماضينا سعيدا

ومن حكمياته :

فشرّ العالمين ذوو خمول ... اذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم ... اقام لنفسه حسباً جديدا

تراه اذا ادّعى في الناس فخراً   تقيم لـــه مكارمه الشهودا[١٤]

فدعني والفخـار بمجد قوم   مضى الزمن القديم بهم حميدا

قد ابتسمت وجوه الدهر بيضاً   لهـــم ورأيننـا فعبسن ســـودا

وقـد عهـــدوا لنا بتراث ملك   أضـعنا في رعايتــه العهـــودا

وعاشــوا سـادة في كل ارض   وعشــنا في مواطننـــا عبيـــدا

واما البيت الذي ختم به القصيدة ـ وهو قوله ـ :

اذا ما الجهـــل خيـم في بلاد   رأيت اسودها مســـخت قرودا

فالمبالغة ضاربة فيه الى التكلف الذي يستحيل تصوره ••

---

(١٤) لو قال ، (تقوم له مكارمه شهودا) لـكان احسن به قولا ••

١٠) معترك الحياة

من اجود قصائد الرصافي جزالة واداءا ويكاد يكون ضربها البياني ضربا جاهلي النفس والمنحى •

وربما كانت هذه القصيدة اولى قصيدة ينظم فيها الرصافي المعاني القديمة ـ بما فيها بعض البديهيات ـ بأسلوب فخم رائق •

والرصافي لا يزال هنـــا فقيها في مداركه ، ولـكنه لم يكن فقيها في ادائه الشعري وتعبيره ، بل كان شاعراً بكل معنى الـكلمة ••

ان مطلع القصيدة حريّ ببعض التصليح والمعالجة •

هو الدهر لم يترك مشنّ غباره   على سابق من ليله او نهـاره

فلو استعمل واو العطف دون (او) لساغ القول كل مساغ ••

ومن بارع ما قاله في وصف دهره :

يثير غبـــار الحادثات بكـــرّه   وهل نحن الاّ من مثـار غباره

وكم عبر مطـــوية في صروفه   فهل من مجيل فيه طرف اعتباره

ولـكنه في البيت الرابع لم يحسن وصف المعنى الذي عناه ، فقال :

خليليّ ان الارض غربال قدرة   تجمعت الاحيـاء بين اطـــاره

ان المعنى الذي يشير اليه الشاعر هو (قانون بقاء الاصلح) كما جاء في شرح الشارح بهامشه .. فالارض كالغربال يغربل الناس فيسقط كل دقيق وصغير ويبقى فيها ما هو قوي كبير .. ولكن العبارات التي لجأ اليها الشاعر في وصف هذا المعنى كانت ركيكة جامدة ، يضاف الى ذلك من المساوىء سماجة الحشو الذي دسه في تضاعيف البيت ، فلا حاجة لاستعمال المخاطبة بلفظة (خليلي) التقليدية في مثل هذا المكان . اما اضافة الغربال الى القدرة فانه من اغرب ما نسب الى القدرة الخارقة من شيء .

ثم يحاول الشاعر ان يتمّ معنى قوله هذا بما يراه يستقيم به أو يظنّه :

تميد به كف الزمان تحركا لمحو ضعيف او لاثبات فاره

ثم يتمّ هذا بكلام آخر يحسبه ينضّ منه شيء ذو حاصل فيقول :

فيبقى به الاقوى قرين ارتقائه كما يسقط الاوهى رهين اندثاره

فهذه الثلاثة الابيات حريّة بالمحو والحذف لما يغلب عليها من المعاضلة ولغو الحديث والقصور عن التعبير . ويبدو ان الشاعر كان لا يزال عند نظم قصيدته مأخوذا ببعض قواعد البديع كالطباق والمقابلة في محو الضعيف واثبات الفاره ، وفي (قرين الارتقاء) و (رهين الاندثار) والاقوى والاوهى ، وزاد الامر ركاكة استعماله لفظة (كما) وهو استعمال عامي .

ثم يقول فيجيد :

فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها قديراً على دفع الاذى والمكاره

والقسم الثاني من القصيدة جزل مشرق بارع المعاني ، فهو يقول :

لعمرك ما هذي الحياة بملبس لمن حيك من عجز نسيج شعاره

ولكن لمن أمسى بأيدٍ وقوة يجرّ على الايام فضل ازاره

اري الشمس يخفي ضوؤها كل شارق وان كان ينبو الطرف عن مستناره

وما ذاك الاّ انها في تلهب يموج بنور ساطع وقدُ ناره

فلم يستطع نجم طلوعاً تجاهها اذا لم يعذ بالليل غبّ اعتكاره

كذاك ضعيف القوم ان كان جاره قوياً يكن شلواً اكيلاً لجاره

وما الليث لولا بأسه في عرينه بأشرف من ضبّ الفلا في وجاره

ومن غاور الايام غير مدجّج فلا يطمعن في مغنم من مغاره

ومن لم يهن صرف الزمان برحلة تهنه صروف الدهر في عقر داره[15]

وما شرّف الدرّ الثمين فريده اذا هو لم يبرح بطون محاره

وانتقل الشاعر الى فصل جديد فأثبت احكاماً لا تطرّد فيما ظنّ انها تطرد فيه ، غير ان هذه القطعة جاءت اشبه بنظم المتون والمصطلحات وقد اشتملت على جمود وتعاضل معنوي ظاهرين .

قال الشاعر :

ارى كل ذي فقر لدى كل ذي غنىً اجيراً له مستخدماً في عقاره

ولم يعطه الاّ اليسير وانما على كدّه قامت صروح يساره

ويلبس من تذليله العزّ ضافياً وينظره شزراً بعين احتقاره

يشدّ الغنى ازر الفتى في حياته وما الفقر الاّ مكسر في فقاره

وليس الغنى الاّ غنى العلم انه لنور الفتى يجلو ظلام افتقاره

ولا تحسبنّ العلم في الناس منجياً اذا نكبت اخلاقهم عن مناره

وما العلم الاّ النور يجلو دجى العمى ولكن تزيغ العين عند انكساره

فما فاسد الاخلاق بالعلم مفلحاً وان كان بحراً زاخراً من بحاره

والقطعة الاخرى من القصيدة جميلة موفقة وفيها من المعاني الشعرية ما هو مبتكر جديد .. قال :

سل الفلك الدوّار عن حركاته فهل هو فيها دائر باختياره

---

(١٥) لو استعمل لفظة الهجرة لكانت أوضح لتصوير القصد المقصود .

وهل هو في هذا الفضاء مسافر ... له غـاية مقصودة من سـفاره
وهبنا جهلنا بدأه ـ من تقادم ـ ... فهل يدرك العقـل انتهاء مداره
متى ينجلي ليل الشكوك عن النهى ... وترفع كفّ العلم مُرْخىً ستاره
ألا وَرْيَ زندٍ في الزمان فنهتدي ... بسـقط ضئيل من سـقيط شراره
ارى الدهر ليلاً كله غـير مبصـر ... وان كان في رأد الضحى من نهـاره
واهليه سـاروا خابطين ظـلامه ... وان ركبوا في السير متن بخاره[16]

والقطعة التي تليها مغوّرة في ضرب من الفلسفة عقيم ، زاده عقماً تقاصر اسلوب الشاعر في الاداء والتعبير • قال :

لعمرك ان الدهر يجري لغـايه ... فانْ شئت ان تحيا سعيداً فداره[17]
وها هو ذا يعـدو فيبتدر المـدى ... وينهب اعمـار الورى في ابتـداره
لقد فـاز من بارى جـديديه جـدّة ... وخـاب الذي في جدّة لم يبـاره
وليست حيـاة الناس الاّ تجـدّداً ... مع الدهر في ايباسـه واخضـراره
وما الناس الاّ المـاء يحييه جـريه ... ويرديه مكث دائم في قـراره[18]

وختم الشاعر قصيدته بالقطعة التالية ، وهي من انفس الشعر وأبلغه :

لك الخير هـل للشرق يقظة ناهض ... فقد طـال نوم القـوم بين دياره
ألم تر ان الغـرب اصلت سـيفه ... عليهـم وهم لا هون تحت غراره
وبادرهم كالسيل عنـد انحـداره ... وهم في مهـاوي غفلـة عن بداره

---

(١٦) كان للبخار مقام في أيام نظم القصيدة •
(١٧) الاحسن (فجاره) من المجاراة ولعلها كانت كذلك في الاصل •
(١٨) يحييه ويرديه ، محض ترداد ألفاظ ، لا طائل فيها من فائدة أو جدوى •

اما آن للساهين ان يأبهوا له وقد اصبحوا في قبضة من اساره
تراهم جميعاً بين حيران واجم وآخر يطري ماضياً من فخاره

ان الاسلوب العام في هذه القصيدة تردّد كثيراً بين الجودة والتفاهة وبين الجزالة والركاكة ، ولم تخل من بعض الملامح التي تعرف في شعر الفقهاء ، وتعمُّد الشاعر ذكر أكبر مجموعة من الحكميات في شعره يشير الى ان ذلك كان هواية في نفسه ظهرت في عدة قصائد له نظمها في فترة انتقاله من غلالة الفقهاء الى غلالة الفصحاء .

١١) أم اليتيم

بدأ القصيدة بالمطلع التالي :

رمت مسمعي ليلاً بأنّة مؤلم فألقت فؤادي بين انياب ضيغم
وباتت توالي في الظلام انينها وبتّ لها مرمى بنهشة ارقم
فيهفو بقلبي صوتها مثلما هفت بقلب فقير القوم رنّة درهم

ظاهر في هذا المطلع القلق البياني واضطراب التشبيهات المتعددة وتناقضها ، فقد وصف قلبه بانه صار بين انياب ضيغم وهو الاسد ثم عاد فوصف نفسه منهوشاً بنهشة ارقم وهو الثعبان ••

فالضيغم والارقم هنا مما جادت به القافية على الشاعر لا غير ، والاّ فليست هاتان اللفظتان من ضروريات اللفظ في هذا المقام •

واضافة الأنة الى مؤلم مما صنعته القافية ، وهي من ناحية المعنى ليست بذات جدوى •

اما ما قاله في البيت الثالث من كون صوتها خفق في قلبه ، فعل رنين الدرهم في قلب الفقير فانّ الشاعر لم يصب فيه حرف الاصابة من التشبيه ، فاذا كان لرنين الدرهم اثر في نفس الفقير فهو حريّ ان يختلف كل الاختلاف عن اثر صوت المرأة التي رمت سمعه بأنينها • فالتشبيه ظاهر التباين ، وهو كذلك سمج ظاهر السماجة ، وليس له من واقع الفقير ما يؤيده •• على ان الاشارة الى مثل هذه المعاني انما تقع في مواطن الدعابة والمعابثة لا في مواطن الرثاء والفجيعة •

وعاد الى التشبيه ثالثة فقال :

تقطّع في الليـل الأنين كأنهـا تقطـع احشـائي بسيف مثلّم

ولم تكن ثمة بقية من حاجة الى تشبيه جديد بعد ان وصف فؤاده بأنه ملقى بين انياب ضيغم ، ووصف جسمه بأنه منهوش بنهشة أرقم .. وها هو ذا يصف احشاءه مقطعةً بسيف مثلّم .. وقد كان كل ذلك من جراء تلك الأنة !.

ثم عاد رابعة فوصف الانين وصفاً كان اجدر بالذكر من غيره واحقّ ان يكتفي به ، فقال :

يهزّ نياط القلب بالحزن صوتها اذا اهتز في جوف الظلام المخيّم

اما قوله بعده :

تردده والصمت في الليل سـائد بلحن ضئيل في الدجنّة مبهـم

فكلام لا محصل له من المعنى . ثم قال :

كأنّ نجوم الليل عند ارتجافها تصيخ الى ذاك الانين المجمجم

أراد الشـاعر ان يقول ان النجوم كانت ترتجف عنـد اصغائها الى ذلك الانين ، وهذا معنى جميل .. ولـكنه في البيت الذي جاء بعده اذ قال :

فما خفقان النجم الاّ لأجلهـا وما الشهب الاّ أدمع النجم ترتمي

خرج بالمعنى الجيد الى ضرب من التهافت ، وانتقـل بالمبالغة الرائقـة الى ما يشبه التخريف .. فانّ المبالغات الشعرية يجب ان تكون مؤطرة باطار خاص تنحبس به عند الحدود التي يألفها الذوق السليم ، وكان قول الرصافي اذ قال :

كأنّ نجوم الليل عند ارتجافها تصيخ الى ذاك الانين المجمجم

معنى مصطاداً فيه من المبالغة ما لا تعلق به السماجة ، وكان عليه ان يكتفي به ويقف عنده ، فلما جاوزه الى القول بأن خفقان النجم لم يكن الاّ لها ، وان الشهب دموع النجوم تتناثر جزعاً عليها ، فانه خرج به ـ كما قلنا ـ عن المجال المنطقي للمبالغات المباحة للشعراء ..

ثم قال :

لقد تركتني موجع القلب ساهراً اخا مدمع جار ورأس مهوّم

وربما كان في هذا المقال وصف آخر لأثر الانين في قلبه ، فقد ردّ الشاعر الى السجية البسيطة في الوصف فذكر انه موجع القلب ساهر الليل جارٍ دمعه من جراء حزنه لأنين تلك الثاكل ، فظهر بهذا من التخليط في التشبيه والوصف ما لا يمكن ان يحكم به على القصيدة بالتوفيق ..

اما الرأس المهوّم فكلام جرّت اليه القافية واستدعاه الرويّ ، وليس له أيّ معنى مستساغ في هذا المقام ..

اما قوله :

ارى فحمة الظلماء عند انينها فأعجب منها كيف لم تتضرّم

فجميل المعنى بارع الابتكار .. أما قوله :

فأصبحت ظمآن الجفون الى الكرى وان كنت ريان الحشا من تألمي

فلو قال (من تألم) لكان أليق من استعمال اللفظة مضافة الى ضمير المتكلم .

وقال – بعده – :

وأصبح قلبي وهو كالشعر لم تدع له شعراء القوم من متردّم

وقد أحسن فيه وصفاً وعرضاً واداءا .. ثم قال :

وبيت بكت فيه الحياة عبوسة ولاحت بوجه العابس المتجهّم

تكرار معنى العبوسة بذات اللفظ في وصف الوجه معيب .. ثم قال :

به ألقت الايام أثقال بؤسها فهاجت به الاحزان فاغرة الفم

في صدر البيت اجادة في صياغة اللفظ واجادة في المعنى الذي عناه ، ولكن الذي افسده ما جاء في عجز البيت من قوله (فاغرة الفم) وكان ذلك من بعض جنايات القافية عليه ، وفي تكرار (به) ركاكة ظاهرة ..

وقال :

كأني ارى البنيان فيـــه مهدّماً وما هو بالخاوي ولا المتهـدّم[١٩]

ولكن زلزال الخطوب هوى به الى قعر مهواة الشـقاء المجسم

دخلت به عند الصباح على التي سقاني بكاها في الدجى كأس علقم

فألفيت وجهاً خدّد الدمع خدّه ومحمرّ جفـــن بالبكا متورّم

وجسماً نحيفاً انهكته همـومه فكادت تراه العين بعض توهّم

لقد جثمت فوق التراب وحولها صغـــير لهـا يرنو بعيني متيّم

استعمال لفظة (المجسم) في وصف الشقاء استعمال شاع أخيراً في لغة الصحف وهو ليس بشيء •• وقوله (وحولها صغير) غير بليغ ولا صحيح ، لأن ما حول الشيء ينبغي ان يكون أكثر سعة واحاطة من الحالة التي يكون فيها صبيّ صغير الى جوار امه ••

ووصف الصبي بكونه يرنو بعيني متيم كلام زائد لا مفهوم له في مثل هذا المقام ، الاّ ما اداه من اتمام البيت •• من ناحية الوزن والقافية •

ولم يوفق الشاعر في بقية ما وصف به الطفل الصغير من أوصاف بعيدة عن صلب الموضوع ، فقد قال :

تراه وما ان جاوز الخمس عمره يدير لحـــاظ اليافع المتفهّـــم

بكى حولها جوعــاً فغذّته بالبكا وليس البكا الاّ تعلة معــــدم

واكبر مايدعو القلوب الى الاسى بكاء يتيم جـــائع حـــول ايمّ

والبيت الاخير هذا فخم بليغ وفيه من الابداع في التصوير ما لا يحتاج معه الى مزيد ، وربما كان هذا البيت وحده اجدى للشاعر وللسامع من تلك الابيات

(١٩) لو قال ولا بالمهدّم لـكان أجود •

المملة التي سلفت دون جدوى • مع ملاحظة (حول) هنا وسخف أدائها •

ويلي هذه الابيات مقطع آخر من القصيدة تغلب عليه العاطفة الرقيقة حيث يدخل الشاعر في صلب الموضوع ، ويكشف عن مضمون القضية فيجيد في بعض ذلك ويخفق في البعض الآخر ، ومما أجاد في صياغته :

وقفت وقد شاهدت ذلك منهمُا   لمريم أبكي رحمـة وابن مريم

وقوله :

فقد جمعت ثغراً من الضحك مفعماً   الى محجـر باكٍ من الدمع مفعم

ثم قال في مطلع فصل جديد :

ومذ عرضت للابن منها التفاتة   اشارت اليــه بالمدامع ان قــم

فقام اليهـا خائر الجسم فانثنت   عليه فضمته بكفّ ومعصـــم

وظلّت له ترنو بعين تجــوده   بفذّ من الدمع الغـزير وتوأم

فقـال لها لمـا رآني واقفـا   اردد فيــه نظـرة المتوسم

سلي ذا الفتى يا ام اين مضى ابي   وهل هو يأتينا المســاء بمطعم

في هذه الابيات ضحالة ظاهرة وركاكة ملحوظة فهي اشبه بما ينظمه بعض المتشاعرين في تأبين الموتى ••

ولعل الشاعر أراد ان يأخذ الامر مأخذ القصة ـ وله في ذلك نهج معتاد ـ فأضاع سبيل الابداع اذ ترك الامر الى النسق القصصي فساقه هذا المساق ••

ولا نكران ان هذه الرواية مؤثرة ومشجية ولـكن اداءها البياني ضحل ظاهر القصور ••

ولا مورد للالتفاتة في قوله (ومذ عرضت للابن منها التفاتة) ، واشارة الأم الى ابنها بالمدامع (ان قم) من اسوأ التعبير واسخفه ، وضمها اياه (بكف ومعصم) ضرب من الاطالة تستدعي الملالة ، وكذلك قوله (وظلت له ترنو بعين تجوده) •

اما عجز البيت اذ يقول (بفذّ من الدمع الغزير وتوأم) فبديع رائع •• ويجيد الشاعر فيما يأتي من قوله :

ابوك ترامت فيه سفرة راحل — الى الموت لا يرجى له يوم مقدم
مشى ارمنياً في المعاهد فارتمت — به في مهاوي الموت ضربة مسلم
على حين ثارت للنوائب ثورة — اتت عن حزازات الى الدين تنتمي
فقامت بـه بين الديار مذابح — تخوّض منها الارمنيون بالدم
ولولاك لاخترت الحمام تخلصا — بنفسي من أتعاب عيش مذمم
فأنت الذي اخترت امك مريما — عن الموت ان يودي بأمك مريم

وهي أبيات حصيفة السبك مستوعبة من المعاني ما يستدعي الاعجاب • غير ان قوله (اتت عن حزازات الى الدين تنتمي) قاصر عن تصوير المعنى بلفظ سليم • وكذلك كان احرى أن يقول (تخوّض منها الأرمن اليوم بالدم) فانه أبلغ •

ثم يخاطب الشاعر ارملة القصة خطاباً يأرز به الى المنطق على نحو أساليب المتناظرين ، فيقول :

أمريم فيما تحكمين تبصّري — فان انت ادركت الحقيقة فاعلمي

وهو جدل لا مجال له في هذا المقام ، ولكن الشاعر اجاد كثيرا بعد ذلك فيما بدأ يقوله من وصف تصرفات الناس السيئة المعزوّة الى الدين والدين من مثلها بريء :

فليس بدين كل ما يفعلونه — ولكنه جهل وسوء تفهم
لئن ملأوا الارض الفضاء جرائما — فهم اجرموا والدين ليس بمجرم
ولكنهم في جنح ليل من الدجى — تمشوا بمطموس المعالم مبهم
وقد سلكوا تيهاء من امر دينهم — فكم منجد في المخزيات ومتهم

وهي أبيات ، جودتُـها في بيانها وسبكها تعدل جودتها في معانيها ••

ثم قال :

ولمـــا رأيت اللوم لؤماً تجاهها   سكتّ فلـــم أنبس ولم اتبرم

واطرقت نحو الارض اطلب عفوها   وما انا بالجـــاني ولا بالمتيـــم

وظلت لها ابكي بعين قريحـــة   جرت من اماقيها عصارة عندم

بكيت وما ادري أأبكي تضجّرا   من القوم ام ابكي لشقوة مريم

لقد كانت هذه القصيدة حريّـة ان تكون من خوالد الشعر وشوارده لو ان الشاعر هذبها فشدّ منها ماركّ واقصى منها ما تفه ••

١٢) السجن في بغداد

هذه حقاً من خوالد الشعر وشوارده .

فقد وفق الشاعر لالتقاط المعاني وانتخاب الكلم واتقان الصياغة ، وبالرغم من ان الموضوع الذي نظمت فيه من دأبه ان يستفزّ النفوس ويحملها على مركب من الاسى والجزع فان اجادة الشاعر وتوفيقه الملحوظ لم يقوما هنا على هذا الاساس انما قاما على ما في القصيدة من بيان مشرق وصياغة محكمة ..

اما المآخذ التي ترد على الشاعر فيها ، فمنها ما وقع في المطلع :

سكنّا ولم يسكن حراك التبدّد　　　مواطن فيها اليومُ ايمنُ من غد

فلا معنى للحشو الذي اقحمه في البيت (ولم يسكن حراك التبدد) واذا كان له معنى فانه لم يكن حرياً ان يرد بهذا اللفظ .. فان الشاعر أراد ان يقول انْ تنقّل الناس من مكان الى مكان ومن مسكن الى مسكن ، انما هو من دأب الزمان وسليقة الايام ولكنه عبر عن ذلك بالعبارة الخلقة المتهرية ، فليست لفظة (التبدد) بموفقة لأداء هذا المعنى ولا ما اضاف اليها من الحراك ..

وقوله في البيت الثالث :

بلاد اناخ الذل فيها بكلكل　　　على كل مفتول السبالين اصيد

فيـه من المآخذ (مفتول السبالين) ، وهي حلية عاطلة فوق انها ظاهرة السماجة لما لحقها من الابتذال والعامية ، ولو قال (مفتول السواعد) لأصاب القصد كل الاصابة ..

ومما يؤخذ عليه قوله :

وحلّق في آفاقهـا الجور بازياً　　مطلاّ عليهـا صائتاً بالتهـدّد

فان عبارة (صائتا بالتهدد) ركيكة وجوفاء ..

وقوله ـ بعده ـ :

وينقضّ احيـاناً عليهـا فتـارة　　يروح وفي بعض الاحايين يغتدى

فانه عامي الاسلوب ركيك الاداء ضحل المعنى ..

ومما يؤخذ عليه ما علق به من الجغرافية الشعرية التي اطال بها فأطال على القريض علته[20] .

مربعّ سور قـد احاط بمثله　　محيط بأعلى منـه شيد بقرمد

وقد وصلوا ما بين ثانٍ وثالث　　بمعقود سقف بالصخور مشيّد

وفي ثالث الاسوار تشجيك ساحة　　تمور بتيّار من الخسف مزبد

ومن وسط السور الشمالي تنتهي　　اليها بمسدود الرتاجين موصد

ثم يقول :

ثلاثون متراً في جـدار يحيطهـا　　بسمك زهاء العشر في الجوّ مصعد

---

(٢٠) الجغرافية الشعرية هي وصف الحدود وتعداد أسماء المواقع وذكر المساحات والاطوال والاعداد ونحو ذلك مما تتضاءل به قيمة القصيدة ويرك به الشعر ..

فهذه علل ظاهرة في شعر الشاعر لو حذفها لحمى القصيدة من مثل هذه الجغرافية التي لا طائل فيها ، ومما يؤاخذ عليه ـ أيضا ـ قوله :

يميت بمكذوب العــزاء نهاره ويحيي الليالي غـير نوم مشرد

فقـد كان الذي يسمع صـدر البيت يتوهم ان يجيء في عجـزه شيء من المطابقة ، وقد جاء الشاعر ببعض ذلك فعلاً ، حين ذكر الاحياء في مقابلة الاماتة وحين ذكر الليالي في مقابلة النهار ، ولـكنه اكدى عن الاتيان بالمعنى المطابق حين قال (غير نوم مشرّد) ..

ومما ركّ من أبيات القصيدة قوله :

فقف وسطها وانظر حواليك دائراً الى حُجَرٍ قامت على كل مقعد

وجاءت في القصيدة أبيات في وصف حياة السجناء ظاهرة العامية كوصفه لهم باستظلال الثوب والحصير ونحو ذلك ..

ومن روائع معانيه :

عفا رسم مغنى العزّ منها كما عفت (لخولة اطلال ببرقة ثهمـد)

وقد أجاد الاستشهاد والتمثيل فيه ، وكذلك قوله :

معاهد عنها ضـلّ سابق عزّها فهل هو من بعد الضلالة مهتد ؟

احاطت بها الارزاء من كل جانب الى ان محتها معهداً بعـد معهد

ومما ابدع فيه قوله :

زر السجن في بغداد زورة راحم لتشهد للانكاد افجــع مشهد

محلّ به تهفو القلوب من الأسى فان زرته فاربط على القلب باليد

واحسن أيضا في وصف ساحة السجن اذ يقول :

هي الساحة النكراء فيها تلاعبت مخاريق ضيم تخلط الجدّ بالدد

واحسن في ابيات القطعة التالية :

تواصلت الاحزان في جنباتها بحيث متى يبل الأسى يتجدّد
تصعّد من جوف المراحيض فوقها بخار اذا تمرر به الريح تفسد[21]
هناك يود المرء لو قاء نفسه واطلقها من اسر عيش منكّد
مقابر بالأحياء غصت لحودها بخمس مئين انفس أو بأزيد
وقد عميت منها النوافذ والكوى فلم تكتحل من ضوء شمس بمرود
تظن اذا صدر النهار دخلتها كأنك في قِطْعٍ من الليل اسود
فلو كان للعبّاد فيها اقامة لصلّوا بها ظهراً صلاة التهجّد
يزور هبوب الريح الاّ فناءها فلم تحظ من وصل النسيم بموعد

ومما احسن به قولاً :

بها كل مخطوم الخشام مذلل متى قيد مجروراً الى الضيم ينقد
ينوء بأعباء الهوان مقيّداً ويكفيه ان لو كان غير مقيّد[22]

ومما اجاد في سبكه من أبيات القصيدة قوله :

تراهم نهار الصيف سفعاً كأنهم أثافيُّ اصلاها الطهاة بموقد

اما قوله :

وجوه عليها للشحوب ملامح (تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد)

---

(٢١) استعمل الشاعر (اذا) هنا استعمال أدوات الشرط الجازمة وليس ذلك من خصائصها والمراحيض لفظة عامية .

(٢٢) في البيت قصور عن أداء المعنى المراد ، فان الشاعر يريد ان يقول ان هذا السجين يكفيه هواناً لو كان غير مقيد فكيف به وهو مقيد .

فان الاستشهاد هنا لم يجيء موفقا ولم يقع في موقعه الملائم •• فانّ (طرفة) حين قال ذلك انما شبه به الاطلال فكان تشبيهه موفقا من حيث شبه طوامس من المعالم المتناثرة بطوامس من الوشم المتناثر ، وليس في تشبيه الشحوب بالأطلال مثل هذه العلاقة ، اللهم الاّ حؤولة اللون ••

ومن معانيه الطريفة قوله :

وقد عمّهم قيد التعاسة موثقا | فلم يتميز مطلق عن مقيّد

وقوله :

تدور رؤوس القوم من شمّ نتنها | فمن يك منهم عادم الشمّ يحسد

وكان التوفيق قد صاحب الشاعر في خواتيم القصيدة فجاء بالبدع البليغ ، اذ يقول :

ألا ربّ حرّ شاهد الحكم جائرا | يقود بنا قود الذلول المعبّد[٢٣]
فقال ولم يجهر ونحن بمنتدى | به غير مأمون الوشاية ينتدي
على أيّ حكم ام لأية حكمة | ببغداد ضاع الحق من غير منشد
فأدنيت للنجوى فمي نحو سمعه | وقلت لأن العدل لم يتبغدد
رعى الله حيّا مستباحاً كأنه | من الذعر اسراب النعام المطرّد
وما صاحب البيت الحقير بناؤه | بأفزع من رب البلاط الممرّد

---

(٢٣) وصف البعير بأنه معبد ليس هنا موقعه ، فان البعير يوصف بذلك عند الافراد وتحاشي الناس الوصول اليه من جربٍ يصيبه ، وقد جاء في بيت لطرفة :

الى ان تحامتني العشيرة كلها | وافردت افراد البعير المعبّد

ومما أحسن فيه سبكا واداءاً :

تقدّمنا قوم فأبعد شوطهم وقد كان عنا شوطهم غير مبعد

وسدّ علينا الاعتساف طريقنا فأجحف بالغوريّ والمتنجّد

افي كل يوم يزحف الدهر نحونا بجند من الخطب الجليل مجنّد

فيارب نفّس من كروب عظيمة ويارب خفف من عذاب مشدّد

١٣) الدهر والحقيقة[٢٤]

قال الشاعر هذه القصيدة في مدح الشيخ خزعل خان صاحب المحمرة وقد بدأها بأقاويل قالهافي الدهر مضيفا الى ذلك بعض الحكم والامثال التي كان بعضها رائعاً جميلا وبعضها ضحلا ، ثم تحدث الشاعر عن مذهبه في الخمر والمنادمة ثم انتقل الى مدح الشيخ خزعل بن مرداو ..

قال الشاعر :

ارى الدهر لا يألو بستر الحقائق	اذا افترّ عن صبح تلاه بغاسق
يجرر اذيال الخطوب بطرقهـــا	ليعفو منها ما بها من سلائق[٢٥]
ولو لم يجئنـــا كل يوم مواربا	لما كان فجر كاذب قبـــل صادق
كأنّ ليالي الدهر غضبى على الورى	فتنظر شزراً بالنجـــوم الشوارق
وما طلعت كي تهـدي القـوم شمسه	ولـكن لتصليهم جحيـــم الودائق
وقد تنطق الايام بالحق اعجمـــا	وتسكت عن تبيانه كل ناطق[٢٦]
وكـم مـدّع فضـل التمـدّن مالـه	من الفضل الاّ اكلـــه بالملاعق
وكم عاقل قـد عدّ في الناس احمقا	وما هو لو يبلى سوى متحامق[٢٧]

---

(٢٤) هذه القصيدة جاءت منشورة في الديوان مرتين الاولى في (ص ٤٧) بعنوان (الدهر والحقيقة) والثانية في (ص ١٦٩) بعنوان (شكوى الدهر) وبينهما في الحالين خلاف ونقصان ، وقد اثبتنا ما اجتمع منهما وما اختلف في هذا المجال .

(٢٥) ورد في (ص ٤٧) بلفظ ، يجرّ ذيول الخطب فوق طريقها .

(٢٦) ورد في (ص ٤٧) دون ان يرد في (ص ١٦٩) .

(٢٧) ورد في (ص ٤٧) بلفظ ، وكم عاقل قد عده الناس احمقا ..

وربّ ذكيّ لم يكن من ذكائه سوى ما رووه من ذكاء اللقالق
وقد تعرض الاسماع عن ذي فصاحة وتصغي الى ذي اللكنة المتشادق
ومن شيم الايام في الناس انها تجور عليهم باقتطاع العلائق
وألطف جور الدهر جور يرى به تدلل معشوق وذلة عاشق[28]
وما كان كذب القوم في القول وحده ولكنه في كتبهم والمهارق
وأقبح مين في الزمان خرافة تخطّ بها طرساً يراعة نامق
ضلال على مرّ الجديدين لم تزل مغاربنا من امره كالمشارق
فعدِّ عن الايام اذ لم تجد بها سوى لَغَط يزري بفضل المناطق
نفضت من الدنيا يديّ لأنني تعرّفت منها ما بها من خلائق
فما انا وقّاف بها عند منزل ولا انا باك من حبيب مفارق
ولا عذّبتني في العذيب صبابة ولا شاقني برق لربع ببارق
تعشقت منها حسن كل حقيقة واعرضت عن حسن الحسان الغرانق[29]
ولي عند اخوان الصفا اريحيّة الى كل خلّ في الزمان موافق
اذا ما عقدنا مجلس الانس بالطلا فبيني وبين السكر خمس دقائق
اقوم الى كبرى الزجاجات مدهقا بمستقطر من خالص التمر رائق
فأقرع بالكأس الروية جبهتي بشرب كما عبّ القطا متلاحق
اسابق ندماني الى السكر طائراً بجنح من الانس المضاعف خافق
فما هي الاّ بعد شرب سويعة وقد دبّ من رأسي الطلا في المفارق[30]
فنادمت اصحابي على غير حشمة وقلت لهم ما قلت غير منافق
وأغنيتهم عن نقلهم في شرابهم بمزّ طريّ من نقول الحقائق
ولم يبد فيّ السكر عند اشتداده سوى شكر خلي أو سوى حمد خالقي
تعوّدت سبقي في الفخار فلم ارد من السكر ان احظى به غير سابق

(٢٨) ورد في (ص ٤٧) بلفظ (نرى به) .
(٢٩) ورد في الرواية الاولى بلفظ ، تعشقت فيها ..
(٣٠) لم يرد هذا البيت في الرواية الثانية ..

كما اعتاد سبقاً في المكارم (خزعل) ... بلا سابق فيها عليه ولاحق
امير نمته للمكارم والعلى ... جحاجح من كعب كرام المعارق
كذلك اعلى الله في الناس كعبه ... بحظ من المجد المؤثل فائق
اذا سار سار المجد في طيّ برده ... يرافقه اكرم به من مرافق
فيرحل من أنسابه في مواكب ... وينزل من أحسابه في سرادق
وان جاء اغضى من رآه تهيبا ... سوى نظر منهم بعيني مسارق
جواد اذا استمطرته جاد كفّه ... بأغزر من وبل الغيوم الدوافق[٣١]
فدى كلّ قصر في العراق ومن حوى ... لقصر زها منكم بحامي الحقائق
احاطت به من كل صوب حدائق ... كوجهك حسناً في العيون الروامق
وفاحت به للناشقين ازاهر ... كأخلاقك الغراء طيباً لناشق
وزان الخليج الفارسيّ بناؤه ... فكان كعقد زان لبّة عاتق
أناف على اعلى السحاب معارضاً ... بجودك للعافين جود البوارق
حوى منك بأسا جوده ضامن له ... بذلّ اعاديه وعزّ الأصادق
فلا غرو ان ينتابه كل خائف ... فيأمن من وقع الخطوب الطوارق
ويرجع عنه من يوافيك راجلاً ... على لاحق الآطال من نسل لاحق
هنيئا لك العيد الذي انت مثله ... لدى الناس عيد غير أن لم تفارق
أبا الامراء الصيد جئتك شاكياً ... اليك جنايات الزمان المماذق
اجرني رعاك الله منها فانها ... رمت كل عظم فيّ منها بعارق[٣٢]
اترضى واني صقر بغداد انني ... تقدّمني فيها صغار العقائق
لئن انكروا حقي فسوف تحقّه ... شواهد اقلام بكفيّ نوامق
اصوغ بها حرّ الكلام لخزعل ... مديحاً كسمط اللؤلؤ المتناسق

اذا كان عنوان القصيدة يصدق على اولها فانه لا يصدق على آخرها ، وقد كان حرياً ان تعنون بواقعها الذي نظمت بسببه وهو مدح الشيخ خزعل .. فان

---

(٣١) العشرة أبيات هذه محذوفة من الرواية الاولى ولعلّ ارادة الحذف انصبت على حماية الرصافي من الاتهام باستنداء الأكفّ ..

(٣٢) العارق ، الذي يعرق ما على العظم من لحم .. والبيت بليغ جدا .

يكن الشيخ خزعل قد هلك فان الشعر انما قيل فيه ليحييه وقد كان الرجل يكرم مادحيه لما يعلم في الشعر من ثبوت هذه الخصيصة(٣٣) .

على ان مديح الرصافي للشيخ خزعل جاء في ارقى منازل المدح واعلى أساليب الاطراء والاجلال ولعمري لقد خلد الشاعر بقصيدته هذه ممدوحه بما لم تخلده به قصائد شعراء ذلك الجيل ..

ومن الامثال الموفقة في القصيدة :

ولو لم يجئنا كل يوم مواربا ً　　　لما كان فجر كاذب قبل صادق

ومنها أيضاً :

وكم مدّع فضل التمدن ماله　　　من الفضل الاّ اكله بالملاعق

ولو قال (من الامر) لكان أليق مما قال ، فان الأكل بالملاعق ليس فضلاً ، وربما كان الشاعر قد قال ذلك على وجه الاستخفاف ، الاّ ان النصّ لا يقطع بهذا التصور ..

ومنها :

وقد تعرض الاسماع عن ذي فصاحة　　　وتصغي الى ذي اللكنة المتشادق

ومن بديع تصوراته :

وألطف جور الدهر جور نرى به　　　تدلل معشوق وذلة عاشق

وجاءت في القصيدة مبالغات افرط فيها الشاعر بحيث خرج الى الكذب .. كقوله :

تعشقت فيها حسن كل حقيقة　　　واعرضت عن حسن الحسان الغرانق

ومن المعاني الباردة :

ورب ذكيّ لم يكن من ذكائه　　　سوى ما رووه من ذكاء اللقالق

---

(٣٣) غمز الاستاذ ابراهيم صالح شكر في ناشئته (الرصافي) بأنه لم يتلق على هذه القصيدة من الشيخ خزعل غير اربعمئة روبية وأحسب هذا بعيداً عن الحقيقة ..

وجاء فيها كذلك ما هو عامي الاسلوب ركيك الاداء كقوله :

اذا ما عقدنا مجلس الانس بالطلا　　فبيني وبين السكر خمس دقائق

فهو عامي اللهجة •• ولم يكن الشاعر موفقا في بعض تشبيهاته واوصافه ، بحيث تهافت لفظه وسمج معناه ، كقوله :

كأنّ ليالي الدهر غضبى على الورى　　فتنظر شزراً بالنجوم الشوارق
وما طلعت كي تهدي القوم شمسه　　ولكن لتصليهم جحيم الودائق

(الودائق جمع وديقة وهي حرّ نصف النهار) فهذه معان جامدة لا روح فيها •• وان في ظواهر الحياة مما يسبّ به الدهر الشيء الكثير الذي يقع في موقعه الملائم ، دون اللجوء الى هذا الضرب من تخيل الموهومات بما يشبه التخريف •

١٤) في سبيل حرية الفكر

أنشدت في حفلة منتدى التهذيب السنوية ، في
بغداد سنة ١٩٢٦م ٠

في هذه القصيدة معان حكيمة والى جانبها معان بليدة ، كما ان فيها سبكاً رصيناً وألفاظاً جزلة والى جوار ذلك اداء ضحل متفكك وأقوال جاءت في الـكلام فضولا ٠٠ واعجب شيء في القصيدة ان مطلعها تافه بارد ، فهو يقول :

كتبت لنفسي عهد تحريرها شـــعرا   واشهدت فيما قد كتبت لها الدهـــرا
ومن بعـد اتمـامي كتــابة عهـــدها   جعلت الثرّيا فوق عنـــوانه طغـــرا

ان لفظة الشعر هنا لا تقدم ولا تؤخر سوى انها يعتدل بها جرس البيت لا غير ٠٠ وكتابة عهد التحرير لا يزيده شيئا ان يكون قد كتب شعرا فان المهمّ في الامر هو التحرر وكتابة عهده ٠٠ اما الشعر فيحتجن مفارقات الامور من خير وشر وصدق وكذب وحقّ وباطل ، فاضافته هنا الى العهد المكتوب ليس فيه جدوى ولا طائل ٠٠

وجاء البيت الثاني على أساوب كتاب العرائض ـ فعلا ـ (ومن بعد اتمامي كتابة ٠٠) وهو أسلوب كان على الشاعر ان يحاشي نفسه استعماله ٠٠ اما الثريا والطغراء فمحض ألفاظ لها في السمع جرس خاص ولـكن ليس لها في الذهن معنى ٠٠

ان هذا الاسلوب كان مما شاع لدى الشعراء في عصور انحطاط العربية وانشغال الشعراء بالصناعات اللفظية والانهماك في تزويق الكلام وتزيينه ، فكثر عندئذ مثل هذا الحشو والزروقة لدى القوم فما بال الرصافي ينهج مثل هذا النهج في هذا العصر ؟ .

ثم قال فأغرب في الخيال :

وعلقته كي لا تناوله يد   بمنبعث الانوار من ذروة الشعرى

وهذا عِدْلُ اولئك في التهويش والمبالغة والتخريف أيضا .. اما (منبعث الانوار) فكلام من مصطلحات الشاعر وهو اصطلاح حريٌّ بكل مشاحّة ..

ثم قال فأجاد :

لذاك جعلت الحق نصب مقاصدي   وصيّرت سرّ الرأي في أمره جهرا
وجرّدت شعري من ثياب ريائه   فلم أكسه الاّ معانيه الغُرّا
وارسلته نظماً يروق انسجامه   فيحسبه المصغي لانشاده نثرا
فجاء مضيئا ليله كنهاره   وان كان بعض القوم يحسبه كفرا
أضمنّه معنى الحقيقة عارياً   فيحسبه جهاله منطقا هُجْرا

غير ان العجيب في الامر ان مفردات اللغة فرّت من ذهن الشاعر جميعاً ، فلم يعثر من بينها الاّ على لفظة واحدة دون غيرها فلبث يكررها بيتاً بيتاً كما يلاحظ من قوله (فيحسبه المصغي) وقوله (بعض القوم يحسبه) وقوله (فيحسبه جهاله) .. وهذا من اوخم النقائص واقبح المآخذ .

اما ما مدح به الشاعر شعره من كونه يحسبه المصغي اليه نثرا ، فقول لعلّ الشاعر انفرد به ، فليس من البلاغة ان ينزّل الشيء دون منزلته ثم يظنّ ذلك اطراءاً له .

والنثر دون منزلة الشعر في عقيدة الشعراء حتماً فهم يرون ان بينهما سبع سماوات وسبعة أروض ، فكان على الشاعر ان يحرص على هذه العقيدة كل الحرص فلا يفرّط فيها[٣٤] .

---

(٣٤) يلاحظ قول الشاعر في قصيدة له :

تنظمنا الايام شعرا وانما   تردّ المنايا ما نظمن الى نثر

اما قول الشاعر :

ويحمله الغاوي على غير وجهه　　فيوسعني شتما وينظرني شزرا

فجدير بالحذف لأنه ظاهر العوار مكشوف الخلة •

ثم انتقل الى المهاترة التي ظنها نقاشاً ومنطقاً صائبا ، فقال :

رويدك ان الـكفر ما انت قائل　　وان صريح الكفر ما خلته نكرا

وانما كان هذا مهاترة لأن ذلك الغاوي لم يقل في الشاعر غير الشتم ولم ينظر اليه الا النظر الشزر وليس في بعض هذا ولا في كله كفر أو شيء من الـكفر ليقول له (رويدك ان الـكفر ما أنت قائل) ••

ثم قال :

هل الـكفر الا ان ترى الحق ظاهرا　　فتضـرب للأنظـار من دونـه سـترا

في هذا البيت اجادة في الأداء والتعبير بحيث يصلح ان يكون حكمة يستشهد بها ومثلاً يضرب كسائر الامثال ••

اما قوله ــ بعده ــ :

وان تبصر الاشياء بيضاً نواصعا　　فتظهرها للناس قانيــةً حُمرا

فكلام زائد يجب حذفه فهو أولاً ليس مما يصدق عليه الـكفر ، وهو كذلك اهون أمراً مما سبق ان قاله في وصف الـكفر وتحديد معناه ••

اما ان يكون الشيء أبيض فيظهره من يظهره للناس أحمر أو أخضر فانه امر لا يستحق ان يقال فيه بيت من الشعر اصلاً بله ان يتخذ حجة مما يحتج به في التكفير ••

اما قوله :

اذا كان في عري الجسوم قباحة　　فأحسن شيء في الحقيقة ان تعرى

فيلمسها من مارست عينه عمى　　ويبصرها من كابدت اذنه وقرا

فانهما بيتان فيهما من دواعي التوفيق غير قليل •

وكذلك وفق الشاعر في قوله :

أحبّ الفتى ان يستقلّ بنفســـه   فيصبح في افكاره مطلقاً حـــرّا
واكره منـــه ان يكون مقلـــداً   فيحشر في الدنيا اسيراً مع الأسرى

اما قوله :

وما هـذه الاوطان الاّ حدائق   بها تنبت الأفكار من اهلها زهرا

فعامي اللفظ ساذج الفكرة تافه التشبيه •• ثم قال من بعده :

وما حبّها الاّ لأجـــل تحرّر   يكون الى العلياء بالناس منجرّا

وهو كسابقه عامي اللفظ ضحل المعنى ، وكانت لفظة (منجرّا) اسوأ شيء فيه •

واجاد في قوله التالي :

اذا كان في الاوطان للناس غاية   فحرية الافكار غايتها الـكبرى
فأوطانكم لن تستقلّ سياســـة   اذا انتم لم تستقلوا بهـــا فكرا

اما قوله :

اذا السيف لم يعضده رأي محرر   فلا تأملن من حدّه ضربة بكـــرا

فانه بارع جميل ••

ثم تحدث الشاعر عن الجمود والحرية فكان في بعض ذلك بليد العبارة وكان في بعضها مجيدا محلقا •• كقوله يخاطب الحرية وهو مما اجاد فيه :

اذا كنت في قفر تخذتك مؤنسا   وان كنت في ليل جعلتك لي بدرا
وان لامني قوم عليـــك فانني   لملتمس للقوم من جهلهم عذرا

اما ما كان قد قاله من قبل حين قال في مخاطبة الحرية هذه :

احرّيتّي اني اتخذتك قبلـــة   اوجه وجهي كلّ يوم لها عشرا

فمفضوح فيه ان (العشر) مما اقتضته القافية ، وما اسخف ان تعبث القافية بالرأي فتصرفه الى ان يقول غير الذي ينبغي ان يقول •• اما قوله في مخاطبة الحرية أيضا :

وان نابني خطب ضممتـك لاثمـاً فقبلت منك الصدر والنحر والثغرا

فانه كلام اشبه بما في بعض المجاميع الغرامية من مغازلات (من نحو كتاب مناجاة الحبيب في الغزل والنسيب) وليس مثل هذا القول مما يحسن ان تخاطب به الحرية •• وكان الاخفاق في التعبير ملحوظا في هذا البيت كل الملاحظة فما هو جدوى من يصيبه الخطب وتعلق به البلوى في ضمّ الحرية الى صدره واشباعها تقبيلا ثغرا ونحرا (وبطنا وظهرا) ؟ •

١٥) الى ابناء المدارس

من قصائده السلسة التي تمتاز بالفصاحة والاشراق وتزدحم فيها الأخيلة السليمة والمعاني الرائقة الجميلة •

ولا احسب ان الشاعر زوحم في نظم مثلها في ذات موضوعها ومقامها •• وقد احسن فيها النصيحة ، وصدق فيها القول ، ورسم للشباب من الطلاب المنهج السديد المعبّد ، وابدع كل الابداع في وصف رجال العلم وذويه •

اما المآخذ التي نأخذها على القصيدة فلست أجد الا قوله :

وكم من فأرة عمياء امست　　تسمى عندنا اسدا هصورا

فان الشاعر خرج بهذا عن حدود المبالغة المألوفة في القريض الى ما يصعب هضمه واستساغته •

ولقد يكون لدى مجتمعنا ما يشار اليه أو يصرّح به من مثل هذه الهنات ولكن الامر لم يبلغ بالقوم الى تسمية الفأرة ـ عمياء كانت ام كانت مبصرة ـ اسدا هصورا •• فلو حذف هذا البيت لنجت سفينة القصيدة من خرق كهذا الخرق الذي هو حريّ ان يتسع على الراقع ••

وها هي ذه أثبتها لأنها من اوج الشعر وعصابة رأسه :

كفى بالعلم في الظلمات نورا　　يبيّن في الحياة لنا الأمورا
فكم وجد الذليل به اعتزازا　　وكم لبس الحزين به سرورا
تزيد به النفوس هدى ورشدا　　وتستعلي العقول به شعورا

اذا ما عــقّ موطنهــم اناس ولم يبنــوا بــه للعلم دورا
فان ثيابهــم اكفــان موتى وليس بيوتهــم الا قبــورا
وحــق لمثلهم في العيش ضنك وان يدعــوا بدنياهم ثبــورا
ارى لبّ العلى ادبا وعلمــا بغيرهما العلى امست قشــورا
أأبنــاء المدارس ان نفســي تؤمل فيكــم الامل الكبــيرا
فســقيا للمدارس من رياض لنا قــد انبتت منكم زهــورا
ستكتسب البــلاد بكــم علوّا اذا وجدت لها منكم نصــيرا
فان دجــت الخطوب بجانبيها طلعتــم في دجنتهــا بدورا
وأصــبحتم بهــا للعــزّ حصنا وكنتم حولها للمجــد ســورا
اذا ارتوت البــلاد بفيض علــم فعاجــز اهلهــا يمسي قــديرا
ويقوى من يكون بهــا ضعيفا ويغنى من يعيش بهــا فقيرا
ولــكن ليس منتفعــا بعلــم فتى لم يحرز الخلق النضيرا
فان عماد بيت المجــد خلق حكى في انف ناشــقه العبيرا
فــلا تستنفعوا التعليــم الا اذا هــذبتم الطبــع الشريرا
اذا ما العلــم لابس حسن خلق فَرَجِّ لأهلــه خيراً كثــيرا
وما ان فــاز اغزرنا علومــا ولــكن فــاز أسلمنا ضــميرا
أأبنــاء المدارس هــل مصيخ الى من تســألون به خبــيرا
ألا هــل تسمعون فانّ عندي حديثا عن مواطنكم خطــيرا
ورأياً في تعــاونكم صــوابا ورأياً من تخاذلــكم كســيرا
قد انقلب الزمان بنــا فأمست بغاث الطير تحتقــر النسورا
وســاء تقلب الايام حتــى حمدنا من زعازعها الدبورا[٣٥]
فكيف نروم في الاوطان عزّا[٣٦] وقد ساءت بساكنها مصيرا
ولم يك بعضنا فيهــا لبعض على ما ناب من خطب ظهيرا

---

(٣٥) الدبور الريح التي تأتي من الجنوب وهي مكروهة عنــد العــرب ، والبيت فخم المعنى موفق الاداء ٠

(٣٦) في الديوان (فكيف تروم) بالتاء وهو خطأ مطبعي ٠

ألسنا الناظمين عقــود مجــد — نزين من العصور بها النحورا
اذا لجج الخطوب طمت بنينــا — عليهــا من عزائمنا جســورا
لنبتــدر العبــور الى المعــالي — بحيث نطاول الشعرى العبورا[٣٧]
الا يا ابن العراق اليك اشــكو — وفيك امارس الدهر المكورا[٣٨]
تنفّض من غبــار الجهـل واهرع — الى تلك المــدارس مســتجيرا
فهنّ امــان من خشي الليــالي — وهن ضمان من طلب الظهــورا

(٣٧) البيت رائع الأداء ، وايراد (الشعري العبور) كان في أجمل ما اوردت في مثله .
(٣٨) لفظة (المكور) غير شعرية ، وهي هنا ثقيلة وجافة .

١٦) المطلّقة

من أكثر قصائد الديوان ذيوعاً على ألسنة المعجبين بالرصافي وشعره •• وهي في الواقع قمينة بكثير من الاعجاب ، وقمينة بكثير من الاطراء ، لو ان الشاعر شاء ان يحذف زوائدها وحذافيرها ورواسبها •

اما خواتيم القصيدة فهي فيها بيوت القصيد وعيون الشعر •• ولو كان بيدي أمر الديوان لحذفت الاربعين بيتا من القصيدة واستبقيت هذه الخواتيم وحدها •

فما ارى في هاتيك الاربعين بيتا الاّ بعض المعاني العاطفية التي تقتضيها طبيعة الطلاق والفراق ، ولا أرى فيها الاّ وصف المطلقة بالجمال والفتنة وما الى ذلك من الاقاويل التي لا يحلّ التغني بها على حساب البائسين ••

قال الرصافي (وهو ما انقله من خواتيم قصيدته) :

ألا قل في الطلاق لموقعيه ... بما في الشرع ليس له وجوب
غلوتم في ديانتكم غلوّاً ... يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيراً وأنتم ... من التعسير عندكم ضروب
وقد حلّت بأمتكم كروب ... لكم فيهنّ لا لهم الذنوب
وهى حبل الزواج ورَقّ حتى ... يكاد اذا نفخت له يذوب(٣٩)

(٣٩) لو استعمل الشاعر معنى النفخ بصيغة الفعل المجهول لكان أحسن ••

كخيط من لعاب الشمس ادلت　　به في الجوّ هاجرة حلوب
يمزقه من الافواه نفث　　ويقطعه من النسم الهبوب
فدى (ابنَ القيّم) الفقهاءُ كم قد　　دعاهم للصواب فلم يجيبوا
ففي (اعلامه) للناس رشد　　ومزدجر لمن هو مستريب[٤٠]
نحا فيما اتاه طريق علم　　نحاها شيخه الحبر الأريب
وبين حكم دين الله لكن　　من الغالين لم تعه القلوب
لعلّ الله يحدث بعد امرا　　لنا فيجيب منهم من يجيب

اما المآخذ على الابيات الاخرى في القصيدة فمنها انه قال :

ذوى منها الجمال الغض وجداً　　وكاد يجف ناعمه الرطيب

وكان الاولى ان يقول (حزنا) لأن المقام يقتضي الحزن لا الوجد ..
وقال :

وقد خلب العقول لها جبين　　تلوح على اسرّته النكوب

ولا يخلب الجبين العقول سواء ألاحت على اسرته النكوب ام لم تلح ..
اما قوله :

ألا ان الجمال اذا علاه　　نقاب الحزن منظره عجيب

فرائع وجميل .. اما قوله :

رعى ورعت فلم تر قطّ منه　　ولم ير قطّ منها ما يريب

ففيه املال واطالة وتكرار .. ومما يعاب عليه قوله :

خذي من نور (رنتنجن) شعاعاً　　به للعين تنكشف الغيوب

فلا فخر للشاعر ان يباهي بأنه حفظ لرونتكن اسماً استعمله في شعره ..

وتتغلب العامية على بقية الابيات من شعره وتسودها الركاكة ..

---

(٤٠) لو قال (وايضاح لمن هو مستريب) لكان أحسن في التعبير ، لان الاستترابة يزيلها الوضوح لا الازدجار ..

ومن الحق ان نشير الى ان بعض تلك الابيات على رغم بساطة معانيها وسذاجتها جديرة ان تعتبر نموذجاً للسلاسة والوضوح كقوله :

ابن ذنبي اليّ فدتك نفسي — فاني عنه بعدئذ اتوب

وقوله :

وما والله هجرك باختياري — ولكن هكذا جرت الخطوب
فليس يزول حبك من فؤادي — وليس العيش دونك لي يطيب
ولا اسلو هواك وكيف اسلو — هوى كالروح فيّ له دبيب

واما مطلع القصيدة وهو قوله :

بدت كالشمس يحضنها الغروب — فتاة راع نضرتها الشحوب

فظاهر عليه التجويد في الوصف والتوفيق في التعبير • ولكن البيت الذي يليه جاء زائداً على الحاجة •• وهو قوله :

منزهة عن الفحشاء خود — من الخفرات آنسة عروب

ومنشأ هذه الزيادة انه ذكر من الصفات ثلاثا (خود وآنسة وعروب ، فضلا عن وصفها بأنها من الخفرات) وليس معنى هذا الاّ الاكثار من الالفاظ من اجل نظم بيت جديد لا غير ••

واما قوله :

نوار تستجدّ بها المعالي — وتبلى دون عفّتها العيوب
صفا ماء الشباب بوجنتيها — فحامت حول رونقه القلوب

وكذلك قوله :

اصابت من شبيبتها الليالي — ولم يدرك ذؤابتها المشيب

فانها خير ما في القصيدة مما جاء في وصف جمال المطلقة واطراء شخصها من هذا الوجه ••

ونهج الرصافي نهج بعض شعراء الجاهلية حذو القذة بالقذة في قوله :

وما ادماء ترتع حول روض — ويرتع خلفها رشأ ربيب
فما لفتت اليه الجيد حتى — تخطّفه بآزمتيه ذيب

فراحت من تحرقهــا عليــه بــداء مالهــا فيــه طبيــب
تشمّ الارض تطلب منه ريحـا وتنحب والبغـام هــو النحيب
وتمزع في الفلاة لغــير وجه وآونــة لمصــرعه تــؤوب
بأجــزع من فؤادي يوم قالوا برغم منــك فارقــك الحبيب

فهو نهج من الشعر التصويري عرف في الجاهلية وصدر الاسلام ومنه قول متمّم بن نويرة في رثاء اخيه مالك :

وما وَجْدُ اظآر ثلاث روائم شهدن مجرّاً من حوارٍ ومصرعا

والنماذج عليه في الشعر القديم كثيرة ..

١٧) اليتيم في العيد

تتألف هذه القصيدة من ثلاثة وثمانين بيتا •• وهي في رأي أنصار الشاعر من بليغ الشعر ورائقه ، وهم يشيرون اليها عند تعداد قصائد الرصافي ذات الشهرة والصيت ••

ولـكن القصيدة ـ هذه ـ ليست حرية بهـــذه الضجة ولا جديرة بذلك الصيت ، انما يغلب عليها انها عاطفية الحسّ شجية الملامح •• فهي قصة يتيم خلق الثياب ، هلك من كان يعيله ، وسجن من قام على رعايته فشغل الهمّ والحزن امه التي تسكن في دار متداعية ••

ومن تمام هذه القصة ان الشاعر كان قد لاحظ هذا اليتيم في مجمع من الناس يصغون الى طبل يقرع ومزمار ينعر اذ كان الناس يومئذ في عيد ••

كان هذا هو محصّل القصيدة من المعنى وهو لو قيل نثرا لأشجى النفوس فكيف اذ يقال شعرا ؟

اما ان القصيدة من عيون الشعر وبليغ القريض او فصيحه ، فلا ••

ولقد تعنّ فيها أبيات جيدة العرض متقنة السبك تحتجن اللفظ الفصيح وتلتمّ على العبارة الفخمة ، ولـكن هذا قليل أو هو أقلّ من القليل في قصيدة (اليتيم في العيد) •

بدأ الشاعر القصيدة بالحديث عن الصباح ـ أي صباح العيد ـ فأكثر من ترداد لفظة الصباح في خمسة أبيات متتابعة ، ولا يمكن ان يكون ذلك من الشعر

الذي ينسب الى فحول الشعراء ، ولست احسب ان التكرار معيب لذاته ولكني اعني ان تكرارا مثل هذا هو المعيب ..

قال الشاعر في مطلع قصيدته :

أطلّ صباح العيد في الشرق يسمع ... ضجيجا به الأفراح تمضي وترجع
صباح به تبدى المسرة شمسها ... وليس لها الاّ التوهم مطلع
صباح به يختال بالوشي ذو الغنى ... ويعوز ذا الاعدام طمر مرقع
صباح به يكسو الغني وليده ... ثيابا لها يبكي اليتيم المضيع
صباح به تغدو الحلائل بالحلى ... وترفضّ من عين الارامل ادمع

ان الاطلال انما ينزع الى رؤية الاشياء ومشاهدتها لا الى سماعها . واما ان يعوز المعدم طمر مرقع فمبالغة مستغربة اذ ان الطمر المرقع هو شعار المعدمين فاذا كان هذا يعوزهم فان الامر يكون قد خرج على القياس .

ثم قال يصف يوم العيد :

يرينا سرورا بين حزن وانما ... به الحزن جدّ والسرور تصنّع

وهذا خطأ في هذا المقام ، فان الشاعر ذكر قبل ذلك من معالم سرور الناس في العيد ان الغني يرفل في ثياب الوشي وان الحلائل تغدو بالحليّ وان ابن الغني ينعم بالثياب التي يبكي اليتيم لحرمانه منها .. وهذا سرور ظاهر لا تمويه فيه ، ففيم اذن سماه الشاعر تصنعا في قوله (به الحزن جدّ والسرور تصنع) .

ان الحزن دائما جد لأهله والسرور دائما جد لأهله .. وقد يكون من السرور ما هو تصنع ولكن موضعه ليس الموضع الذي أشار اليه الشاعر .

وحسن قوله :

قد ابيض وجه العيد لكنّ بؤسهم ... رمى نكتا سودا به فهو ابقع

ثم قال :

خرجت بعيد النحر صبحا فلاح لي ... مسارح للأضداد فيهن مرتع

لا معنى لذكر الصبح هنا مرة سادسة ، اما مسارح الاضداد هذه فهي مشهودة في الصبح وغير الصبح .. ثم قال :

خرجت وقرص الشمس قد ذرّ شارقا   ترى النور سيالا به يتدفع

اعاد لفظة الخروج ، ثم زاد في اللفظ ولم يزد في المعنى •• ثم قال :

هي الشمس خود قد اطلت مصيخة   على الارض من افق العلى تتطلع

كرر هنا ما قاله في المطلع ، والاصاخة والاطلال ليس بينهما صلة وشبه ولكن التطلع وحده يلائم الاطلال ••

ووصف الشمس بأنها خود لا مكان له في هذا المدى العريض ••

ثم ان الشمس تبزغ من جانب الافق فلا يلائم ذلك ان توصف بأنها اطلت من افق العلى ، ولا مفهوم لهذا العلى هنا اصلا ••

ولكن الشاعر قد يكون قد تداعى الى ذهنه النص في التنزيل العزيز (وهو بالأفق الاعلى) فقال قوله دون ان يعلم ان افق القرآن غير افق الشمس •• فان افق الشمس بالنسبة لمن يرى شروقها انما هو الحضيض الأدنى المترامي على جانب الارض ••

وقوله في وصف الشمس :

كأنّ تفاريق الاشعة حولها   على الافق مرخاةً ذوائب اربع

هذه الاربع من صنع القافية •• واما قوله :

ولما بدت حمراء ايقنت انها   بها خجل مما تراه وتسمع

فبديع حسن التخيل والوصف والتعليل •• ثم قال :

فرحت وراحت ترسل النور ساطعا   وسرت وسارت في العلى تترفع

والشاعر هنا يتنبه الى تنقل الشمس من مستواها في الحضيض الى الاعالي ، وبهذا يناقض ما قاله من قبل حين وصف الشمس بالاطلال على الارض من افق العلى ••

ومن بديهيات معانيه وساذجها :

بحيث يسير الناس كلّ لوجهة   فهذا على رسل وذلك مسرع

على ان في هذا من الوهم ما هو ظاهر ، فان الناس في العيد غيرهم في سائر الايام ، فليس يشغلهم فيه شاغل من عمل أو وظيفة ، وانما هم منه في فسحة

وفراغ ويغلب عليهم جميعا التراخي في اداء الامور واخذ كل شيء برسل وتؤدة ..

واجاد في وصف بعض المفارقات حين قال :

وبعض له انف اشمّ من الغنى   وبعض له انف من الفقر اجدع

وتناول الشاعر بعد هذا حديث الطبل الذي تكرر ستّ مرات في أبيات خمسة متتالية ، ونهج في سرد ذلك نهج من يسرد قصة باردة .. فقال :

وفي الحيّ مزمار لمشجي نعيره   غدا الطبل في درادبه يتقعقع[٤١]
فجئت وجوف الطبل يرغو وحوله   شباب وولدان عليه تجمّعوا
لقد وقفوا والطبل يهتزّ صوته   فتهتز بالأبدان سوق واكرع
ترى ميعة الاطراب والطبل هادر   تفيض وفي أطرافهم تتميّع
فقد كانت الافراح تفتح بابها   لمن كان حول الطبل ، والطبل يقرع[٤٢]

ثم انتقل الشاعر في الابيات التالية الى وصف يتيم رآه بين المتجمهرين حول الطبل ، وقد اجاد الوصف وابدع في العرض ، ولم يخل بعض قوله من مآخذ يؤخذ عليه ..

ومما ابدع فيه ، قوله في وصف الصبي اليتيم :

عليه دريس يعصر اليتم ردنه   فيقطر فقر من حواشيه مدقع
يليح بوجه للكئابة فوقه   غبار به هبت من اليتم زعزع
يردّ ابتسام الواقفين بحسرة   تكاد لها احشاؤه تتقطع
له رجفة تنتابه وهو واقف   على جانب والجو بالبرد يلسع
يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد   على البَرد من بُرْدٍ به يتلفع
فكان ابتسام القوم كالثلج قارساً   لدى حسرات منه كالجمر تلذع

ومما يؤاخذ عليه من قوله في وصف اليتيم :

صبيّ صبيح الوجه اسمر شاحب   نحيف المباني ادعج العين انزع

فلو أرجأ مثل هذا الى قصيدة في الغزل لكان اولى ..

---

(٤١) في البيت نكتة في التعبير ذات طرافة .
(٤٢) في البيت اجادة ظاهرة لاثر الطبل المقروع في نفوس سواد الناس .

واعقب هذا كلام طويل يتألف من سبعة عشر بيتا تحدث فيها عن جزعه لحال الطفل اليتيم وقال انه تعقبّه حين لم يرد عليه سؤاله وانه اهتدى الى داره وعلم من امر اهله ما علم ..

ان هذا الفصل تغمره الركاكة ويسوده الاملال بحيث كانت هذه الابيات اقرب الى النهج العامي منها الى القريض الفصيح .. وكانت قليلا ما تعنّ فيها أبيات لامعة مقبولة ، كقوله :

ورحت اعاطيه الحنان بنظـــرة   كما راح يرنو العابد المتخشّع

وقوله :

وافتح طرفي مشـــبعا بتعطف   فيرتد طرفي وهو بالحزن مشبع

وقوله :

فهبّ امامي من رقـاد وجومه   كما هبّ مرعوب الجنان المهجّع

ولـكن قوله (امامي) حشو ممجوج مستقبح ..

وقوله :

دنوت الى باب الدويرة مطرقا   واصغيت ـ لا عن ريبة ـ اتسمع

في قوله (لا عن ريبة) استدراك بارع جدّا .

ومن الابيات القلقة المضمحلة في هذا الفصل قوله :

هناك على مهل تقدمت نحـــوه   وقلت بلطف قول من يتضـــرع
ايا ابن اخي من انت ما اسمك ما الذي   عراك فلم تفرح فهل انت موجع

والسخيف في الامر ان الشاعر بعد ان وصف طمر اليتيم وارتجافه من البرد يروح يسأله (ما الذي عراك فلم تفرح فهل انت موجع) ؟ .

ومن ركيك التعبير قوله :

لمحت على بعد اشـــارة صاحب   ينادى ان ارجع وهو بالثوب ملمـع
فأومـــأت ان ذكـــرته موعـــدا لنا   وقلت لـــه اذهب وانتظـــر فسأرجع

ألا ان الركاكة والضحالة لا تستر على شيء منهمـا القوافي ولا البحـور الطوامي ..

وينتقل الرصافي الى فصل آخر ملاكه واحد وعشرون بيتا يغرب فيه ويشرق من غير حاصل ولا تحصيل .. فقد ختم الفصل السابق بقوله :

أأرجع ادراجي ولم أك عارفا   جلية هذا الامر ام كيف اصنع

وهو اداء عامي رغم فخامة الصياغة فيه .. وبدأ الفصل الجديد بقوله :

ومرت عجوز في الطريق وخلفها   فتاة يغشيها ازار وبرقع

هذا الازار والبرقع (والفتاة برمتها) مما حاكته القافية ..

ثم سأل الشاعر العجوز عن اسمها فقالت ان اسمها (بوزع) فكأن المشكلة كانت موقوفة على معرفة اسم عجوز تمشي في الطريق :

تعرضتها مستوقفا وسألتها   عن الاسم قالت انني انا بوزع[٤٣]

ولفظة (بوزع) هذه مما تحدث عنها الباقلاني في اعجاز القرآن غير ان الرصافي لا يؤاخذ في استعمالها هنا فقد شاء ان يطلقها على عجوز من عجائز الله فلم تكن قسمتها في ذلك بالقسمة الضيزى .. انما يؤاخذ على حشر مثل هذه الاقصوصة البلهاء في قصيدة يحسبها من يحسبها الياذة العرب العرباء ، وما هي الا الكلام ملقى على عواهنه شرّ القاء ..

واعجب شيء واغربه ان يقول بعد هذا :

فأدنيتها مني وقلت لها اسمعي   حنانيك ما هذا الحنين المرجع

فان البيت يصلح ان يقال في أدناه فتاة جميلة وفي معنى يحتجن الغزل والمداعبة .. وكان على الشاعر ان يقول فدنوت منها دون ان يقول (فأدنيتها مني) .. اما لفظة اسمعي فانها لتقسم بالله ان قائلها يتكلم العامية في قيله هذا وليس العربية الفصحى .

---

(٤٣) في العمدة لابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ .
وأما قول السيد الحميري :
ولقد تكون بها أوانس كالدمى   هند وعبدة والرباب وبوزع
فانه ثقيل من أجل بوزع .. وانكر هذه اللفظة عبدالملك بن مروان على جرير ، فما ظنك بالسيد الحميري . (العمدة ٢ : ١١٦) .

ومما احسن أداءه من أبيات هذا الفصل قوله :

فقالت وانّت أنّة عـن تنهـد ... وفي الوجه منها للتعجب موضع
ايا ابني ما يعنيك من نوح أيّم ... لها من رزايا الدهر قلب مفجع
فقلت لها اني امرؤ لا يهمني ... سوى من له قلب كقلبي مروّع
واني وان جارت عليّ مواطني ... فؤادي على قطانهـن مـوزع

ثم احصى الشاعر أسماءا عـدة من نحو خليل وسعيد وسـعد وسلمى ، واستعمل الفاظا عامية للتعبير عن تفاصيل القضية وختم الفصل بهذا البيت فأحسن به ــ وحده ــ سدّ الخلل وستر الخلة :

فلا غرو من ام اليتيم اذا غدت ... ضحى العيد يبكيها اليتيم المضيع

ولعمري لقد كان هذا البيت وحده مغنيا عن تلك الاطالة التي لم يقطع بها أرضاً ولم يبق بها ظهرا ..

وتبع هذا فصل آخر كان فصل الختام لهذه المأساة التي كان حظ الشعر منها اسوأ من حظ اليتيم وامه .

ونصاب هذا الفصل احد عشر بيتا بدأه بقوله :

فعدت وقلبي جـازع متوجع ... وقلت وعيني ثرة الدمع تهمـع
الا ليت يوم العيد لا كان انه ... يجدد للمحزون حـزنا فيجزع

ثم يتحدث عن رجوعه الى صحبه في ناديهم فيبلغهم ما جرى له مع اليتيم فيتأففون لخطبه ويرجّعون لأمر خاله السجين .

ثم يقول :

فقلت دعوا التأفيف فالعـار لاصق ... بكم واتركوا الترجيع فالأمر افظع
ألسـنا الألى كـانت قديمـا بلادنا ... بأرجائهـا نور العـدالة يسـطع
فمـا بالنا نستقبل الضيم بالرضـا ... ونعنو لحكم الجائرين ونخضـع
شـربنا حميـم الذل ملء بطوننـا ... ولا نحن نشكوه ولا نحـن نيجع
فلو ان عـير الحيّ يشرب مثلنـا ... هـوانا لأمسـى قالسـاً يتهـوّع

نهوضا الى العـزّ الصراح بعزمه　　تخـرّ لمرمــاها الطغــاة وتركع
الا فاكتبوا صكّ النهوض الى العلى　　فاني على مــوتي بـــه لموقّـــع

هذه الخاتمة ظاهرة المتانة معنى ولفظا •• ولـكنها لا تصلح ان تكون خاتمة لهذه القصة ، وكان حريا ان تنسلخ منها فتكونّ قصيدة ذات عنوان مستقل ••

وكان ينبغي ان يختم قصيدة اليتيم في العيد بما يستمطر به مروءة ذوي المروءة ليلاحظوا يتامى المجتمع ويحدبوا على المعوزين من ابناء الامة ، فان ابناء المجتمع عيال المجتمع تلزمه نفقتهم واعالتهم ان لم يكن لهم معيل او وليّ ••

اما صك النهوض هذا والتوقيع عليه ، فان مكانه غير هذا المـكان ••

١٨) سياسة لا حماسة

هذه القصيدة من شعره الجزل الذي استوعب فيه فصاحة اللفظة وبلاغة الجملة ، وتناول من المعاني اصلابها وترائبها ، وهي من اروع القصائد في الفخر والحماسة ..

وما عليها من المآخذ نزر قليل كقوله :

اني لأنتزع المعنى الصحيح على عريٍ فأكسوه لفظا قد من درر

فان القدّ لا يكون في الدرر فانها لا تقد وانما تنظم لأن قدها يعني كسرها وكسر اللؤلؤ يفقده قيمته .. ولم يجر في الاستعمال مثل هذا المقال وانما كانوا يقولون في اللئاليء ثقبت ولم تثقب .

وانتزاع المعنى الصحيح على العرى ، كلام لا يكاد يكون عربيا ..

ومطلع القصيدة فيه شيء من العامية والافراط في المبالغة اذ قال :

الشـــعر مفتقـــر مني لمبتكـــر ولست للشعر في حـال بمفتقر

فان كلمة (في حال) منتزعة من لسان العامة ، ولا مكان لها في موقعها الذي وقعت فيه من هذا المطلع ..

اما قوله :

دعوت غرّ القوافي وهي شاردة فأقبلت وهي تمشي مشي معتذر

ففيه خطأ ظاهر .. اذ كان الشاعر قد أراد ان القوافي الشاردة جاءته طيعة ملبية لدعوته ، وفي مثل هذا المعنى ينبغي ان يوصف اقبال تلك القوافي بما يومىء

الى التعجل في المشي لا التباطؤ فيه •• ولكن الشاعر وصف هذا الاقبال بمشي المعتذر • ومشي المعتذر معروف بتلكؤه وتباطؤه وذلك لما يلامسه من الخجل والحياء والتردد ، فكان احرى بالشاعر ان يحذف (وهي تمشي مشي معتذر) ويستعيض عنها بما يفيد التعجل والاذعان ••

اما قوله في قوافي الشعر :

اذا اقمت اقامت وهي من خدمي — واينما سرت سارت تقتفي اثري

فشيء سمج ، فلقد كان من كرامة الشعر على اهله ان اسبغوا عليه اجمل النعوت فسموا القصائد خرائد وعرائس اما ان تكون غر القوافي خدما للشاعر عندما يقيم فما اقبح هذه المكافأة يكافيء بها الشاعر غرّ القوافي (الشقية بمكافأته) •

وكان من معانيه المختارة وعباراته المحكمة قوله :

وسلمتني عن طوع مقادتها — فرحت فيهنّ اجرى جري مقتدر

وقوله :

سقيتهن المعاني فارتوين بها — وكن فيها مكان الماء في الثمر

كم تشرئبّ لها الاسماع مصغية — اذا تنوشدن بين البدو والحضر

فقد كان هذا قولا في الشعر حريا بالاطراء •• اما قوله :

لا يحسن الشعر الاّ وهو مبتكر — وايّ حسن لشعر غير مبتكر

فمحض كلام عار عن كل حقيقة •• ولقد جارى الشاعر به ما كان يشيع لدى القوم من مثل هذه المعاني ، وقد قال الزهاوي مثل هذا أيضا وقال آخرون مثله دون ان يكون لهذا الابتكار مفهوم تتعين به حقيقته • •

والاّ فان الشعر هو الشعر منذ قاله المهلهل بن ربيعة الى ان قاله معروف الرصافي ، فدعوى الابتكار في الشعر تهريج لا طحن لجعجعته ••

وكانت الابيات من آخر القصيدة هي العقد في جيد البلاغة والابداع اذ قال :

ومن يكن قال شعرا عن مفاخرة — فلست والله في شعر بمفتخر

وانما هنّ انفاس مصعّدة — ترمي بها حسراتي طائر الشرر

وهنّ ان شئت مني ادمع غزر — ابكي بهن على ايامنا الغرر

ابكي على امة دار الزمان لها — قبلا ودار عليها بعد بالغير

كم خلّد الدهر من ايامهم خبرا ... زان الطروس وليس الخُبْرُ كالخَبَرِ
ولست ادّكر الماضين مفتخرا ... لكن اقيم بهم ذكرى لمدّكر
وكيف يفتخر الباقون في عمه ... بدارس من هدى الماضين مندثر
لهفي على العرب امست من جمودهم ... حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر
اين الجحاجح ممن ينتمون الى ... ذؤابة الشرف الوضّاح من مضر
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر ... ولا كرامة لولا الشمس للقمر
راحوا وقد اعقبوا من بعدهم عقبا ... ناموا عن الأمر تفويضا الى القدر
اقول والبرق يسرى في مراقدهم ... (ياساهر البرق ايقظ راقد السمر)[٤٤]
كيف النجاح وانتم لا اتفاق لكم ... والعود ليس له صوت بلا وتر
مالي اراكم اقلّ الناس مقدرة ... يا أكثر الناس عدّا غير منحصر
يا ايها العرب هبوا من رقادكم ... فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر[٤٥]

لا أفهم وجه الاستشهاد بالعود والوتر في تساؤله عن نجاح القوم دون اتفاقهم ..

---

(٤٤) يمتاز الرصافي بحسن تضامينه ، وهذا التضمين من بعض ذلك .
(٤٥) التعليل هنا غير صحيح ، فان دجى الخطر اذا انجابت فهنالك يحسن النوم لا اليقظة والعكس بالعكس .. وكان عليه ان يقول ان الخطر قادم ومتهيء للزحف لتكون اليقظة في مقابلته عندئذ ..

١٩) الى الشبان

موشحة لا بأس بها ، على انها دون مستواه في نظم القريض ، وقد يكون من طبيعة الموشحات ان لا تكون فوق هذا المستوى •• ومطلع الموشح :

ادب العلـــم وعلـم الادب   شرف النفس ونفس الشرف

ليس فيه الا ّ ألفاظ انيقة لطيفة كالأدب والعلم والشرف والنفس ، وقد ركبها الشاعر تركيباً مزو ّقاً ساذجا ، وتلك هي سنة الموشحات في الغالب ••

والبيت الذي يليه :

بهمـــا يبلغ اعلى الرتب   كل ّ رام منهما في هدف

وقد جاء هذا البيت متمماً للاول ومستوفياً من المعاني ما لا زيادة فيه على الألفاظ ••• ولـكن قوله (كل رام منهما في هدف) حسن الصياغة •• ولم تخل الموشحة من ركاكة في التعبير كقوله :

انت والله على رغم المنون   ذو وجود قاتل للعـــدم

فالتعبير بقتل الوجود للعدم ظاهر الركاكة •• وكذلك قوله :

اذ قضى للعلم رب الـكائنات   بالعلى فهـو زمـام الملـكوت

وكذلك :

عجبي يا قوم كـل ّ العجب   هـــذه الآثار َ لِم ْ لا نقتفي

ولا يلفت النظر في أبياتها شيء يصلح ان يستشهد ببلاغته أو يشار الى قيمته ما خلا قوله :

قطفت ابواعكـــم عن كثب كلّ مجـــد شاهق المقتطف
تلـــك والله مزايا العـــرب أُورِثوها خلفاً عن سلف

فهما بيتان ليس فيهما حشو ، وقد بدت عليهما السلاسة وكانت ألفاظهمـا ظاهرة التناسق والانسجام .

ومن الحق ان نقول ان انشاد موشحة مثل هذه في منتدى عربي في الآستانة أيام الحكم العثماني انما هو شيء لا يخلو من روعة ..[٤٦]

---

(٤٦) انشدها يوم افتتـاح المنتدى الادبي الذي اسمه شبان العـرب في الآستانة قبل الحرب العالمية الاولى ..

٢٠) الدهر

تتباين أوائل هذه القصيدة وأواخرها ، ففي أوائلها نقاش مع الدهر ووصف لطبائعه وأحكامه ، وقد أجاد الشاعر في ذلك اجادة فوق ما يمكن للشاعر ان يجيد ..

أما أواخر القصيدة فقد نهد بها الى هجاء شخص أو أكثر من شخص .. وقد عامل احـد المهجوّين بالرفق وعامل الآخر بقسوة وفظـاظة ، ولقد كان الجانب الأخير من القصيدة ظاهر الاختلال والركة ..

ويبدو ان الشاعر يضطرب عنده الامر امام خصومه وهُجاته فيندفع الى شتمهم حيثما اتفق له ان يشتم فيجيء شعره في هذه الحالة اشبه بنظم المتون ..

أوائل القصيدة :

هـــل الدهر الاّ أعجميّ أخاطبه فما لي الى فهم الحديث أجـــاذبه
أيثني الى وجـــه اللئيم بوجهــه ويرتدّ مزورّاً عن الحرّ جانبـه
اراه اذا طارحته الجـدّ لاعبـاً وما أنا ممـــن يا أميم يلاعبـه
ويضرب اطناب المنى لي هـــازلاً وما انا مخدوع بما هو ضـــاربه
وبيناه يبدى لي ابتسامة خـــادع يقطّب حتى لا تبين حواجبـه
فيا ادباء القـــوم هل تنقضي لـكم شكاية دهـــر حاربتكم مصـــائبه

هذه الابيات الاوائل واضحة القوة ظاهرة الاشراق والجزالة ، ومما يؤاخذ

عليه منها قوله (ايثني الى وجه اللئيم) وكان احسن لو قال (يميل الى وجه اللئيم) وان الاستفهام هنا لا موقع له ، اذ ان الشاعر استفهم أول الامر استفهاماً انكارياً ثم مضى يسترسل في وصف الدهر فاعادة الاستفهام في الشطر الثاني معيب في مثل هذا المقام سواء أكان انكاريا ام كان غير انكاري ..

والقطعة الاخرى من القصيدة لا تقلّ ابداعاً وروعة عن الاولى فهو يقول :

هو الدهر لم يسلم من الغيّ اهله ... كما الليل لم يأمن من الشرّ حاطبه
اذا آنسوا نور الحقيقة رابهم ... فتجثو على الابصار منهم غياهبه
تضاربت الاهواء فيهم فناكب ... عن الشر يقصيه وآخر جالبه
طبائعهم شتّى على ان بينهم ... كريماً تواليه ووغداً تجانبه
لعمرك حتى البرق خالف بعضه ... فقد خولفت بالموجبات سوالبه
ابت حركات الكون الاّ تبايناً ... دوافعه فعّالة وجواذبه
ولولا اختلاف شاءه الله في القوى ... لما دار في هذا الفضاء كواكبه

فلقد أجاد الشاعر في وصف الناس والدهر فجاءت هذه القطعة حاوية للبارع من الحكم فوق ما فيها من تخير الالفاظ واستقامة الاداء وحسن النسق ..

والقطعة الاخرى من القصيدة تمشي في ذات الحومة وتجري الى نفس المستقرّ من انتزاع الحكم ورجم الدهر بمرّ العتاب والتشكي من الزمن ، قال الشاعر :

سبرت زماني بالنهى ومحصته ... بتجربتي حتى تجلّت عواقبه
ولم أستشر في الناس الاّ تجاربي ... وهل يصدق الانسان الاّ تجاربه
فلا ترتكب قرب اللئام فانهم ... لكالبحر محمول على الهول راكبه

تشبيه اللئام بالبحر غير صحيح ولعلّ الشاعر قال (لكالعير) وهو حمار الوحش الذي لا يؤمن ركوبه فرواها الراوي بلفظ البحر ..

ثم قال :

وما عجبي في الدهر الاّ لواحدٍ ... وان كثرت في كلّ يوم عجائبه

(الاّ لواحد) ظاهر الركة .. ثم قال :

وذلك ان العيش فيــه مطيّب لمــن خبثت بالمخزيات مكاسبه

وهذه قاعدة لا يمكن ان تطـّرد ، فليس كل ما طاب من العيش لأحد كان من مكاسب المخزيات .. ثم قال :

ولو كان في اعماله الدهر عاقــلا لما كان مثلي في الورى من يحاسبه

الهجاء في هذا البيت قد ينصبّ على قائله ، ولو قال (لما كان يلفى في الورى من يحاسبه) لاتقى شبهة ارتماء الهجو على نفسه .. وقال :

ولو لم يكن في كل ما فيه خادعاً لما أمَّ فيــه صادقَ الفجر كاذبه

هذا البيت ظاهر القوة فوق ما يستوعبه من حسن التخيل وروعة الاداء ..

ويلي هذا ما قاله في هجو أشخاص انتقل اليهم بعد ان استوفى قوله في الدهر اشتكاءاً وعتاباً ولعناً واقذاعا ..

ولو اكتفى الشاعر بمــا قاله في الدهر فتركه قصيدة مستقلة لأصاب كل الاصابة ، ولـكانت قصيدته هذه ذات وحدة موضوعية رائعة .. وكذلك لو فعل بالاستقلال في الابيات الاخرى التي هجا بها من هجا بها لـكان اصاب أيضا ..

ولـكن الرصافي في اهاجيه يختلف عن غيره .. فهو رغم اقذاعه الغريزي في نفسه يلقي شبكة هجوه على ما تتسع له من الازمنة والامكنة والاشخاص ، وبذلك يكشف عن مدى خلة الجزع في نفسه وشدة ما يستعر من الغيظ والحقد في قلبه ..

ويقيناً ان الشاعر أراد في البدء ان يهجو بعض الناس ولـكن عنف النزعة الهجائية عنده حملته على ان يختصّ الدهر قبل غيره بنصيب من ذلك اللعن والتثريب ، ومن حيث ان لبن الدهر يتحمل الـكثير من الماء فقد وفق الشاعر في هجائه اياه فجاء بما جاء من رائق القول وجزله ..

غير انه لم يبلغ بعض هذا النجاح في هجوه القوم الذين هجاهم ، فها هو ذا يقول :

الا رب شيطان من الانس قد غدا يخاتلني خلساً وعيني تراقبه
فقلت له اخسأ انما انت خائب وقبلك أعيا الجنّ ما انت طالبه
فولى على الاعقاب يحبو وقد درى – ولله درّي – انني انا غالبه
فأتبعه مني شهاب تسامح يشقّ ظلام الجهل بالحلم ثاقبه
ولو شئت ارسلت الخديعة خلفه تطارده حتى تضيق مذاهبه
ولكن ابى مني الخداع مهذب تعوّد فعل الخير مذ طرّ شاربه

ليس في هذا الكلام العريض شيء من الشعر اللهم الاّ الوزن والقافية ، وليس في اشطر هذه المقطوعة من كلام مستملح ومعنى مقبول غير بيته الاخير وغير قوله (يشق ظلام الجهل بالحلم ثاقبه) وما عدا ذلك فان الركة تبدو مقعية عند كل فناء من افنيته •• وكذلك يقال في المعاني التي احتجنتها تلك الابيات فانها معان جافة خاوية ••

وقد يبدو ان هذا المهجوّ ليس ممن يستطيع الشاعر التقاطه بلسانه ولا ممن يملك كيل الصاع له بصاع أو ببعض صاع فلجأ الى مسامحته حلم العاجز ان كان ينسب للعاجز حلم(٤٧) ••

وآية ذلك ان الشاعر انتقل الى مهجوّ آخر اوسعه من السبّ ما اوسعه دون ان يكون هنا للحلم اثارة أو وميض •• فقال فيه :

وذي سفه اغضيت عنه تكرّما فدبّت على رجليّ غدرا عقاربه
فقمت له بالنعل ضربا فلم تزل يداى به حتى اطمأنت غواربه
وجنبته السيف الجراز لأنه تعالت عن الكلب العقور مضاربه
لقد عابني جهلاً ولم يدر انه اقلّ فداءاً للذي هو عائبه

ترى اين بات الاغضاء تكرما ، واين ذهب المهذب الذي تعود فعل الخير ؟!•

(٤٧) كان الاستاذ النقادة ابراهيم صالح شكر قد قال في الرصافي كثيرا من خشن القول ونسب اليه ما نسب من العهر والمخازي في جريدته (الناشئة الجديدة سنة ١٩٢٣) فما ابدى الرصافي ازاء ذلك وما أعاد ••

وفي تلك الابيات عبارات عامية كقوله (اقلّ فداءا) وقوله (فدبت على رجليّ غدرا) وقوله (فقمت له بالنعل ضربا) •• وختم الشاعر القصيدة بقوله :

له نسبة مجهولة غير انه مغـــامزه معلومة ومعايبه

ولقد يكاد يكون هذا البيت اهجى بيت قاله قائل ، وفوق هذا فانه جزل مبتكر المعنى(٤٨) •

ومما أبدع فيه من التعبير قوله ـ وقد مرّ ـ :

وجنبته السيف الجـــراز لأنه تعالت عن الكلب العقور مضاربه

وهو معنى تكرر لديه في شتى قصائده في الهجاء ••

---

(٤٨) في حاشية الديوان ان القصيدة لم تنشر بكاملها وانما حذف منها نحو احد عشر بيتا •• ولعل ما حذف كان مما ركّ من شعره •

٢١) الى ابناء الوطن

استوعبت هذه القصيدة المتألفة من ثلاثة وخمسين بيتا ، الكثير من الحكم والآداب وقد وفق الشاعر فيها كل التوفيق لوصف الدهر وصفاً لم يسبق اليه .

وفي القصيدة نقاط أخرى التزم فيها الشاعر جانب الدعاية للحكومة يومذاك فخرج بالقصيدة عن صددها خروجا ملحوظا .. وكان قد انشدها في حفلة اقيمت له في بغداد سنة ١٩٢٣ ..

قال في المطلع :

سرْ في حياتك سير نابهْ ... ولُم ِ الزمان ولا تحابه
واذا حللت بموطن ... فاجعل محلك في هضابه
واختر لنفسك منزلاً ... تهفو النجوم على قبابه
ورم العلاء مخاطرا ... فيما تحاول من لبابه
والمجد ليس يناله ... الاّ المخاطر في طلابه

المآخذ على هذه الابيات ان الشاعر وصّى بحلول الهضاب عند نزول المواطن ، وظاهر ان العبارة قصرت بالشاعر عن اداء ما أراده من معنى فجاءت توصيته مستغربة كل الاستغراب .. فهو أراد من الهضاب المنازل المرتفعة أي ما يكون متوفر الكرامة من المنازل ، فذكر الهضاب فأعجم من حيث أراد ان يعرب ..

وقوله (تهفو النجوم على قبابه) لو قال بدلاً منه (ترنو النجوم الى قبابه) لكان أحسن لأن نسبة الرنوّ الى النجوم ألصق من الهفوّ ، وكذلك القول في موقع القباب من ذلك .. اما نسبة اللباب الى العلاء فانه معنى لا يهضم الاّ بعد شرح وطول تفسير . ولكن كان قوله في المجد جدّ بديع ..

ثم قال :

واذا يخاطبك اللئيم فصمّ سمعك عن خطابه

ولو جعل (السفيه) مكان (اللئيم) لأصاب •• لأن المخاطبة من ديدن السفيه يتعجلها تعجّلا وكلام السفهاء هو رأس مالهم •• اما اللؤما فانما تنم عن لؤمهم افعالهم لا أقوالهم •• وقوله (واذا يخاطبك) غير فصيح ••

وقال :

واذا انبرى لك شـــاتما فاربأ بنفسك عـن جوابه

وهو من الحكم القديمة التي لهجت بها الشعراء من قبله كثيرا ••

ومن اعجب ما تناقض به قوله :

ولرب ذئب قد أتاك من ابن آدم في اهابه

ما امتاز قطّ عن ابن آوى شخصه بسوى ثيابه

فقد ذكر الذئب ثم رجع اليه بلفظ ابن آوى ، وهذه سوأة لا تغطى مهما خصف عليها الخاصف من ورق ••

وجميلٌ قوله :

واذا ظفرت بذي الوفاء فحطّ رحلك في رحابه

فأخوك من ان غـاب عنـك رعى ودادك في غيـابه[٤٩]

واذا اصابك ما يســوء رأى مصابك في مصـــابه

وتراه يبجع ان شكوت كأنّ ما بك بعض ما به

وهذه على كلّ حال معان مطروقة قديمة جاءت على ألسنة الشعراء في شتى العصور بصيغ شتى غير ان ورودها على لسان الرصافي لم يكن أقل إمتاعا من ورودها على ألسنة الشعراء الآخرين ••

ثم قال في وصف الدهر فأجاد كلّ الاجادة في بيتين اثنين هما أوائل ما يلي :

يا قوم قـــد هرم الزمان من التمادي في انقلابه

فلذاك عنــد الهاجرات يسيل شيء من لعـــابه

ما زال من خـرف بـــه للناس يهـــذر في كذابه

---

(٤٩) البيت معيب التركيب وصوابه ان يقول ليستقيم اصل المعنى بغض النظر عن القافية (فأخوك من ان غبت عنه رعى ودادك في غيابك) •

يأتي بكـــل عجيبـــة تدعـو اللبيب الى ارتيابه
والناس في عطش تســـير الى ارتواء من سرابه
فمتى يجود لنا الزمـــان ولو بمذق من وطـــابه
والى متى هـــو ســـاتر وجـه الحقيقة في ضبابه
يتلو بصـــرف الحـــادثات لنا فصـولاً من كتـــابه

قوله (ما زال من خرف به) قول ظاهر التلكؤ عن معنى كان يريد الافضاء به فلم يفض به ، وما اورده في الدهر من أقوال ونعوت ، ظاهرة التشتت ، لا تجمع بينها جامعة .. فالدهر يستر وجه الحقيقة في ضبابه !. وهو يتلو فصولاً من كتابه بصرف الحادثات !. ويأتي بالعجائب التي يرتاب لها الأريب ! ومتى يجود الزمان بمذق من وطابه ؟!.

ان هذه الأخيلة اخيلة قاصرة وليست بشيء ..

ثم يقول :

كـم مـــدّع وطنيّـــة من لم تكن مرّت ببـابه

ثم يستمرّ في اتهام من يدعي الوطنية بالنفخ في الأجربة (جمع جراب) والتكسب بها ويقول بعد ذلك :

فكأنمـــا هـــو صـــائد وكأنما هي من كـــلابه
وتراه يرمي المخلصين بكل ســـهم من جعـــابه
ويعيب قومـاً بالخيـــانة والخيـــانة بعض عـــابه

وبهذه المقطوعة مهد الرصافي لـكلام آخر أراد به الدعاية لرجال الحكم يومئذ حين أرادوا تأسيس مجلس منتخب الأعضاء فضجّ عليهم بعض المشتغلين في السياسة من المعارضين للحكومة ، فنبز الرصافي هؤلاء بادعاء الوطنية والاتجار فيها ، ووصف رجال الحكم يومئذ بالمخلصين[٥٠] ..

---

(٥٠) كان الرصافي قد اصدر يومئذ جريدته اليومية السياسية (الامل) فأكثر من الحملات ضدّ الساسة الذين قاوموا الانتخابات وكتّلوا الشعب ضدها . ومن قوله فيهم (بلية هذا القطر عظيمة بكثير من ساستها الذين جمعوا حواليهم جموعا من العامة والســوقة فقيدت البلاد الى أســوء المواقف واخطرها) جريدة الامل ٢ تشرين الاول ١٩٢٣ .

ثم قال :

لابد للوطن العزيز من المسكّن لاضطرابه
من مجلس للشعب ينظر بالتأمل في مآبه
حتى نرى امر البلاد به يعود الى نصابه
ابهت حكومتنا له والشعب ليس له بآبه
أترى الحكومة تبتغيه ونحن نعرض عن طلابه
هذا لعمر ابيك ما يدعو الحليم الى انتحابه
هلاّ يقوم القاعدون مسارعين الى انتخابه
كي ينقذ الوطن الذي صرف الزمان له بنابه
وغدا يهدّد بالبوار بنيه بورٌ في ترابه
ان لم تكونوا مدركيه فلا محالة في خرابه

وظاهر كل الظهور قصد الشاعر من قوله هذا ، فانها الدعاية المحضة لتقبل الانتخاب المطلوب ، ولكن الرصافي عاد بعد حين من الدهر فلعن المجالس المنتخبة وهجا العلم والدستور ..(٥١)

ولم يكن من الملائم لمثل هذه القصيدة ان تحتوي على موضوع مثل موضوع الانتخابات ، اذ ان المناسبة التي ألقيت فيها كانت مناسبة تكريمية له بعد رجوعه الى الوطن اثر غياب طويل ..

والمألوف في قصائد اللقاء والوداع ان تنطوي على المعاني الوجدانية من حنين وشوف وذكريات ونحو ذلك ..

ثم قال الشاعر في خواتيم شعره ما أحسن به القول ، وكأنه أراد ان يمرّ

---

(٥١) جاء في جريدته (الامل) العدد ٥٦ (٦ كانون الاول ١٩٢٣) قوله (كثير من قصار النظر يعدّون يوم فتح بغداد يوم حداد ومصيبة وهو صحيح لو بدّل هذا الفتح استعبادنا القديم باستعباد جديد ونقلنا من الحكم التركي الى الحكم الاستعماري . ولكن الايام اثبتت عكس هذه الاوهام فانه لم تمض أعوام قليلة الاّ وتسلم أهل البلاد زمام أمورهم وأصبحوا سادة انفسهم وتمتعوا بحكم عربي هلكت أجيال عديدة في حسرته . وجميع الدلائل متوافرة متضافرة على ان هذه البلاد سائرة بخطى واسعة نحو الامام كلما أحسنّا التفاهم مع حلفائنا وتجملنا بالدهاء والكياسة) ..

على تلك الأحقاف بالمرط المرحّل ، فيخفي بعض معالمها المتنافرة :

آب المســافر للديار على اضطـــرار في ايابه
لو كان يجنـــح للاياب لما تعجّـــل في ذهـــابه
قد كان يمرح في التغرب بالحفاوة من صحابه
لا تعجبـــنّ لخـــامل لبس النباهة في اغتـــرابه
فالسيف احسن ما يكون اذا تجرّد من قرابه
اما العــــراق فـــان لي كلّ الرجاء بأســـد غابه
ينجاب يأسي بالرجـــاء اذا نظرت الى شـــبابه
من كل من هو في ظلام الليل أضوأ من شهابه
لمـــع الذكـــاء بوجهـــه كالبرق يلمـع في سحابه

فهذه أبيات حسنة ، وقد جاء بالسبك البارع والمعنى الجميل في قوله من هذه القطعة :

من كل من هـــو في ظـــلام الليـــل أضـــوأ من شـــهابه

ولـكن الشاعر أعاد هذا المعنى بعد بيتين على وجه تضاءلت المبالغة فيه :

ووجوههـــم بالنيرات من النجوم لهـــا مشـــابه

ثم شكر الشاعر الحفل :

اني لأشـــكر فضلـكم شكر المثـــاب على ثوابه
كالروض يشـكر وابلاً حيّـــا الأزاهر بانسكابه

والمثاب والثواب ـ هنا ـ من رواسب البيئة الفقهية في أسلوبه ..

٢٢) في المعهد العلمي

بدأ الشاعر قصيدته بقوله :

لعمرك انّ الحرّ لا يتقيّد ألا فليقل ما شاء فيّ المفنّد

ان موضوع الحرية معروف بتنافره مع كل قيد .. ولكن شريعة الحكمة تختلف في النظر الى هذا الموضوع عن شريعة الجهل والعنجهية . فالحرية ليست تمرّداً على القوانين والشرائع والآداب والقواعد العامة والأعراف المقررة ، وانما الحرية هي غير هذا ..

ان الحرية التزام كل شخص بحقه الذي يستحقه ، ووقوفه عند الحدّ الذي يحدّه .. فللحرية في هذا المعنى قيود تتقيد بها ، والرصافي في قولٍ له يعترف بهذا حين يقول :

كفى بصريح العقل قيداً لمطلق من الناس يبغي ان يكون مقيّدا

فلذلك كان اطلاق الشاعر كلمة الحرية اطلاقاً دون تحفظ لا يمثل وجهة نظر الحرية أبدا ..

ولهذا فان التعبير بمثل هذا الاطلاق يعدّ قصوراً في منطق الشاعر عن تحديد المعنى السليم للفظة لكي يكون استعمالها في الكلام مثمراً وسليما ..

ثم قال :

اذا انا قصّدت القصيد فليس لي به غير تبيان الحقيقة مقصد

وهذا مما لا يطرد في كل ما قصّده الشاعر من قصيد ..

ونحا منحى الفخر في قوله :

فللنجم بعدٌ دون ما انا ناشد   وللدر قدرٌ دون ما انا منشد

وهي مبالغة مستملحة ، ولكن لفظة (بعد) ليست شعرية هنا •

ومما جاء من قوله غيرَ ذي مفهوم :

ولا عجب ان عابني الشاعر الذي   يقول سخيف الشعر وهو مقلّد

فقد وصف الشاعر عائبه بأنه مقلد سخيف الشعر وكأن الرصافي يبرّيء نفسه من ان يكون مقلدا •• ولكن القافية هي التي زجّت بلفظة المقلد هذه الى عرض الكلام زجّا ••

وقال :

اذا رمتُ نصحاً جئت بالنصح واضحاً   وما كان من شأني الكلام المعقّد

وكان اولى به ان يقول (اذا رمت قولاً جئت بالقول واضحا) ليكون وضوحه اعمّ في كل ما يقول • اما النصح فان من طبيعته الوضوح •• ونفى الشاعر في عجز البيت ان يكون من شأنه الكلام المعقد ومثل هذا لا يستوي معه الاّ ما صححناه له ••

وانتقل الشاعر بعدئذ الى استنهاض القوم الى طلب العلم والتجديد فيه وترك جمود العقل في الدين ، ولكن الذي جاء من قوله لا يكاد يتّصل بما مرّ منه ••

فلو ان الشاعر تخلى عن هذا التطويل والمقدمات لأغنى السالك عن ولوج هذه الدهاليز ••

ويلوح ان الرصافي اذ يحسب نفسه مجدداً للشعر أو متجدداً فيه انما يحكم لنفسه بذلك من اجل انه ترك تلك المقدمات الطويلة التي اعتاد الشعراء تقديم قصائدهم بها حيث يتغزلون بمعشوقيهم ويتباكون على الاطلال والمنازل ، ونحو ذلك من المقدمات التي حافظ عليها بعض شعراء العصور الاخيرة ••

غير ان الرصافي لم يفعل شيئا ، فانه لم يزل يضع لقصائده مقدمات طويلة مملة بعيدة عن القصد والغاية •• وبهذا يكون للقصيدة عنده أكثر من موضوع ، وهي طريقة العصر الخوالي لا طريقة العصر الحالي[٥٢] •

---

(٥٢) يقول الشاعر في قصيدة له :

وأجود الشعر ما يكسوه قائله   بوشي ذا العصر لا الخالي من العصر

قال الشاعر :

وخلّوا جمود العقل في أمر دينكم ... فانّ جمود العقل للدين مفسد
وان شئتم في العيش عزّا فأقدموا ... فكم نيل بالاقدام عزّ وسؤدد
وأمضوا سديد الرأي دون تردد ... فما يبلغ الغايات من يتردد
ولا تقبلوا قيداً بقول مجرّد ... فما قيّد الاحرار قول مجرّد

وهي أبيات حسنة جيدة غير ان (القول المجرد) من بقايا لغة الفقهاء ..
والبيت الاخير كله ضحل المعنى وليست فيه اثارة من حكمة .

ثم يجيد اجادة ملحوظة في قوله :

وأطلال علم لا تزال شواخصاً ... تذكّر بالعهد القديم وتشهد
اراها فأبكي وهي رهن يد البلى ... بدمع كما ارفضّ الجمال المنضّد
وما انا سال عهدها حين لم تسل ... دموعي ولكني امرؤ متجلد

وقوله في وصف دموعه (كما ارفضّ الجمان المنضد) خطأ وعيب فاضح ، فانه لا يصحّ له ان يصف دموعه بمثل ذلك ، وانما تأتي مثل هذه الاوصاف لدموع النساء والمعشوقات منهن على الأخص ..(٣٥)

ثم قال ـ في وصف أعضاء المعهد العلمي ـ ستة أبيات ليس فيها ما يخوّل الشاعر ان يدّعي التجديد في الشعر أو التحليق فيه ، وانما هو فيه كغيره من الشعراء المقلدين ..

ان قصيدة المعهد العلمي ـ هذه ـ ظاهرة التكلف وفيها من الاعياء ما لا يخفى على الناقد ..

---

(٥٣) اورد العلامة الشبيبي في دراسته لابن الفوطي نماذج من شعر موظفي الديوان في العهد المغولي كان فيها مثل هذا ..

٢٣) في منتدى التهذيب

هذه القصيدة من أحسن قصائده في الفخر والحماسة .. كما ان فيها من الحكم والامثال الشيء الـكثير .

ولـكن الرصافي اقرّ في بعض أبياته منها مبدأ (من ضربك على خـدك الايمن فأدرْ له خدك الايسر) ثم لم يعتم ان انتقض على ذات مبدئه فخرقه بنفسه ..

والقصيدة منظومة في منتدى التهذيب الذي أسس في بغداد يوماً ما ، ولـكن الشاعر لم يتطرق الى المنتدى ببيت واحدٍ ما خلا بيتاً جاء في الاعقاب الاخيرة من القصيدة غير انه في الحقيقة يحتجن من اطراء المنتدى وتقديره اضخم المعاني .

حيث قال :

ألا رب شاك قال لي وهو آسف   أمـا آن للتهذيب ان يتبغــددا

فقلت لـــه أبشر بخير فانــــه   ببغـداد للتهذيب اسّس منتدى

اما مطلع القصيدة فقوله :

تريد لي الايام ان اتقيّــــدا   واطلب فيها ان اكون المجدّدا

ومسألة التقيد والتجدد كانت من المسائل التي لهج بها الرصافي كثيرا خلال هاتيك الايام ، وكذلك كان يفعل الزهاوي .. ولـكن الشعر لم يتجدد منه شيء الاّ ان الشاعرين خرجا من ربقة ما كان يسمى بشعر الفقهاء الى الشعر الذي ينظم مثله المئون من الشعراء ..

وليس للمعنى الذي اورده في المطلع من مفهوم ، فانّ الايام لا شأن لها بالشاعر تقيّد أو تجدّد !!• ولفظة (وأطلب فيها) غير شعرية •

ثم قال :

وتقعد بي دون المدى في خطوبها   وغاية همّ النفس ان ابلغ المدى

وهو بيت جيد المعنى حسن الأداء •• وقال :

كفى بصريح العقل قيدا لمطلق   من الناس يبغي ان يكون مقيدا

وهو من حكمياته •• ثم قال فأبدع وجوّد :

لعمر الهدى ان النهى ليس من صُوىً   سواها لمن ضلوا الطريق الى الهدى

فما بال هذا العقل امسى معطّلا   لدينا كأنّ الله اوجده سدى

ومن لطيف الاستشهاد والمناظرة قوله :

ايُخلقنا كرُّ الجديدين ضلّة   ولم نتقمص فيهما ما تجدّدا

ومما نهد به الى أسلوب الفقهاء قوله :

أعنّي على ما لو تحقق كونه   لما كان لي بل للأناسيّ مسعدا

ثم قال :

تجهّز من الحسنى بما انت قادر   عليه ولاتقبل سوى العقل مرشدا

والشاعر ــ هنا ــ حلّق في صدر البيت دون عجزه •• فبالرغم من ان قوله (ولا تقبل سوى العقل مرشدا) يضمن حكمة طيبة فانّ مكان هذه الحكمة ليس هذا •• فما دام قد دعا الى التجهز من الحسنى فكان يناسب هذا ان يؤكد على التحاشي من اقتراف المساءة ــ في ذات البيت ــ متمماً به العجز دون فاصل من كلام آخر ••

اما الدعوة الى الاسترشاد بالعقل فقد كررها الشاعر غير مرة ، ومع هذا فانّ له ان يكررها ما شاء ولكن ليس الموقع الذي تركها فيه هو الموقع الملائم لدعوة مثلها ••

ثم قال :

وأحسن الى من قد اساء تكرّما   وان زاد بالاحسان منك تمردا

وحبّ الذي عـاداك ان رمت قتله   فاني رأيت الحبّ أقتـل للعـدى
فليس مضراً بالعلى في الذي ارى   على كل حال ان تحبّ من اعتدى

هذا كلام لا يطرد في الناس •• وان الحبّ حريّ ان لا يوضع في مثل هذه المواضع فهو أجلّ واعظم من ذلك(٥٤) •• ويبدو ان العبارة ضاقت على الشاعر فقال ما ساقته اليه ، وقوله (على كل حال) من بقايا تعابير بيئته الفقهية الاولى ••

ثم بدأ قولاً آخر أقامه على الاسس المنطقية المألوفة لدى الفقهاء فقال :

اذا دفـع الشـــر القبيح بمثله   تحصّل شـــر ثالث وتولـــدا
وامستدواعيالشرّ ذاتتسلسل   مديد وصارالشرّ فيالناسسرمدا

وهذا من أتفه الأقيسة وأسقمها ، وربما كان هذا هو السفسطة بعينها ••
ثم قال :

فما الرأي عندي ان تمخضت الوغى   سوى ان يظلّ السيف في الغمد مغمدا

وهذه فلسفة يبدو ان الرصافي اعتنقها مرة واحدة في العمر ثم نزع عنقه من ربقتها الى ابد الأبدين •• وهي ــ حقاً ــ فلسفة ضالة مضلة •
وهي حقا فلسفة الجبن والاستخذاء والانهزامية ••

ومما جاء على هذا المذهب الفلسفي من أبيات قصيدته :

اذا ايقظتني للعـــــداة اعتـــداءة   شربت لها منخالصالعفو مرْقدا
ومن بارع قوله أيضا :
ولي خلـــق يأبى عليّ انطبـــاعه   على الخير تسليمي الى الشرّ مقودا

وابلغ منه قوله :
واضرب عن جهل الجهول ولم اكن   لأضرب في الايام للغـــدر موعـــدا

ولـكن الرصافي في واقع حاله وسلوكه لم يكن كذلك •• وانما هي فلسفة أراد اثباتها في الناس دون ان تثبت في نفسه ••

(٥٤) الشاعر يناقض نفسه كثيراً في هذا الوجه ••

ثم قال :

وتكره نفسي كلّ عبـــد مذلل — فقد كرهت حتى الطريق المعبّدا

وهو قول خرج به عن حدود المبالغات المألوفة ..

ثم قال فأحسن :

اذا ما اتّقت نفس رداهــا بذلة — فعندي نفس تتقي الذل بالردى

ولو طلبت نفسي الغنى بامتهانها — لأصبحت في المثرين اطولهم يدا

ومن بديع قوله وبليغه :

ولي وطن أفنيت عمري بحبّه — وشَتَّتُّ شملي في هواه مبدّدا

وسيّرت فيه الشعر فخراً فطالما — شدوت به في محفل القوم منشدا

ومن بديع قوله (رغم عاميته) :

ومن عجب ان يعشق الروض بلبل — ويمنعــه ذبّانــه ان يغـــرّدا

اما قوله :

وما الناس الاّ اثنان في الشرق كله — جهـــول تلهى او حكيـم تبلـــدا

فانها حكمة جوفاء وفلسفة مخلوجة .. ويزيدها تفاهة ركة أسلوبها ..

ثم قال :

ولم ار مثل الفضل في الشرق مخفقا — ولا مثل جــدّ المرء للمرء مســعدا

وهذه قاعدة لا تطرد .. والبيت خامد ليس فيه نبض يدل على حياة .. وما اورده فيــه من المعنى يكثر شـيوعه على ألسـنة المتشائمين من عامـة الناس ودهمائهم ، وليس هو من حكمة الحكماء في قبيل ولا دبير ..

ثم قال فأجاد في اللفظ والمعنى :

تأمل قليـــلاً في بنيه مفكـــراً — لتشهد منهـــم للعجائب مشهدا

فتبصر أيقاظـــاً يطيعون هجّدا — وتبصر احراراً يخافون اعبـدا

اما قوله :

وكم فأرة في الشرق تحسب هرّةً   وكم عقعق في الشرق سمّي هدهدا

فقد كان أحرى بالشاعر أن يحاشي شعره مثل هذا الابتذال السمج ..

ومن اعجب ما يعرض للرصافي في شعره انه يصعد الى الاوج بمعنىً من المعاني يستوفي فيه كل عناصر الابداع ثم يأبى الاّ ان يتمّه بالمعنى التافه الضئيل واذا هو ينزل من قمته الى حضيضه في لأيٍ واحد .. فلقد كان قوله في اهل الشرق من اروع الاقوال من حيث اثبت لهم اعجب المشاهد ، فان أيقاظهم يطيعون الهجّد واحرارهم تخاف العبيد .. وليس بعد هذا من حاجة الى قول آخر يقال فيهم لا ايجازاً ولا اطنابا ، فما بال الشاعر جاء بأسطورة الفأرة والهرة ومهزأة العقعق والهدهد ، تلك الالفاظ التي لا يمكن ان يقال فيها الاّ انها ألفاظ فرّت من اقاصيص (الف ليلة وليلة) ..

٢٤) في زحلة

وليست هذه قصيدة واحدة وانما هي قصيدتان أولاهما وقعت موقع المقدمة للأخرى دأب الشاعر في غالب ما كان ينظم من الشعر في ماضي عهده ••

اما القسم الاول من القصيدة ـ وهو ما سمىناه بالمقدمة ـ فبارع كل البراعة ، وهو من خير مقدماته وأروع شعره • ويمكن ان يكون ذلك نموذجاً من وجدانياته التي قالها في التوديع •• اما زحلة فانّ موضوعها لا يزال بعيداً عن هذا الموضوع حتى الهزيع الأخير من القصيدة ••

قال الشاعر :

حببت العلى منذ الصبا حبّ شاعر ... وقمت اليهـا ساعيـاً سعي قادر

أأقـدر فيهـا ان اصـيخ للائمٍ ... وقد ملـكت مني جميع المشـاعر

تقول ابنـة الأقوام وهي تلومني ... وأدمعهـا رقراقـة في المحاجـر

الى كم تجـدّ البين عني مسافرا ... اما تستـلذّ العيش غير مسـافر

وأسكتها عنّي نشيج ولم تزل ... تردّده منهـا بأقصى الحناجر[٥٥]

الى ان تفانى الصبر فافترّ مدمعي ... كمدمعهـا عن لؤلؤ متنـاثر[٥٦]

ولا غرو ان ابكي أسىً من بكائها ... فأعظـم ما يشـجي بكاء الحرائر

وقلت لها اني امرؤ لي لبانة ... منوطٌ مداها بالنجوم الزواهـر

---

(٥٥) استعمال الحناجر مجموعة في هذا الموقع خطأ بلاغي ••

(٥٦) وصف الشاعر مدمعه باللؤلؤ المتناثر معيب ، وقد تكرر عنده ذلك ، وانما يرد مثله في مدامع النساء دون الرجال •

تعوّدت ان لا استنيم الى المنى وان لا أُرى الاّ بهيئة ثائر
وان أمضي الهمّ الذي هو مقلقي بطيّ الفيافي او بخوض الدياجر
اما ترينّ الوجه مني شاحباً لكثرة ما عرضته للهواجر
ولست ابالي انني عادم الغنى اذا كان جدّى في العلى غير عاثر

فهذه أبيات استقام عمودها للشاعر فجاءت كفلق الصبح اشراقا وامتاعا ولكن الشاعر انتقل من مقدمته هذه الى الحديث عن لبنان واقامته بين اهله ، وكان انتقاله من حديث الى حديث في هذا المقام لبقاً وموفقا .. قال :

ذريني أزرْ في هضب لبنان اربعاً تعالت بحيث العزّ مرخى الضفائر

والشاعر في ذلك آخذ بذات الهدب الذي أخذ به الأقدمون من الشعراء ممن يربطون بين موضوع وموضوع بنكتة مقبولة أو مناسبة مألوفة ..

وما قاله في لبنان بعد هذا ليس فيه من الجودة شيء ، وقد يكون مما أجاد فيه بعض الاجادة قوله :

فأكرم بلبنان مقرّا لنابهٍ ومأوى لمنكود ومهداً لحائر
ألا انما لبنان في الارض عاهل تبوّأ عرشاً من جليل المآثر

وفي مثل هذا المقام حيث انشد الشاعر قصيدته في حفلة مقامه في زحلة لتكريمه وتكريم الريحاني معه سنة ١٩٢٣م كان على الشاعر ان يصنع العجائب في شعره ولكنه اكدى فيه ـ بعد ان اعطى قليلا ـ شرّ اكداء ..

ومن العجب ان يشكو الشاعر في اخريات أبياته قوماً هجوه في بيروت فقال :

ومن عجب ان الشويعر لامني ببيروت لوم الشاتم المتجاسر
ومن كان مثلي شاعراً لا تسوؤه مقاذعة جاءته من متشاعر

وتعاضل عنده القول في البيت التالي :

على انني من عاذريه وان يكن لي الحق في عذري له غير عاذر

وهو يريد ان يقول (لي الحق في عذري اذا كنت غير عاذر له) .. ولم يك من الملائم اللائق اقحام مثل هذا القيل في قصدة تلقى في حفل مقامٍ اكراماً له وتبجيلا لرفيقه الريحاني ..

ثم ختم قصيدته بقوله :

وكم في ربا لبنان من ذي فصاحة   مجيد بيوم الحفل قرع المنـــابر
ومن اهــل آداب كشارقة الضحى   ومن اهل علــم كالبحار الزواخر

وهما بيتان فيهما من المحمدة وحسن الأداء ما هو ملحوظ .

وارى ان الشاعر كان يعتزم ان يطيل في قصيدته ولـكنه أرتج عليه من جراء ما وقع له من مقاذعة قومٍ له من بعض شعراء بيروت يومئذ بحيث انكمشت قريحته هذا الانكماش المروّع ..(٥٧)

---

(٥٧) وقد كان ذلك بقصيدة نشرها الشاعر أحمد دمشقية في صحف بيروت بعنوان (البيروتيون ومعروف الرصافي) مطلعها :

(قل الحق واترك ذمّك العرب جانباً   لقــد قلت فيهــم ما يســرّ الاجانبا)

وقد ختمها بالبيت التالي :

(لقد سئت بيروتاً وللضيف حــرمة   لسـ انك فاحفظه اذ كنت خاطبـا)

٢٥) الفنون الجميلة

هذه القصيدة من ارقّ قصائده واسلسها ، ولقد وفق الشاعر في صياغتها توفيقا يذكر له بكثير من الاعجاب •

قال في مطلع القصيدة :

ان رمت عيشاً ناعمـــا ورقيقـا   فاسلك اليه من الفنون طريقـا

واجعل حياتك غضة بالشعر والتمـــثيل والتصـــوير والموســـيقى

تلك الفنــون المشتهاة هي التي   غصن الحياة بها يكون وريقـا

وهي التي تجلو النفوس فتمتلي   منهـا الوجوه تلألؤا وبريقـــا

وهي التي بمذاقهـــا ومشاقهـا   يمسي الغليظ من الطباع رقيقا

ومن بارع قوله :

تلك الفنون فطرْ الى سعةٍ بها   ان كنت تشكو في الحياة الضيقا

وقال في الغناء :

واترك مجادلة الذين توهمـوا   هزج الغنـــاء خلاعـة وفسـوقا

أفأنت أغلظ مهجـة من نوقهـم   فقد استحثّـوا بالحداء النوقا(٥٨)

وقال في المصوّر :

تأتيك ريشته بشـعر صامت   ولقد يفوق الشـاعر المنطيقا

(٥٨) اخذه من قول الشاعر :

اوما ترى الابل التي   هي اغلظ الحيوان طبعا
تصغي لاصوات الحداء   فتقطع الفلوات قطعـــا

وختم القصيدة بقوله :

ان الحياة على الكدورة لم تجد　　مثـــل الفنون لنفسها راووقـــا

واذا كان على القصيدة من مآخذ فهي ان الشاعر تحدث عن أمور شتى من الغناء والتمثيل والتصوير والشعر ، وليس يتسنى لشاعر ان يتوسع في الحديث عن هذه الفنون فناً فنّا في قصيدة واحدة .. فقد كان نصيب الشعر – كفنّ جميل – لا يعدو البيتين الاثنين .. وكان نصيب التمثيل لا يجاوز الخمسة أبيات ، وكذلك التصوير ، وقال في الغناء سبعة أبيات .. وصرف أربعة عشر بيتا في المقدمة ..

ولم تكن الروابط بين فصل وفصل محكمة متصلة وهذه نقاط لو عالجها الشاعر على غير هذا الوجه لترك من قصيدته هذه معلقة فنية رائعة ..

٢٦) الحياة الاجتماعية والتعاون

نظمت هذه القصيدة في سنة ١٩٢٨ وانشدت في الحفلة التي اقامتها جمعية حماية الاطفال بمناسبة تأسيسها وهي من قصائده السلسة الرقيقة ، غير ان معانيها ذات مستوى بسيط وقد جاءت فيها بعض الأساليب العامية ولم تخل من ركة واختلال ..

وليس فيها من الحكم الا البديهيات ، اما مطلع القصيدة فهو :

يعيش الناس في حال اجتماع　　فتحدث بينهم طرق انتفاع

وتكثر للتعاون والتفادي　　على الايام بينهم الدواعي

فالبيت الاول من البديهيات وكذلك الثاني .. غير ان هذا جاء محببا الى السمع لجزالة ألفاظه وحسن ادائه .. ثم قال :

ولو ساروا على طرق انفراد　　لما كانوا سوى همج رعاع

هذا البيت زائد في القصيدة وطارىء على نسقها ، وصناعة صدره ضعيفة واهنة .. ومجاوزة حدود المبالغة في عجزه واضحة ..

ثم قال :

رأيت الناس كالبنيان يسمو　　بأحجار تسيّع بالسياع

فيمسك بعضه بعضاً فيقوى　　ويمنع جانبيه من التداعي

لم يكن هذا السياع الا ّ من صنع القافية ، والبيت الاول لم يحصل من التوفيق على أي ّ نصيب •• اما البيت الذي تبعه فجيّد رصين حسن المعنى •

ثم قال :

كذاك الناس من عجم وعرب　　　جميعـــا بين مرعـــي وراع
قـــد اشتبكت مصالحهم فكل　　　لـكل ّ في مجال العيش ســاع

وهما بيتان وان كانا قد تعلق المعنى بينهما بحيث لا يتم ّ الا بهما جميعاً فقد جاءا على مستوى حسن من الاداء والتعبير •• ثم قال :

ولولا ســـعي بعضـــهم لبعض　　　لعاشوا عيش عادية الســـباع

وهذا بيت زائد •• وامر الزيادة فيه كأمر البيت الزائد في صدر القصيدة اذ قال حين ذاك (ولو ساروا) وهنا يقول (ولولا سعي) فتلك (اللو) وهذه (اللولا) ليست الا ّ خرقا في الـكلام اذ ليس ثمة ما يبرر وضع هذه الاحتمالات والاشتراطات ضمن معان تتسلسل حلقاتها تسلسلا متناسقا ••

كما ان عبارة (بعضهم لبعض) سبق لها ان جاءت قبل بيتين لا أكثر في قوله (فيمسك بعضـه بعضا) وتكرار مثـل هـذه العبارات بعينها ليس من الحذق في شيء ••

ثم قال :

اذا رب ّ الحسام ثنـاه عجز　　　تدارك عجـــزه رب اليراع
وان قلم الأديب عـراه زيغ　　　تلافى زيغـه سيف الشجاع
وانصفرت يد من ريع زرع　　　اعيـــد ثراؤها بيـــد صناع

البيت الاول من هذه الابيات الثلاثة جميل جدا •• اما البيت الثاني فضعيف الأداء بعيد المعنى بحيث يكاد ينعدم مفهومه بالمرة ، لأن نسبة الزيغ الى قلم الاديب غير واضحة القصد ، وتلافي سيف الشجاع لهذا الزيغ مجهول الطريقة •• اما البيت الثالث فظاهر الجودة رائق المعنى ••

ثم قال :

بذاك قضى اجتماع الناس لمـــا　　ان اعتصموا بحبـــل الاجتماع
يساند بعضهم في العيش بعضـاً　　مســـاندة ارتفـــاق وانتفـــاع
فتعلـــو في ديارهـــم المبـــاني　　وتخصـــب في بلادهم المـــراعي
وتستعلي الحياة بهـــم فتمسي　　من العيش الرغيد على يفـــاع

هذه أبيات حسنة ظاهر فيها الانسجام ودقة التقسيم (وكذلك اعاد لفظة البعض في قوله ، يساند بعضهم في العيش بعضا) فجاء هذا التعبير عنده للمرة الثالثة ..

ثم جاء بمعنى لم يوفق للتجويد فيه فقال :

ولم يصلح فساد الناس الا　　بمـــال من مكاسبهم مشاع

ولو استعمل النفي بلفظ الاستقبال كأن يقول (وليس يقوم امر الناس) ونحو ذلك لـكان أدق من حيث التعبير عن معنى يتلجلج في ضميره ، فان (لم) انما ترد لقلب المستقبل من الافعال الى الماضوية . ولم يوفق الشاعر في تحديد المعنى الذي أراده من المال المشاع عند قوله (بمال من مكاسبهم مشاع) كما ان حصر طرايق اصلاح الفساد في الناس بهذا المال المشاع لا يؤيده منطق ، فان الفساد في الناس ضروب ولـكل ضرب أسـبابه وعلى اختلاف هذه الاسباب تختلف العلاجات ..

وقد كان لمثل هذا القول رنة في يوم من أيام الدهر حين انتصب اهل هذا المذهب في مناصبهم فعاثوا في الارض فساداً لا يصلح منه شيوع المال دون ان يزيد من فساده ..

وكان قد قال قبل ذلك :

وما مدنيـــة الأقوام الا　　تعاونهم على غر المساعي

وهذا تعريف للمدنية قاصر كل القصور .. اذ ان المدنية ظواهر اجتماعية ذات تعريف غير هذا التعريف . ونحن نجد سكان الارياف يتقنون امر التعاون

فيما بينهم على ما سماه بغرّ المساعي ولكنهم لا يملكون ما يسمى بالمدنية ..
ومما جاء بديع الصياغة قوله :

والاّ فالشقاء لهم حليف — وما حمل الشقاء بمستطاع

وكان هذا التعقيب والتذييل رائعاً في مثل مقامه .. وجاءت بعد ذلك أبيات يلوح عليها الاعياء والضعف والركاكة ، كقوله :

فقاموا بالذي يعلي ويسلي — يصونون الضعاف من الضياع
وما هذي الحياة سوى صراع — يتمّ بفوز مفتول الذراع
وما سادت شعوب الخلق الاّ — بتهيئة البنين لذا الصراع

فالضعف والعامية بارزة في قوله ، بروز عظام الكتف في جلد النحيف ، ولا سيما قوله (مفتول الذراع) وقوله (شعوب الخلق) فانها تعابير عامية ذات فهاهة ظاهرة ..
وقوله :

ولا تزكو المناشيء في أناس — يرون الطفل من سقط المتاع
وما هاج العواطف في فؤاد — كحال الطفل في زمن الرضاع

في هذين البيتين أحكام جانبها التوفيق ، وأوصاف ليس لها مفهوم ، فليس في الناس من يرى الطفل من سقط المتاع .. اما حصر هياج العواطف في الأفئدة حصراً في حال زمن الرضاع فليست وراءه فكرة ذات معنى سليم ..

فان الطفل في جميع أحواله وأدواره يهيج العواطف في الأفئدة ، لاسيما اذا كان على حال من العوز والضعف وفقد المعيل ، وفوق ان الشاعر جاء بالمعنى المضطرب فانه فرّط في عرض الامر على الوجه الذي يستدر العطف على المشروع الخيري الذي نظمت فيه القصيدة .. فقد كان مرجوّاً فيه ان يرعى هذه الناحية بأقصى ما يملك من قوة التعبير والبيان ..
ومما يلاحظ عليه من الخطأ والتقصير قوله (سعوا لحماية الاطفال منّا) ولو قال (فينا) لكان ذلك هو الواقع ، وقوله (وتمتار المطاعم للجياع) مثل

ذلك في التقصير والخطأ ، اذ ان الجياع ينبغي ان تقام لهم المعامل يعملون فيها فيتكسبون ، وان يموّلوا بالمال لاستغلاله في الاسواق والبيوع •• اما امتيار المطاعم لهم فضرب من الفساد قبل ان يكون ضربا من الاصلاح ••

وختم القصيدة بالبيت التالي :

فشكرا للكرام وكل شكر   لمن عضدوا الكرام بمدّ باع

هذا البيت بحاجة الى شيء من التصحيح وأول ذلك حذف قوله (وكل شكر) والاكتفاء بكلمة الشكر التي اوردها في أول البيت ، على ان يتقن توزيعها على أصحاب المشروع ومن سعى في معاضدتهم ••

٢٧) في سبيل الوطنية

هذه القصيدة ذات معانجديدة ، وقد جاء نصيب الشاعر من الاجادة فيها حسن السهم ، غير أن ألفاظاً وتعابير عامية دّبت اليها •• ومن ذلك قوله (وتقوم بالعمل المفيد) وقوله (ولو انه من احسن الموجود) وجاءت فيها كذلك أبيات ضعيفة الأداء والتأليف كقوله :

الغرب يكسوهم ملابس هم بها   يعرون من مال لهـــم ونقـــود

ليس في هذا البيت من الحكمة شيء مما يدقّ أو يجلّ ، وانما هو قول مجانب لطبيعة الحياة ونظامها العام فان الانسان انما ينفق ماله لاكساء نفسه ـ مثلا ـ فاذا تمّ له ذلك فقد انتفع من ماله على وجه حسن •• فلا يقال في مثل هذا انه حين اكتسى بثوب عري من مال ونقود ••

والشيء الذي يقال في هذا المقام ان الـكساوى التي يرتديها أهل البلد لو كانت من صناعة ايديهم للبثت أموالهم دُولة بينهم فلا تخرج من ايديهم الى ايدي الأجانب ••

ومما جاء ركيك العبارة قوله :

هـــذى سفائنهم تروح وتغتدى   ببضـــائع لم تحص بالتعـــديد

فالاحصاء بالتعديد ظاهر الركاكة ••

واما قوله :

فكأنما هي لامتصاص دمائنـــا   بعض المحاجم او كبعض الدود

فان التمثيل فيه متنافر من حيث يريد الشاعر ان يذمّ فجاء بما لا يصلح ان يكون صورة للذم فان المحاجم أو الدود الطبي الذي يستعمل لامتصاص الدمـاء من بعض القرح في الجسم انما يعدّ في العلاجات الطبية المعروفة التي تصحّ بها الأجسام ، فتشبيه ما ينطوي على دواعي الأذى بما ينطوي على دواعي المنفعة انما هو تشبيه مغلوط .

ومن الابيات الحسنة المعاني قوله في (فخري البارودي) اذ كان قد ألف شركة للمنسوجات الوطنية في دمشق :

وابى سوى غرّ المساعي اذ سعى   متشبثاً منهـــا بكـــل مفيـــد
وبنى له بدمشق مجـــداً طارفا   من بعد مجد في دمشق تليـــد
نفـــع البـــلاد بمـــاله وبسعيه   وبحسن رأي في الأمور سديد

وفي هذه الابيات قوة في التأليف ملحوظة ..

ثم قال (بعد أبيات ليست من الجودة في شيء رغبنا عن التشبهير بها) :

تغنى البـــلاد بسعيها عن غيرها   وتعيد عهـــد ثرائها المفقـــود
حتى تكون عن الاجانب في غنى   وتعيش غير اســـيرة التقليـــد
اوما ترى اهـــل البلاد تقيدوا   للغـــرب من حاجاتهم بقيـــود

وقال :

من كان محلول العرى في ماله   وجب انحـــلال لوائه المعقـود
يا قومنـــا انتم كغارس كرمـة   وسواه منهـــا قاطف العنقـود
كم تزرعون بأرضكم والغيركم   مما زرعتم حبّ كل حصـــيد
فتبصّروا يا قـوم في احوالـكم   وتنبهـــوا من غفلة ورقـــود

وهذه أبيات طيبة النَفَس سليمة المنحى حسنة الآداء ...

وجاء من أبيات القصيدة ما فيه التخيل المستملح وهو قوله :

وتراه يسلخهم بمصنوعاته سلخ الشياه فهم بغير جلود

اما قوله :

ان السيادة تستدير مع الغنى في حالتي عدم له ووجود
لا يستقلّ بسيفه الشعب الذي لا يستقلّ بنقده المنقود

فانه قول ذو مستوى عال من الجودة والتوفيق في لفظه وفي معناه ...

٢٨) دار التفيض

من قصائده الرقيقة السلسة ويرى للجودة فيها قسط ظاهر ، وقد استوعبت من الحكم والفخر ودقة الوصف ما تعدّ به في القطع الشعرية النادرة لاسيما اذا حذفت منها بعض الابيات الركيكة وصححت فيها بعض الالفاظ العامية ••

فمن أبياتها الرائقة قول الشاعر :

هل شددنا الرحال في الارض للأسـفار الاّ لنكتـب الأسـفارا
كم طوينا من قبل في طلب العلم فجاجاً وكم شققنا بحارا
واقتحمنا لأجلـه كل هـول وركبنـا لأجلـه الأخطـارا
انما تصغر الخطوب لدى القوم اذا كانت النفوس كبارا[٥٩]
سل بنا العدل في جميع الرعايا هـل عمرنا بغيره الأمصـارا
سل بنـا هـذه الدماء الدوامي هـل غسلنا بغيرهنّ العـارا

ومن التخيّلات الراقية التي سنحت في القصيدة قوله :

ربّ نفس كدرهم قد جلاها العلم حتى اعادها دينارا

على أن الدرهم رغم جلوّه لا ترتفع قيمته الى قيمة الدينار بحال ما •
ومن المعاني الموفقة ما جاء في قوله ـ يصف المدارس ـ :
تمنح العاجـز الضعيف اقتدارا موشكا ان يغـالب الأقـدارا

---

(٥٩) هذا البيت يناهض قول المتنبي :
واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادهـا الاجسام

اما ما جاء من التخيلات الشاحبة الساذجة فان مثل ذلك يرى في قوله :

يدخل الناشئون فيها من الناس نحاساً ويخرجون نضارا

ومن الألفاظ والتعابير العامية في شعره قوله (وُلْدُ قومٍ) في صدر بيت له (هي دار ينتابها ولد قوم) .

ومما يحتاج الى شيء من التصحيح والمعالجة قوله :

تتغذى بها النفوس غذاءا هو ينمي العقول والافكارا

وذلك بحذف (هو) .. وكذلك قوله :

فعليكم فيها بتحصيل علم يرغد العيش يسعد الأعمارا

وذلك بتبديل عجز البيت والتزام حرف العطف دون حذفه ..

اما قوله :

ما قصدنا بسلّنا السيف الا ّ ردّ ليل الجهل المميت نهارا

فليس للفظة (المميت) هنا أيّ اثر في المعنى لأن للفظة (الجهل) من طبيعتها ما يكفي لاستحضار صورة قبحها في الافهام ..

والمهمّ في هذا المقام هو الحديث عن ليل الجهل يردّ نهارا يستضاء به ، وهكذا يكون وصف الجهل بما وصف به قيداً ليس مما يستدعيه الاتفاق ولا الاحتراز ..

٢٩) المدارس ونهجها

من أروع قصائده وأكثرها امتاعا ، فقد استوفى فيها ما استوفى من تخير الألفاظ الجزلة وحسن الأداء والصياغة ، وقد ألقاها في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٩ عند وضع الحجر الاساسي لبناية التفيض الاهلية •

قال الشاعر :

ابنوا المدارس واستقصوا بها الأملا ... حتى نطاول في بنيانها زحلا
جودوا عليها بما درّت مكاسبكم ... وقابلوا باحتقار كلّ من بخلا
ان كان للجهل في أحوالنا علل ... فالعلم كالطبّ يشفي تلكم العللا
سيروا الى العلم فيها سير معتزم ... ثم اركبوا الليل في تحصيله جملا
لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم ... بل علموا النشء علما ينتج العملا[٦٠]
هذي مدارسكم شروى مزارعكم ... فأنبتوا في ثراها ما علا وغلا
لا تتركوا الشوك ينمو في منابتها ... اعني بذلكم الأهواء والنحلا[٦١]
واسسوها على الاعمال قائمة ... ممهدين الى المحيا بها سبلا[٦٢]

---

(٦٠) في هذا البيت شيء من تعاضل اللفظ وغموض الفكرة ، فقوله (لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم) ليس هو مراد الشاعر ولكنه لم يحسن التعبير •

(٦١) لو استطاع ان يستغني عن لفظة (اعني) لبرز البيت أكثر جزالة واثقل وزنا •

(٦٢) رغم فصاحة لفظة (المحيا) فانها غير موفقة في موقعها هذا •

يلقى بها النشء للأعمال مختبرا ... وللطباع من الأدران مغتسلا

ثم قال :

فتنبت العالم الفنّان مخترعا ... وتنبت الفارس المغوار والبطلا[٦٣]

وتنبت الحارث الفلاح مزدرعا ... وتنبت المدره المنطيق مرتجلا[٦٤]

واسقوا المتلمذ فيها خمر مكرمة ... عن خمرة الكرم تمسي عنده بدلا[٦٥]

حتى اذا ما غدا خريجها طربا ... من عزّة النفس خيل الشارب الثملا

ربوا البنين مع التعليم تربية ... يمسي بها ناقص الأخلاق مكتملا

وثقفوهم بتدريب وتبصرة ... ثقافة تجعل المعوجّ معتدلا

وجاء الشاعر بعد هذا بفلسفة في العقاب خاصة ، فنهى عن معاقبة التلاميذ ودعا الى انشاء ناشئهم مجبولاً على حبّ الفضيلة :

بحيث يمسي اذا شانته شائنة ... من فعله احمَرَّ منها وجهه خجلا

من يترك الشرّ خوفاً من معاقبة ... فليس يحسب ذا فضل وان فضلا

فجيّشوا جيش علم من شبيبتنا ... عرمرماً تضرب الدنيا به مثلا[٦٦]

ان قام للحرث ردّ الارض ممرعة ... او قام للحرب دكّ السهل والجبلا

وان غزا مستظلاً تحت رايته ... هزّ البلاد واحيا الاعصر الأولا

انا لمن امة في عهد نهضتها ... بالعلم والسيف قبلاً انشأت دولا

هذا هو العلم لا ما تدأبون به ... مما تكون به عقباكم الفشلا

ماذا تقولون في نقدي مذاهبكم ... فِقد كفيتكم التفصيل والجملا

---

(٦٣) لا مكان للفظة مخترعا هنا ، وقد ظهرت وكأنها حجر عثرة في الكلام ..

(٦٤) لا قيمة لقوله (مزدرعا) .

(٦٥) هذا البيت في حاجة الى التصحيح فيكون على هذا الوجه :

(واسقوا التلاميذ فيها خمر مكرمة ... عن خمرة الكرم تمسي عندهم بدلا)

بدلا من المتلمذ التي هي لفظة غير شعرية فوق كونها غير مستعملة في مصطلحات المدارس ، بالاضافة الى ما في ايراد اللفظة مجموعةً من شمول المعنى واتساعه .

(٦٦) تعريف المثل هنا أجود من تنكيره .

وأيّ نفـع لمـن يأتي مدارسـكم | ان كـان يخرج منها مثلما دخـلا
فأجمعوا الرأي فيمـا تعملون بـه | ثم اعملوا بنشـاط ينكـر المللا[٦٧]
ثم انهجوا في بلاد العرب اجمعهـا | نهجـاً على وحـدة التعليم مشتملا
حتى اذا ما انتدبنا العـرب قاطبـة | كنّـا كأنّا انتدبنا واحـداً رجـلا

فما يرى في هذه القصيدة الاّ قوة العبارة وحسن النسق ودقة النقد وإحكام عرى الـكلام وتحاشي العامية فهي قصيدة موفقة رائعة ..

---

(٦٧) عبارة (ينكر المللا) جافة وغير شعرية ..

٣٠) العلم والاجازة

هذه القصيدة من طرائف الشعر وقد بلغ فيها الشاعر مبلغاً عظيما من الابداع والاجادة رغم ان الرويّ يقوم على ألفاظ نادرة ليس من اليسير استيعابها في قصيدة ذات درجة من النجاح عالية كالذي وقع للشاعر في قصيدته هذه ، ومن طريف أبياتها قوله :

حبّذا العلم يكسب المرء عـــزّاً ويقيـــه في عيشـــه إعـوازه[٦٨]

في نفـــوس الذين لم يرزقـــوه حســـرات وفي القلوب حـــزازة

انمـــا العلم من معاجيـــز عيسى كم جهول أحياه وهـــو جنـــازة

صاحب العلم يركب المجد طِرْفاً جاعـــلاً غـــاية العلى مهمـــازه

ومنها قوله :

ان عقـــل الفتى ليصـــبح بالعلـــم رزينـــاً بكفّ من قـــد رازه

والطباع العرجاء في كل شخص تقتضي من ثقـــافة عكّـــازة

ألغز الدهر في الحقائق لـكن أفهـــم العلـــم أهله ألغـــازه

واذا الامر قـــد غشته الغواشي ضـــمن العلـــم للورى ابرازه

(٦٨) لا يطّرد هذا المعنى دائماً فكثيراً ما هلك العلماء خصاصة واملاقا ..

ومنها قوله :

قد عرفنا حقيقة القول فيه   وتركنا للغافلين مجازه[٦٩]

وبحثنا عن جوهر الحقّ فيه   فبلغنا دفينه وركازه[٧٠]

ومنها قوله :

قلم المرء في بلوغ المعالي   فائق في وغى الحروب جرازه[٧١]

ومنها قوله (في صاحب العلم) :

يبصر الخطب من هواديه حتى   ينتهي فيه مبصراً أعجازه

ومن المآخذ على القصيدة ما جاء من أبياتها ركيك الأداء ضئيل المعنى كقوله :

صاحب العلم في العلوم امير   قد غدا كل حادث جلوازه

ومنها ما جاء فيه التخيل الساذج السخيف كقوله :

واذا أنشط الجبان لحرب   صال يرغو حماسة وحمازة

واذا قيل ان الشاعر يعني بهذه الحرب حرب الجدل والمناظرة فانّ ذلك يوجب ان يكون الخطأ الناشيء من هذا التعليل اكثر قبحاً وسماجة من ايّ خطأ آخر ، اذ ليس من أدب القول ان يطلق على الحبر العالم لفظ (الجبان) .

اما قوله :

واذا العلم فاه يوماً بوعد   ذهب اليأس آملا انجازه

ففيه قصور ظاهر عن تحديد المعنى الذي يتلجلج في نفس الشاعر ..

وقوله :

واذا الملك لم يؤيده علم   فارتقب سلبه ورَجِّ ابتزازه

---

(٦٩) في هذا الاستعمال مأخذ ظاهر على الشاعر فهو يضع المجاز في غير موضعه ويعرّفه بغير تعريفه ، اذ بجعله في معنى الباطل .. والمجاز هو ذات الحقيقة وليس شيئا غيرها .. ولو ان الشاعر استعمل غير لفظة (الغافلين) لهان الامر بعض الشيء .

اما قوله (قد عرفنا حقيقة القوم فيه) فلو قال (منه) لكان اصوب .

(٧٠) لو قال (فأصبنا) لكان أحسن من قوله (فبلغنا) .

(٧١) الجراز : السيف .

اذا كان قد أراد بالملك هنا الدولة والسلطان فانه يحتاج الى تصحيح كأن يقول (فارتقب سلب عرشه وابتزازه) وان لم يكن قد أراد ذلك فقوله مستقيم ..

ومن التعابير التي تظهر عليها المسحة العامية قوله (فلهذا نعم لهذا) ومن الألفاظ الفقهية لفظة (تقتضي) و (الشك واليقين) و (شرحه بقياس) ونحو ذلك ..

ومما لم يطّرد فيه الحكم من قوله ما أثبته في البيت التالي :

هو صيد ولم يعد يجعل المصطاد منه غير التجارب بازه

فان الاستعانة بالباز ليس مما يطرد في كل صيد يتصيده الصائد ...

٣١) العلـم

القصيدة التي بين ايدينا من المنسرح وهو من بحور الشعر الفريدة التي يجيء الكلام فيها مترنحاً كأنه النغم تتغنى به الحنجرة البارعة الجميلة •• ومبعث الجمال والروعة في قصيدة الشاعر هذه ليس مما يمتّ الى البحر وحده بل ان هناك من سلاسة القول وبلاغة التأليف وحسن المعاني وفصاحة الكلم ما كانت دواعي للتوفيق في هذه القصيدة •• وهي من أجمل ما قيل في العلم من القريض ••

وفيما يلي نصّها :

لا يبلغ المـــرء منتهى أربـــه	الاّ بعلـمٍ يجـــدّ في طلبـــه
فائوِ الى ظلـــه تعش رغـــدا	عيشاً امينا من ســـوء منقلبـــه
واتعب لـــه تسترح بـــه ابداً	فراحـة المـرء من جنى تعبـه
ولـــذة العلـــم من تذوّقهـــا	اضربَ عن شهده وعن ضربه
وان للعلـــم في العـــلا فلـكا	كـــل المعالي تدور في قطبـــه
فاسع اليه بعـــزمٍ ذي جلـد	مصمم الرأي غـــير مضطـربه
وابذل لـه ما ملـكت من نشب	فالعلم ابقى للمـــرء من نشـبه
لا تتكـل بعـــده على نســـب	فالعلم يغني النسيب عـــن نسبه
واطّرح المجـد غـــير طـارفه	واجتنب الفخر غـــير مكتسَبه
ما ابعـد الخـير عن فتى كسل	يسرح في لهـــوه وفي لعبـــه

كم رفع العلـــم بيت ذي ضعة فقصّر الناس عـن مدى حسبه
حتى تمنى اعلى الـكواكب لو يحـل بيتـا يكـون في صـقبه
وودّت الشمس في اشعتهـــا لو كنّ يحسبن من قوى طنبه[٧٢]
وان يســدّ جاهــل فسؤدده بعد قليــل يفضي الى عطبــه
يرى امرؤ مجـد جاهـل عجبا لو صحّ عقلاً لكفّ عن عجبه
كم كذب الدهــر في فعــائله وسـؤدد الجاهلين من كـذبه
العلم فيض تحيـا القلوب بــه فامتَحْ بسجل الحياة من قُلُبه
كل فخــار اســبابه انقطعت الاّ فخــار يكــون من سببه
للعلـم وجــه بالحسن منتقب وســافر منه مثــل منتقبــه
ما حسن وجــه الفتى بمفخرة ان لم يؤيد بالحسن من أدبـه
ما أقــدر العلم ان صــيحته يمعن منهــا الخميس في هربه[٧٣]
من تخــذ العلم عــدّة لوغى أغناه عن درعــه وعن يلبــه
فانتدب العلم للخطوب فمــا خاب لعمرى رجــاء منتــدبه
العلـــم كالنــور بل أفضّله ما افقــر النور ان يشبّه بــه
سقياً ورعيــاً لروض معهــده وطالبيــه وقــارئي كتبــه
ما النـــاس الاّ روّاد نجعتــه وناشــروه وكاشفوا حجبــه
ومن غــدا هــاديا يعلّمــه وراح يشفي الجهول من وصبه
ومعهــد أسســت قواعــده في بلد شفّني هــوى عــربه
شــيّده للعلــوم مدرســة من كان نشــر العلوم من دأبه
قــد غرّد المجد في جوانبــه فاهتزّ عطف الفخار من طربه
واصبح العلــم فيــه مزدهرا بكلّ ذاكي الذكــاء ملتهبــه
بمثــله في البــلاد قاطبــة يشفى عقور الزمان من كلبه
اضحت فلسطين منــه ممرعة مذ جادها بالغــزير من سحبه

---

(٧٢) ليس للفظة (القوى) هنا من معنى اصيل في الـكلام ٠

(٧٣) الخميس هو الجيش العرمرم ٠

تاهت بـــه ايليـــاء فاخـــرة على دمشق الشآم او حلبـــه
شكراً لبانيـــه ما أقـــام بـــه شـــبّانه القاطنـــون في قبيـــه

ان هذه القصيدة نظمت موجهة الى (شبان الـكلية الانكليزية في القدس) ولعلّ جوّ الـكلية بما يمرح فيه من شباب نضر المحيّا ، مضافاً الى ذلك جوّ القدس الملائكي الجميل ، قد عاون الشاعر على ان يرتفع برائعته هذه الى مثل هذا المستوى الرفيع ..

ومما تمتاز به القصيدة ذلك الاسترسال الهادىء الرزين الذي تبعه انسجام الـكلام وتناسق المعاني والعدد العديد من الحكم والامثال الشوارد التي منها قوله :

وان يســـد جاهل فسؤدده بعد قليل يفضي الى عطبـــه

ومنها قوله :

كم كذب الدهر في فعائله وسؤدد الجاهلين من كذبه

وقوله :

ما حسن وجه الفتى بمفخرة ان لم يؤيد بالحسن من أدبه

وقوله :

من تخذ العلـــم عدّة لوغى أغناه عن درعه وعن يلبـــه

٣٢) دار الايتام

ـ مدرسة شنلّر في القدس ـ

ان هذه القصيدة من أروع الشعر في تصوير العواطف الوجدانية المشبوبة بالبر والرفق والانسانية ••

وما احسب ان شاعراً استطاع ان يحمد شعائر الخير ويطري سدنة المعروف بمثل ما استطاع الرصافي في هذه القصيدة الفخمة • قال الشاعر :

لدار شِنَلَّرٍ في القدس فضل ... بــه تنسى تيتمهـا اليتـامى

ويحمده من الفقـراء طفـل ... يذمّ لفقـد والده الحمـاما

بهـا يجد اليتيم لـه مقـاما ... اذا ما الدهر أفقده المقـاما[٧٤]

يرى عن أمّـه أمّاً عطـوفاً ... عليه وعن أبيـه أباً هماما[٧٥]

تميت نهارهـا فيـه ليحيـا ... وتحيي الليل فيـه لـكي يناما

فتشرب نفسـه حبّ المعـالي ... وتطعـم جسمه منهـا الطعاما

وترأم كلّ من فجعـوا بيتـم ... صغارا قبل ما بلغوا الفطاما[٧٦]

---

(٧٤) لو قال (احوجه) فانها ادقّ في التعبير من قوله (افقده) لأن الافقاد انصب على الأب ، اما الاحواج فانه ينصب على المقام ونحوه ••

(٧٥) لفظة (همام) غير ملائمة للموضوع •

(٧٦) هذا البيت لو صحح على الوجه التالي لـكان أمتن تركيبا واشرق بيانا ، فانه بصيغته تلك ظاهر الركاكة :

(وترأم كلّ مفجوع بيتم ... صغيراً قبل مبلغه الفطاما)

ويدخلها يتيم القوم طفلا فتخرجه لهم يفعاً غلاما
عليماً بالحياة يسير فيها على علم فيخترق الزحاما[77]
وقد لبس الفضيلة وارتداها وشد عليه من حزم حزاما
وقفت بها أعاطيها التحايا واستسقي لساكنها الغماما[78]
واشكر فضلها والشكر عجز اذا هو لم يكن الا كلاما
أدار شنلّر لا زلت مأوى لأبناء الأرامل والأيامى
أثابك مالك الملكوت عنهم مثوبة كل من صلى وصاما
ضمنت لهم رغيد العيش حتى اخذت على الزمان لهم ذماما
وجار الدهر معتدياً عليهم فكنت لهم من الدهر انتقاما
اذا ما أبكت الدنيا يتيما اعدت بكاءه منه ابتساما
لقد هوّنت رزء اليتم حتى غفرنا للزمان بك الأثاما
وكاد اذا رأى مغناك راء يودّ بأن يكون من اليتامى
ليمكث فيك مغتبطا سعيدا ويعرف كيف يبتدر المراما
وما فقد المسيح الناس لمّا اعدت لهم خلائقه الكراما
فنبت عن المسيح وقمت حتى لقد شكر المسيح لك القياما[79]

---

(٧٧) الاتيان بلفظة الزحام مطلقةً هذا الاطلاق وغير مضافة الى الايام أو الحوادث أو الحياة أدىّ الى تعريض الكلام لقصور ظاهر في معناه ..

(٧٨) هذا البيت بحاجة الى التصحيح وذلك بحذف ما يتصل باستسقاء الغمام فان شيئا من هذا لا يتناسب مع طبيعة الموضوع ، فلو انه كان يترحم على روح منشئها ومؤسسها لجاز له ان يورد استسقاء الغمام بلفظ (واستسقي لبانيها الغماما) أو (لمنشئها) كأنه يستمطر الغمام على قبره ..

ولكنه اذ لم يقل هذا ولم يرده فان استسقاء الغمام لا يقتضيه المقام .. ويمكن تصحيح البيت على الوجه التالي ،

(وقفت بها أعاطيها التهاني وأهديها التحية والسلاما)

فان المقام يقتضيه دون غيره ..

(٧٩) ليس لهذا البيت معنى ظاهر . وهو يناقض ما جاء من قوله بعد ابيات اذ يقول :

وجاذبت الكرامة خير قبر به دفن المسيح ومنه قاما

فاذا كان المسيح قد قام من قبره بنفسه فأين تقع تلك النيابة عنه في القيام ؟!.

ولا عجب فقد جددت منه | عواطف كان عمّ بها الأناما
شمخت على ربا القدس اعتلاء | فكنت لهنّ من شرف وساما
ولحت بأفقها بدراً منيرا | جلا من ليل أبؤسها الظلاما
ألا ان النجوم بشعرييها | لتحسد من مرابعك الرغاما
هزرت الطور فهو يكاد يمشي | اليك على تقدّسه احتراما
وجاذبت الكرامة خير قبر | به دفن المسيح ومنه قاما
تباهي القدس مكة فيك حتى | تفاخر فيك مشعرها الحراما
فلا برحت ربوعك عامرات | نسلّ على الشقاء بها حساما

وهذا نفس عبق في الشعر وكذلك جاء في القصيدة ما تؤاخذ عليه من هنات يسيرة ، منها تكرار (حتى) في قوله (ضمنت لهم رغيد العيش حتى) و (لقد هوّنت رزء اليتم حتى) و (ونبت عن المسيح وقمت حتى) و (تباهي القدس مكة فيك حتى) ونحو ذلك مما اشرنا اليه في الحواشي ..

على ان القصيدة دون سابقتها التي قالها في دار شنلّر بمدى عريض ..

٣٣) الفقر والسقام

من قصائده الشائعة •• ولـكن القصيدة من ناحية تأليفها وتركيبها ليست بشيء فهي أكثر قصائده ركة وخللا ، واذا كانت قد وردت فيها أبيات سليمة فهي قليلة جدا ••

ومن ركيك تعابيره وتافه معانيه فيها قوله :

معْ اخيهـا تعيش عنـــد اخيها ⠀⠀ مثله في الطعام أو في الشــراب

وقوله :

منفقا عنـــد ذاك بعض دراهم ⠀⠀ ربحتها من غزلها الأخت فاطم

وقوله (موثقا من سقامه بالأداهم) وقوله (وهي قلبها قد ريعـا) وقوله (فافتحي انني انا في الباب) وقوله (من صعاليك اهل ذاك الجناب) وقوله :

ثم سارت مدهوشة ثم طـــاحت ⠀⠀ ثم قامت ترنو لـــه ثم راحـــت

ومن تنطعه في الالفاظ قوله (كهربائية سرت في السحاب) • ومن تشبيهاته غير الموفقة قوله في وصف دموع المريض (كشهاب ينقضّ اثر شهاب) •

اما ما جوّده من المعاني وأحكمه من العبارات فمنه قوله (اذ تعزّيه وهو لا يتعزّى) وقوله (صفعته فمال كفّ الخراب) وقوله (ذا هزيم يمجّ في الاذن وقرا) • وقوله :

رمقت فاطمـــا بطرف كليـــل ⠀⠀ فيه حمل على العـــزاء الجميل

وقوله :

رب أدرك باللطف منك شقيقي وامنع الغيث ربّ عن تعويقي

ومر البرق أن يضيىء طريقي

وقوله :

وقفوا موقفا به الفقر ألقي منه ثقلاً به المعيشة تشقى

وقوله :

فترى نعشه الغداة استقلّ نعش من كان في الحياة مقلاّ

وقوله :

ان بدا اليوم فيك حزن فاني انا للحزن دائما ذو انتساب

وقوله :

ان ليلي ولست من راقديه كلما جاءني وذكّرنيه

قلت والدمع قائل لي ايه يا فقيدا اعاتب الموت فيه

ببكائي وهل يفيد بكائي

وقوله :

ان هذا هو الذي قد وعدنا فأبينوا من الذي قد لحدنا

وقوله :

رب ان العباد أضعف ان لا يجدوا منك رب عفواً وفضلا

واذا علمنا ان هذه القصيدة مؤلفة من واحد وخمسين مقطعا كل منها يتقوم من خمسة اشطر ـ يكون مجموعها ٢٥٥ شطراً ـ ادركنا ان هذه الشطور الضئيلة المتخيرة منها ليست بالامر المشرف لقصيدة طويلة عريضة كهذه القصيدة العامية الجرداء ..

٣٤) تنبيه النيام

من قصائده المعروفة بالجزالة والمتانة بالاضافة الى ما فيها من رصيد حسن في المعاني والحكم •

والمآخذ عليها تكاد تكون من ضرب واحد هو انتهاجه التحشيات الضحلة في فريق من أبيات شعره ، ومن ذلك (والهفتا) في قوله :

وقد مرضت ارواحنا في انتظارها   فما ضرّها ـ والهفتا ـ لو تعودها

ومن ذلك (يا للخسار) في قوله :

قد استحوذت ـ يا للخسار ـ عليكم   شياطين انس صال فيكم مريدهـا

ومنها قوله (لعشر) في البيت التالي :

وما ثلّة قـد اهملتها رعاتهـا   بمأسدة جاعت ـ لعشر ـ اسودها

وهو اسمج ما سمع من حشو في الشعر •• فقد أراد الشاعر بهذا ان الأسود مرت عليها عشر ليال وهي جائعة ، وهذا الضرب من تعداد الايام ظاهر السخف وليس هناك ما يدعو اليه من سبب غير استقامة الوزن في الشطر ••

وقوله (لو علمتم) في هذا البيت :

ولولا اتحاد العنصرين لمـا غـدا   من النار يذكو ـ لو علمتم ـ وقودها

ومن الابيات الموفقة في القصيدة قوله :

سقى الله ارضاً أمحلت من امانها   وقد كان رواد الامـان ترودها
جرى الجور منها في بلاد وسيعة   فضاقت على الاحرار ذرعاً حدودها

ومن المآخذ على الشاعر ما جاء من المبالغة وخطأ التسمية في قوله :

عجبت لقوم يخضعون لدولة　　يسوسهم بالموبقات عميدهـا

فان لفظة عميد ليست اصطلاحا في تسمية رئيس تلك الدولة انما هو السلطان •• ورعاية المصطلح أمر أساسي في ذكر الألقاب ولاسيما ما يتعلق منها برؤساء الدول والحكومات •• والسياسة بالموبقات كلام فارغ وانما هو محض مبالغة غير موفقة •

واما قوله :

وأعجب من ذا انهم يرهبونها　　واموالها منهم ومنهم جنودها

فان في الشطر الاول خطلا ظاهرا فما دام القوم يخضعون لتلك الدولة التي تساس بالموبقات فليس ثمة ما يدعو الى وصف القوم بالرهبة من الحكومة وعدّ ذلك من الأعاجيب • فان التعبير بلفظ العجب لا مكان له في هذا الموقع •• اما الشطر الثاني منه فجيد وان كان من البديهيات •

اما قوله :

اذا وليت امر العباد طغاتها　　وساد على القوم السراة مسودها

واصبح حرّ النفس في كلّ وجهة　　يردّ مهانا عن سبيل يريدها

وصارت لئام الناس تعلو كرامها　　وعاب لبيدا في النشيد بليدها

فما انت الاّ ايها الموت نعمة　　يعزّ على اهل الحفاظ جحودها

فانه من محاسن الشعر وقد كان الشاعر نسجه على منوال قريض قديم • غير ان قوله (وعاب لبيدا في النشيد) غير موفق المعنى وكان عليه ان يقول (في القريض) ليقع النقد في وجهه ••

واما قوله :

لقد واصلت قوماً وخلّت وراءها　　اناساً تمنّى الموت لولا وعودها

فجميل رائع ولكنه ليس مما يقال في هذا الموقع وانما ينبغي حذفه منه ، بل ينبغي حذف البيتين اللذين يقعان قبله وكذلك البيت الذي جاء بعده ، فليس لمثل هذا الغزل مجال للاندساس بين أبيات هذه القصيدة ، غير ان يكون الشاعر قد أراد ان يتحذلق ••

ومن أبياته الجيدة قوله :

بني وطني مالي اراكـم صـبرتم على نوب اعيا الحصاة عديدهـا
اما آدكم حمـل الهـوان فانه اذا حمّلته الراسيات يؤودهـا
قعدتم عن السعي المؤدّي الى العلى على حين يزري بالرجال قعودهـا
ولم تأخـذوا للأمر يوما عتـاده فجاءت امور سـاء فيكم عتيـدها

ومن بارع الوصف مما يصدق على الجماهير الجاهلة من الناس قوله :

اذا جاهل منكم مشى نحـو سبّة مشى جمعكم من غير قصد يريدها
كأنكم المعـزى تهاوين عندمـا نزا ـ فنزت فوق الجبال ـ عتودها

ومن أبياته التي جاء فيها السبك محكما واللفظ جزلا :

بأضيع منكم حيث لا ذو شهامة يذبّ الرزايا عنكم ويذودهـا

ومن حسن التخيّل ودقة الوصف ما ورد في قوله :

فهل لمعت في الجوّ شعلة بارق وما ارتجست بين الغيوم رعودها

ومن حكمياته :

وان مياه الارض تعذب ما جرت ويفسدها فوق الصعيد ركودها

وهو معنى قديم كرره الشعراء كثيرا ، ولـكن الرصافي جاء به مجوّد العبارة حسن العرض ..

ومن مبتكر معانيه :

ومن رام في سوق المعـالي تجارة فليس سوى بيض المساعي نقودها

٣٥) سوء المنقلب

تتألف هذه القصيدة من سبعين بيتا ويصحّ الحكم عليها بأنها من شعر المتفقهة بما استعمل فيها الشاعر من الألفاظ والتراكيب ذات المستوى الضحل •• كقوله :

ان صحّ نقلكم بذاك فبيّنوا او قام عندكم الدليل فهاتوا

فهو نظم لبعض القواعد في الجدل والمنطق ••

ومن الألفاظ التي استعملها في قصيدته (اعنات وخربات وغرفات وبركات والغلاّت ، والنفي والاثبات ، وعلى حين ، وان دام ، وفي حالة) وغيرها ، وهي ألفاظ تنزل بالشعر عن اوجه الى حضيضه ••

ومما جاء ظاهر الركاكة في تعابيره لفظة (انه) في مثل موقعها من قوله :

يا كرخ عزّ على المروءة انه لجج المياه عليك مزدحمات

وكذلك نهج الشاعر في قصيدته نهج ناظمي المتون فعددّ الكثير من الانهار والقصور (كنهر عيسى والرفيل وطابق وبطاطيا ونهر الملك والمعلّى ونهر بين وبوق وكرخايا ونهر الدجاج وبركة زلزل) وما الى ذلك من هذا الضرب من الجغرافية[٨٠] •

(٨٠) من ذلك قوله :
أم أين كرخايا تمدّ مياهه نهر الدجاج فتكثر الغلاّت

ومن توافه المعاني في القصيدة قوله :

نهر هو الفردوس تدخل منه في　　　قصر الخليفة شـــعبة وقنـــاة

اما الابيات الجزلة المجوّدة فمنها ـ وهي قليلة ـ :

من مبلغ المنصور عـن بغداده　　　خبـــرا تفيض لمثله العبـــرات

ومنها :

لا دجلة ـ يا للرزية ـ دجلة　　　بعـد الرشيد ولا الفرات فرات

ومن مأنوس التخيلات والوصف البديع قوله :

كالسيف منصلتا تضاحك وجهه　　　الأنوار وهي عليه ملتمعات

وقد اجاد كذلك في قوله :

ايام تطلعك العـــدالة شـمسها　　　وترفّ فوقـك للهـــدى آيات

ومنها :

قد ضلّ أهلك رشدهم وهل اهتدى　　　قـــوم أجاهلهـــم هـم الســـروات

ومنها :

بالعلم تنتظم البـــلاد فانه　　　لرقيّ كـل مدينة مرقاة

ومما احسن فيه اداءا ما وصف به الـكرخ عند غرقه :

طرقـاته مسدودة ودياره　　　مهدومة وعراصه قذرات

ومما جاء فكه التخيّل :

فسقت بيوت الـكرخ شرّ مقيّيء　　　منهـــا فقاءت اهلهـــا الابيـــات

أي ان الناس غادروا بيوتهم وفروا الى حيث ينجون من خطر المـاء الذي أغرقها ، فكأنها قاءتهم قيئاً ..

ومن أبياته الموفقة التي تنطوي على السخرية والتهكم :

شقيت بكم لما شقيتم ارضكم	فلها بكم ولكم بها غمرات

وكانت الابيات التي جاءت في خواتيم القصيدة رائعة موفقة فقد قال يخاطب بغداد متذكراً غابر ايامها :

ايام يأتيك الشكيُّ بأمره	فيروح عنك وما لديه شكاة
تمضي الشهور عليك وهي انيسة	وتمرّ باسمة بك الساعات
ماذا دهاك من الهوان فأصبحت	آثار عزّك وهي منطمسات
قد ضيعت بغداد سابق عزّها	وغدت تجيش بصدرها الحسرات
كم قد سقاها السيل من أنهارها	ضرّاً وهنّ منافع وحياة

٣٦) العادات قاهرات

هذه القصيدة محشوّة بالبديهيات والتعابير العامية ، ولم يوفق الشاعر فيها لا كثيراً ولا قليلا ، اللهم الاّ ما جاء فيها من العدد الضئيل من أبياتها ذات الأداء الحسن والمعنى المقبول •• كقوله :

ان الدخان لثانٍ في البلاء اذا ما عدّت الخمر أُولى في البليّات

وقوله :

حسبي من الحمق المعتاد اهونه ان كان لابدّ من هذى الحماقات

وقوله :

ان العوائد كالأغلال تجمعنا على قلوب لنا منهن اشتات

وقوله :

وربّ شنعاء من عاداتنا حسنت في زعمنا وهي من اخزى الشناعات

وقوله :

لو لم يك الدهر سوقاً راج باطلها ما راجت الخمر في سوق التجارات

وجاء في ختام القصيدة بمعان حسنة ذات أداء جيد :

الحرّ من خرق العادات منتهجا نهج الصواب ولو ضدّ الجماعات

ومن اذا خذل الناس الحقيقة عن جهل اقام لها في الناس رايات

ولم يخف في اتّباع الحقّ لائمة ولو أتته بحدّ المشرفيات

ان ملاك هذه القصيدة أربعون بيتا ، وما عدا ما اثبتناه منها ليس في القصيدة ما يحسن سماعه ••

ومن أدعى معايب القصيدة لشديد النقد مطلعها الذي يقول فيه :

كلّ ابن آدم مقهور بعــــادات		لهنّ ينقاد في كــــلّ الارادات

فانه فوق كونه من شعر المتفقهة ، فان استعمال (ابن آدم) مسبوقا بلفظة (كلّ) ليس صحيحا من حيث استعمله ، فقـد أراد ان يقول (كل انسان) ولا نستوعب اللفظة هذا المعنى الاّ في اللهجة العامية •

ومما اورده من الحكميات المضطربة قوله :

عادات كل امرىء تأبى عليه بأن		تكون حاجـــاته الاّ كثـــيرات

وهذه حكمة مختلة ويظهر اختلالها عند قياسها الى قول الشاعر القديم :

(تموت مـــع المــــرء حاجاته		وحاجات من عاش لا تنقضي)

فليس للعادات دخل في موضوع الحاجات •• ثم كرر هذه الحكمة الباردة بقوله :

اني لفي أسر حاجاتي ولا عجب		تعوّدي ما به تزداد حــــاجاتي

في الواقع ان الموضوع الذي تناوله الشاعر في منظومته انما هو من اجدر المواضيع الاجتماعية بالبحث والمعالجة ، ولـكن الشاعر اخفق في الحصول على القسـط الـكافي من التوفيق فجـاءت القصيدة على ما جـاءت عليـه من العامّية والركاكة ••

٣٧) بعد الدستور

على هذه القصيدة من المآخذ قوله :

سقتنا المعالي من سلافتها صرفا وغنّت لنا الدنيــا تهنئنا عزفا

فان لفظة (العزف) هنا سمجة ، وظاهر فيها انها من صنع القافية ..

ثم قال :

وزفّت لنا الدستور احرار جيشنا فأهلا بمـا زفت وشكرا لمن زفّا

فان استعمال التأنيث في صيغة الفعل المسند الى الاحرار ملحوظ العيب ، فكان على الشاعر ان لا يؤنث الفعل فلا يقول (زفت) بل يقول (وزفّ) والشاعر يعرف هذا ولـكن الذي دفعه عنه ما جاء في الشطر الثاني من تكراره ذات الفعل مع التأنيث بما لا مجال عنده لتذكيره فدعم العيب بتكراره .. على ان الشطر الثاني برمتـه ضرب من اللغو لا طائل فيه .

وليس بشيىء قوله :

ورحنا نشاوى العز يهتف بعضنا ببعض هتـافا يصعق الظلم والحيفا

لأنه تعبير عامي المعنى والتنصيص ..

ومما اجاد فيه :

أتت عاطلا لايعرف الحلي جيدها ولا كحلت عيناً ولا خضبت كفّا

ولو قال (وما كحلت) باستعمال (ما) عوضا عن (لا) لـكان البيت ارسخ عرقا في البلاغة .. فان العطف هنا ليس عطفا على قوله (لا يعرف الحلي جيدها)

اد ان عبارته هذه جاءت شرحا للعطل في قوله (اتت عاطلا) ويلائم ذلك ان يقول بعده وما كحلت عينا ..

ومما ابدع فيه :

فجاءت بمطبوع من الحسن قد قضى على الشعر ان لا يستطيع له وصفـا

وبديع كذلك قوله :

نشرنا لها منّـا لفيف اشتياقنا ونحن اناس نحسن النشر واللفّا

وقوله (وهو حسن الأداء) :

رفعنا لواء النصر يهفو امامهـا ورحنا على صرف الزمان لها حلفا

واما قوله (في الصدر الأعظم كامل باشا) :

تحمّل اعباء الصدارة كامل فناء به ما لم يخفّ وما خفّا

فبارع المعنى ساخر العرض ..

ومما جاء في قوله من عامي المعاني (وقمنا على الاقدام صفا لها صفّا) ومن قبيح تمثيلاته :

وانّا نرى من قد تأبّط شرّه بعين تقدّ الابط او تخلع الـكتفا

فان الشاعر نزّل نفسه منزلة العائن ، وهذا من اقبح ما يصف به امرؤ نفسه ..

ومما ورد من أبياته رائق الخيال :

لنا فطنة ترمي الزمان بنورهـا فيبدو حجاب الغيب منه وقد شفّا

ومن التعابير العامية قوله (فقبلناه من عينه ألفا) ومن ركيك التعبير قوله (ندكّ جبال الظلم ننسفها نسفا) ..

ومن جيد أبياته :

ونحن اذا ما الحرب أفنت جيـادنا قتالا ركبنا الموت في حربنا طرفـا

فقد جاء فيه بالتخيّل البارع .. ومن جيد أبياته :

كذلك من صاغ الـكلام ملفّقا تمهل حينا يكثر الخطّ والحذفا

غير ان ذلك لا يطّرد .. فقد يكون الخط والحذف من أمارات التثبت

والاناة •• ومن بديع قوله :

سـل الحلة الفيحاء عنــه فانهـا حكت شهداء الطف اذ نزلوا الطفّا

ومن جيد أبياته :

ألم تر ارجـاء البـلاد محـولة من العلم فاستمطر لها الديم الوطفا
بلاد جفاها الأمن فهي مريضـة فحقق لها من طبّ رأيك ان تشفى
فـانّ لأهليهـا عليـك لذمّـةً ومثلك من راعى الذمام ومن وفّى

وكذلك قوله (وقد جمع فيه بين الجزالة والسلاسة) :

ولم يذكروا مجداً لهم كان ضاربا رواقاً على هام الـكواكب قد أوفى
وكانوا بـه شمّ العرانين فاغتدوا يقاسون اهوالاً به تجدع الأنفـا

وقد ختم القصيدة ببيت اضاع به عمومية القصد منها ، وخرج بها عن خطة الجدّ الى ما يشبه خطة الهزل ، وجانب سبيل الحكمة فيما حصره من عوامل الشقاء الذي كان يئنّ من ثقل وطأته بأمر ليس هو في الأصل مدعاة هذه الشكوى العريضة ، فقد قال :

يرجّون من اهل القبور رجاءهم ومن يحمل الدبوس او يضرب الدفّا

وكان قد سبق له ان ذكر من دواعي شكواه ان دجلة أصبحت شحيحة الماء لم تنبت زرعا ، ولم تشبع ظلفا ، وان الفرات أصبح رنقا ، وقد جفّ ماؤه •• فهل يمكن ان تكون هذه الأمور ناشئة عن حملة الدبوس وضاربي الدفوف ؟!

ولقد كان البيت الذي ختم به القصيدة حريا بالحذف لخروجه به عن صدد الموضوع •• وبامكان الشاعر ان يقول في أمر الدفوف ونحوها ما يحلو له ان يقول ولـكن في غير هذا المقام فان لـكل مقام مقالا •• وقد نبا قوله في الدفّ عن طبيعة القصيدة اسوأ ما ينبو الـكلام ويتهافت ••

٣٨) ايقاظ الرقود

من قصائده الذائعة الصيت ولا اراها جديرة بمثل ذلك الا ّ من ناحية ما فيها من الجرأة على السلطان ، واطلاق اللسان في نقد سياسته وهجائه ، في ظروف كتلك الظروف ••

وان مستوى القصيدة ظاهر الاختلال بصورة عامة ، وهي تتألف من ثلاثة وثلاثين مقطعا مخمسا ، أي ان عدد شطورها يبلغ مئة وخمسة وستين شطرا •• وجرت العادة في شعر الرصافي اذا كانت قصائده طوالا ان تكون نسبة الركاكة فيها الى الجودة نسبة عالية ••

مفتتح القصيدة حسن الصياغة جزل العبارة ظاهر التوفيق :

الى كـم انت تهتـف بالنشـيد   وقـــد اعيـاك ايقاظ الرقود
فلست وان شددت عرا القصيد   بمجــد في نشيدك او مفيـد
لأن القوم في غيّ بعيد

وقد كان ينبغي ان يقول (بمجد في قصيدك) دون (نشيدك) لقرب موقعها من لفظة القصيدة التي شد عراها ••

وجاءت فيها أبيات ذات تعابير عامية المستوى كقوله (فبعدك من يحصل لي معاشي) وقوله (وكلتكم الى الرب الودود) وقوله (وكلّ مذ غدوا للبيت أمّا) وقوله (وضمّ وليده بيد وشمّا) وقوله (الى كم نحن في عيش القرود) فهذه تعابير لا ترتفع شيئا عن مستوى التعابير العامية •

وجاءت في القصيدة أبيات منغمسة الى الاذقان في الركاكة والغرابة كقوله (نضوت جلباب الوجود) وقوله (سامك بالهوان له السجودا) وقوله (وزيّ غير ما زيّ الجنود) .

وهناك من يزعم ان الرصافي يخلق المصطلحات اللفظية خلقا ، وحين ننظر الى تلك المصطلحات التي خلقها في هذه القصيدة ـ على الأخصّ ـ نجدها تافهة القيمة قمينة ان تهلك في اللحظة التي خلقت فيها ، ومن ذلك قوله : (اسرى التأني) و (جلباب الوجود) و (أخا انتعاش) و (اصفاد الركود) ونحوها ..

اما ما جاء من التكرار السمج في الالفاظ والحروف بحيث ظهرت الاشطر قلقات والكلمات متنافرات فمثل قوله :

زمان نفـوذ حكمك مستمرّ — زمان سحاب فيضك مستدرّ

زمـان العلم انت لـه مقـرّ — زمان بنــاء عزّك مشمخرّ

وكذلك ما اكثره من تكرار (قد) في قوله (ترقى العالمون وقد هبطنا) وفي الشبطر الذي اعقبه (قد انحططنا) وفي الشطر الذي جاء بعده (قد شحطنا) وما لهذه القدقدة هناك من حاجة ولا ضرورة .

وافرط الشاعر في استعمال ألفاظ وحشية غير مأنوسة كقوله (فقطنا يا بني بغداد قطنا) وقوله (الا يا هالـكين لـكم اجيج) ..

ومن تكراره السمج قوله :

هناك قضوا وما فتحــوا بلادا — هنــاك بأسرهم نفدوا نفــادا

هنــاك بحيرة عدموا الرشــادا — هنــاك لروعهم فقدوا الرقــادا

هناك عروا هناك من البرود

ومما حسبه الشاعر توفيقا في التعبير وما هو الاّ كلام ضحل المعاني .. قوله :

بكى الولد الوحيد عليــه لمــا — غدا يبكي على الولد الوحيـد

واستعمل الشاعر ألفاظاً نابية اضطر اليها بحكم الرويّ (لقد غصّ القصيم بكل نذل) ولم تكن النذالة من مقتضى الكلام الذي يتحدث فيه ، الاّ ان الشاعر كان شديد التعلق بجماعة الخلافة الاسلامية وكان يناهض الحركات التي تظهر في البلاد العربية ضد العثمانيين •• وقوله (ولا بلغ السعود ابن السعود) يشير الى بعض احاسيسه في هذا المدى ••

ومما لا يطرد فيه القول من اوصافه وتشبيهاته :

فهـــم كالنار تحرق لامسيها   وتحسن للنواظر من بعيـــد

فان ذلك لا يطرد في امر النار ، فقد يحسن مرآها من قريب عند الاصطلاء وقد يرعب مرآها من بعيد حين تظهر من بيت يحترق ••

والابيات الجيدة في القصيدة نادرة ومنها قوله :

وكنت بأوجه للعـــزّ بيض   فصرت بأوجه للذلّ ســـود

وجودته جاءت من دقة التمثيل وحسن المطابقة رغم ان البيت يظهر بسيطا ساذجا ••

ومنها قوله (وهو مأخوذ من معنى قديم) :

عدينا في وصالك وامطلينا   فانا منـــك نقنع بالوعود

ومما جاء ساخر العبارة حسن الالتفات :

وهب ان الممالك في دمار   أليس بنـاء يلذز بالمشيد

ومن بديهيات الوصف قوله (الموت المبيد) ومن ضحل الأداء وركيكه (ولـكن من لتنكيل المريد) اما قوله (ورثة حالهم تبكي الأماكن) فحائل اللون ضعيف الأداء ••

ورصين فصيح الأداء (أتم عن ان تسوس الملك طرفا) اما الشطر الذي قاله بعده (اقم ما تشتهي زمرا وعزفا) فلو عطفه على ما قبله بواو لـكان فصيح

الاستعمال •• وجاء في الشطرين التاليين بجملتين كان ينبغي ان يربطهما مع ما قبلهما بروابط من حروف العطف •• ولـكن الشاعر استعمل اداة العطف في الشطر الخامس (وارسل من تشاء الى اللحود) دأب الاستعمال الغربي •• حيث تورد اداة العطف في آخر جملة ينتهي عندها اللفظ المعطوف ••

وقوله (فانك لن تطالب باعتذار) جميل العرض ظاهر التهكم ••

٣٩) الصديق المضاع

في هذه القصيدة توفيق ظاهر من ناحية سبك العبارات وتخير الجزل من اللفظ ودقة الوصف وتخيّل المعنى ومن ذلك قوله :

اذا ما سمائي جاد بالذلّ غيثها   أبيت عليهـــا ان تكون سمائيا

وقوله :

وما رحت استشفي القلوب مداويا   من الحقد الاّ عدت عنها كما هيا

وقوله :

فطر في سماوات القريض مرفرفا   وأطلع لنا فيهـــا النجوم الدراريا
فأنت امرؤ تعطي القـوافي حقّهـا   فتبدو ــ وان أرخصتهنّ ــ غواليا

وقوله :

اذا ناب قومي حادث الدهر نابني   وان كنت عنهم نازح الدهر نائيـا
ولست على شـعري أروم مثـوبة   ولـكنّ نصح القوم جلّ مراميـا

وجاء في ختام القصيدة :

فعلمهـم كيف التقـــدم في العلى   ومن ايّ طرق يبتغون المعـــاليا
وأبلى جديد الغيّ منهـم برشده   وجدد رشـداً عنـــدهم كان باليا
وسافر عنهـم رائداً خصب نفعهم   يشقّ الطوامي أو يجوب المواميـا
وان أفسدتهم خطـة قام مصـــلحا   وان لدغتهم فتنـــة قـــام راقيـــا

تعبيره بخصب النفع غريب المعنى ..

ومما جاء في صدر القصيدة من بديع التعبير ومجوده :

فقــال ولم يملك بوادر ادمع تناثرن حتى خلتهــنّ لآليــا

ومن تراكيبه الجيدة (وليتني ، ترحلت عنها لا عليّ ولا ليا) وهي من الألفاظ القديمة وقد احسن الشاعر وضعها في الموضع الحسن ، ومن عباراته (قريع تباريح تشيب النواصيا) وهو من الألفاظ القديمة ووضعه وصفاً للتباريح كان هو الجديد في التعبير ..

ومما يؤخذ على الشاعر من اهنات انه وصف ما يجنى من الجنى وصفا ظاهر الغرابة في قوله :

وما ضرّ أن أصفيت ودّك معشراً من الناس لم يجنوا لك الودّ صافيا

فان ما يوصف بالجنى لا يوصف بالصفاء ، وانما يوصف بالنضج والايناع عند ارادة المدح ، وبالفجاجة عند ارادة الذمّ ..

ومما جاء ضعيف التأليف ـ فضلا عن كذب الرأي فيه ـ قوله :

فلو ان ماء البحر لم يك مالحا لرحنا من الطوفان نشكو الغواديا

فهو يزعم ان ملوحة البحر تمنع من تبخر مائه ، ولولا ذلك ـ على ما يقول ـ لكثرت الامطار فشكى أذاها وضررها ..

ويؤخذ على الشاعر ولوعه باقحام بعض النظريات والمصطلحات (العلمية) الحديثة في قصائده بحيث تجيء كمنظومات المتون تلكؤاً وضيق أفق .. ومن ذلك قوله :

ولولا اختلاف الجذب والدفع لم تكن نجــوم بأفــلاك لهــنّ جــواريا

وكيــف نرى للكهرباء ظواهــرا اذا هي في الاثبــات لم تلق نافيــا

اما قوله :

وأيّ جوى قد عدتَ اصفر فاقعاً به بعد ان قـد كنت احمر قانيــا

فحسن بارع رائق الحسّ ..

ومن مجوّد قوله :

وداريت حتى قيــل لي متملق وما كان من داء التملق دائيــا

واما قوله :

وكم قام ينعى حين انشدت مادحا اليّ الندى ناع فأنشدت راثيــا

فانه ابلغ ما قيل في الهجاء ، رغم ان فيه معاضلة في تأليف الكلم ، فهو يريد انه كان يقوم مادحا بعض ممدوحيه فيأتيه الناعي بأن الندى ـ وهو الكرم والجود ـ قد مات فينقلب الى رثاء الندى المنعيّ •• ويعني بذلك ان من الناس من يظهر للشاعر عدم استحقاقهم للمدح منذ اللحظة التي يبدأ بمدحهم فيها ••

واما قوله :

ولو رضيت نفسي بأمـر يشينها لما نطقت بالشعر الاّ أهاجيـا

فان فيه رأيه في الهجاء •• ومن التراكيب الركيكة الساذجة قوله :

وكم بشـرتني بالوفاء مقـالة فلما انتهت للفعل كانت مناعيـا

يريد ان يقول ان القول غير الفعل ، فكثيراً ما يقع على الألسنة من المزاعم والادعاءات ما يقـع ، ولـكن الافعال تجيء مكذبة لذلك ، وقوله (فلمـا انتهت للفعل) عاميّ •

ومما ركّ من أقواله وألفاظه قوله (تجلد تجلد يا سليم) وقوله (عند من ليس وافيا) وقوله (وحتى دعاني الحزم ان خَلِّ عنهم) وقوله (سحابة صيف لا تدوم ثوانيا) وهذه مبالغة ضحلة وكذلك قوله (يجيبك عفوا ان امرت) فاستعمال لفظة الأمر استعمال عامي ••

ومن الحكم الضحلة :

وليس سريّ القوم من كان شاعرا ولـكن سريّ القوم من كان هاديا

ومما اجاد فيه قوله :

وقلت لـه هوّن عليـك فانمـا تنوب دواهي الدهر من كان داهيا

٤٠) بعد البين

من قصائده العاطفية التي اجتمعت فيها الرقة والجزالة ، وهي في الواقع من نوادر شعره فيما التمّت عليه من دواعي التوفيق والابداع •• فمن قوله في أوائلها :

لقد طوّحتني في البلاد مضاعـــا ... طوائح جاءت بالخطوب تباعـــا
فبارحت ارضا ما ملأت حقائبي ... سوى حبّها عند البراح متاعا
عتبت على بغداد عتب مودّع ... أمضّته فيهـــا الحادثات قراعا
أضاعتني الايام فيهـــا ولو درت ... لعزّ عليهـــا ان اكون مضـاعا
ومـــا انا بالجـاني عليهـا وانمـا ... نهضت خصاماً دونها ودفاعـــا
لقد ارضعتني كلّ خسف وانني ... لأشكرها أن لم تتمّ رضـاعا[٨١]
واعملت اقـــلامي بهـــا عربيـــة ... فلـم تبـد اصـغاءاً لهـا وسـماعا
ولو كنت ادري انها اعجميـة ... تخذت بها السيف الجراز يراعا
ولو شئت كايلت الذين انطووا بها ... على الحقـــد صاعا بالعداء فصاعـا
ولـكن هي النفس التي قد ابت لهاَ ... طبـــاع المعالي أن تسوء طبـاعـا
ابيت عليهـــم ان اكـــون بذلة ... وتأبى الضواري ان تكون ضباعا[٨٢]

ومما قاله في ختامها :

سأجري عليها الدمع غير مضيّع ... واندب قاعا من هنـــاك فقاعـــا

(٨١) قوله (لأشكرها ان لم تتمّ رضاعا) ركيك الاداء مضمحل المعنى •
(٨٢) قوله (ان أكون بذلة) ركيك ، ولو قال (اعيش بذلة) أو (اذلّ كذلهم) لـكان أصحّ •

وأذكر هاتيــك الديار بحسنها فنعمت على شحط المزار رباعا

لو قال (وأذكر هاتيك الرباع) لأجاد القول •• ومما يؤاخذ عليه :

على انني داريت ما شاء حقــدهم فلم يجد نفعــا ما اتيت وضــاعا
واشقى الورى نفسا واضيعهم نهى لبيــب يدارى في نهــاه رعاعــا

فان قوله (ما اتيت) غير ملائم لقوله (داريت) ولفظة (اتيت) هذه نابية عن مكانها •• وقوله (يداري في هواه) ضعيف التأليف وركيك وخير له لو قال (يداري في الحياة) •

وقوله :

وأنشدته يجلـو الحقيقة بالنهى ويكشف عن وجه الصواب قناعا

فان لفظة (النهى) هذه لا معنى لها •• ولو قال (للورى) لـكان احسن به قولا ••

واما قوله (ونزهت شعري ان يكون قذاعا) فقد أقذع فيه ما شاء له ان يقذع ••

واما قوله :

أبيت وما اقوى الهموم بمضجع تصارعني فيــه الهموم صراعـا

فكان عليه ان يقول (ابيت وما اشقى المبيت بمضجع) •

وقوله :

وما وجدت ريح وان قد تناوحت مهبّـاً بــه الا ّ قــرى وضـياعا

بحاجة الى التصحيح فيقول (اذا ما تناوحت) بدلا من قوله (وان قـد تناوحت) •

ومن بديع تعابيره (وسرّ اذاعته الدموع فذاعا) ••

ومما يؤاخذ عليه :

كأني وقد جـدّ الفراق سفينة أشالت على الريح الهجوم شراعا
فمالت بها الارواح والبحر مائج وقـد اوشكت ألواحها تتداعى

فانهما ليس في شيء منهما شعر ••

ومما اجاد فيه اجادة ظاهرة :

وكنت اظنّ البين سهلا فمذ اتى شرى البين مني ما اراد وباعـا

وكذلك قوله :

وقفت غداة البين في الـكرخ وقفة — لها كربت نفسي تطـير شعاعـا

وكذلك قوله :

هم القوم أمّا الصبر عنهم فقد عصى — واما اشـتياقي نحوهم فأطاعـا

وهو معنى قديم ..

ومن الابيات الرائعة التخيّل والعبارة :

وما انس لا انس الميـاه بدجلة — وان هي تجري في العراق ضياعا

ولو انها تسقي العراق لمـا رمت — به الشمس الا ّ في الجنـان شعاعا

وكان جميلا رصينا ـ كذلك ـ قوله :

لـه الله من واد تكاسل اهلـه — فباتوا عطـاشا حوله وجيـاعا

رآهـم عبيداً فاستبدّ بمـائه — ولم يجر بين المجدبات مشـاعا

جرى شاكراً صنع الطبيعة انها — ابانت يداً في جانبيـه صـناعا

٤١) يقولون

قصيدة من ثلاثين بيتا حاول فيها الشاعر ان يذبّ عن الاسلام ويردّ على خصومه ما زعموه فيه من مزاعم ..

ولو اوجز في مقاله لجاء قوله في ذلك جميلا رصينا ، لاسيما وان مثل هذه المواضيع يحسن فيها الايجاز ..

ويمكن القول ان اسلوب الشاعر في قصيدته هذه فوق أسلوب الفقهاء في نظم الشعر بنسبة لا بأس بها ..

من الابيات الجيدة فيها قوله في اوائلها :

يقولون في الاسلام ظلماً بأنه ... يصدّ ذويه عن طريق التقدّم

فان كان ذا حقاً فكيف تقدمت ... اوائله في عصرها المتقدم

وان كان ذنب المسلم اليوم جهله ... فماذا على الاسلام من ذنب مسلم

ومنها قوله :

لقد ايقظ الاسلام للمجد والعلى ... بصائر اقوام عن المجد نوّم

اما قوله :

وحلّت له الايام عند قيامه ... حباها وابدت نظرة المتبسم

ففيه عامية وركاكة ..

ومما اجاد فيه :

واشرق نور العلم من حجراته ... على وجه عصر بالجهالة مظلم

وكذلك قوله :

وعمّا قليل طبق الارض حكمهم   بأسرع من رفع اليدين الى الفم

ولو قال (وفيما قليل) لـكان آلف بالمعنى ، اما قياس ذلك الى رفع اليدين الى الفم فقياس تافه فيه من صور الشراهة ما لا يصحّ اتخاذ مثله قياسا لحركة الاسلام في الارض ..

ومن جيدّ قوله :

وما ترك الاسـلام للمرء ميزة   على مثله ممـن لآدم ينتمي
فليس لمثر نقصه حقّ معـدم   ولا عربيّ بخسه فضل اعجمي
ولا فخر للانسان الاّ بسـعيه   ولا فضل الاّ بالتقى والتكرم

ولـكن لفظة (التكرم) هذه ظاهرة الزيادة في الـكلام فوق كونها عامية ، غير ان ذلك من صنيع القافية .

وجاء البيت الأخير في القصيدة جميل المعنى ظاهر البراعة :

فلا تأمنوا الايام ان صروفهـا   كما هي اذ أودت بعاد وجرهم

وما بقي من القصيدة ضعيف التأليف مضطرب الأقيسة ليس فيه من الخيال ما يروق في الذهن وليس فيه من العبارة ما يشرق في النفس ..

٤٢) في سبيل الوطن

القصيدة من ثلاثة وثلاثين بيتا وموضوعها موضوع قيم ولـكن ليس كل القصيدة من النمط الممتاز فانّ فيها الـكثير من الغثّ والتافه •• وقد جاءت فيها أبيات مصوغة على دأب الشعراء المتفقهة كقوله :

اذا القـــــوم عمتهم امور ثلاثة   لســـــان واوطان وبالله ايمـــــان
فأيّ اعتقاد مانع من اخـــــوّة   بها قال انجيل كما قــال قرآن

فهذه تراكيب خاوية فقهية الأسلوب •• ومنها أيضا قوله :

وقولاً لمن قد لامَ صَهْ ويك اننا   على كل حال في المواطن اخوان

ومما جوّد به ابدع تجويد قوله :

وتكسو العراء الرحب مسح عجاجة   يمجّ بها السيف الردى وهو عريان

ومن جيّد أقواله :

ألا فانهضا نحو العدى وكلاكمـــا   لصاحبه في المأزق الضنك معــوان

ومنها :

اذا كانت الاخلاق غير شريفة   فماذا عسى تجدي علوم وعرفان

وجاءت خواتيم القصيدة بدوية النمط وهي في الواقع تصلح ان تكون مقطوعة شعرية مستقلة :

بنفسي أفدي في العــراق منابتا   يفوح بهــا شيح ويعبق حوذان

رياض رعتهـــا النائبات بأذؤب   من الجور فارتاعت ظباء وغزلان
لقد كان فيها الرند والبان زاهيا   فأصبح لا رند هنـــاك ولا بان
واصبح مرصوداً بها كل منهل   عليــه من الترنيق بالظلم ثعبان
وظلّ ابنها عن كل حوض محلأً   يحوم على سلساله وهو عطشان
سأبكي عليهـا كلما هبت الصبا   فمالت بها من حول دجلة اغصان
ومن ذرفت آماقه الدمع لؤلؤاً   ذرفت عليها ادمعي وهي مرجان

٤٣) بين تونس وبغداد

من أروع مطالع القصيد المطلع الذي افتتح به الشاعر قصيدته هذه في الترحيب بالشيخ عبدالعزيز الثعالبي عند قدومه الى بغداد سنة ١٩٢٥ .. قال الشاعر :

أتونس ان في بغداد قوماً ترفّ قلوبهم لك بالوداد

وتبعه من الابيات الجيدة قوله :

ويجمعهم واياك انتساب الى من خصّ منطقهم بضاد
ودين اوضحت للناس قبلاً نواصع آيه سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة اهل قربى وان قضت السياسة بالبعاد
وما ضرّ البعاد اذا تدانت اواصر من لسان واعتقاد

ومما كان جيدا من قوله :

لنا بثعالبيّك خير ملق على اشتاتنا حبل اتحاد

ومنها ـ فيه ـ :

دع القول المريب وقائليه وسل عنه المنابر والنوادي
تجده خطيبها في كل خطب ومدرهها لدى كلّ احتشاد
فتى صرحت عزائمه وجلّت عن الروغان في طلب المراد
تغرّب ضاربا في الارض يبغي مدى من دونه خرط القتاد
فأوغل في المفاوز والموامي وطوّف في الحواضر والبوادي

ومنها ـ في وصف خطبه ـ :

تحلّ من القلوب اذا وعتهــا محل الحبّ من شغف الفــؤاد

ومنها :

فكــان نزولــه في ساكنيهــا نزول الماء في المهج الصوادي

فهذه أبيات جزلة الأداء غنية بالمعاني الرائقة والـكلم المتناسق واللفظ المنسجم •

اما المآخذ على القصيدة فمنها قوله :

وان المســـلمين على التآخـــي وان أغرى الأجانب بالتعـــادي

فالصدر حسن الأداء والعجز ضعيف ، بحيث كان القول قاصراً عن ايضاح المعنى المطلوب ••

وقوله :

واكبر حامل بيــد اعتزام لحبّ بلاده علم التفادي

لفظة (اكبر حامل) عامية ، اما قوله (بيد اعتزام) فمن التراكيب التافهة •

وكذلك قوله :

وكان طوافه شرقاً وغربا لغير تكسب وسوى ارتفاد

وهو بيت ينبغي حذفه ، فان لفظة غير وسوى والتكسب والارتفاد والشرق والغرب وما الى ذلك ليست الاّ ألفاظـاً اجتمعت عن طريق المصـادفة فلم يكن وراءها طائل ••

اما قوله :

تنـــير بكهربائي المعــــاني امورا كنّ كالظلم الدءادي

فلا داعي لدسّ مثل هذه الالفاظ في التراكيب الشعرية الاّ من اراد ان يتحذلق •

وقوله (حكوا بجمودهم صفة الجماد) ليس بشيء .

ومن المبالغات التي خرج بها عن الحدّ المألوف قوله في الثعالبي :

فأنّى سار كان لـــه هدير يهــزّ دويُّه اقصى البـــلاد

فانه اولى ان يرد مورد الذم والمنقصة ..

ومن اختلال التعبير عنده :

اتونس ان مجدك ذو انتماء الى عليـــا نزار او ايـــاد

وهو ناشيء من استعمال حرف العطف (او) وكان الصواب استعمال حرف عطف غيره .. لأن (او) حرف متردد ، والانساب لا تثبت بمثله ..

٤٤) في حفلة شوقي

وهذه قصيدة من أربعة وثلاثين بيتا •• جاء في مقدمتها بالشعر الجزل الفصيح الذي لا لـكنة فيه قال :

امارس دهراً من جديديّ داهـرا ... وما زال ليلي بالعـراقين ساهرا
أبى الحقّ الاّ ان اقوم لأجلـه ... على الدهر في كلّ المواطن ثائرا
وان اتمادى في جـدال خصـومه ... واقرع منهـم بالبيـان المكابرا
واني لأهوى الحقّ كالطيب ساطعا ... وكالريح هبابا وكالشمس ظاهـرا
ستبقى لنفسي في هـواه سريرة ... اذا الدهر ابلى من بنيه السرائرا
وتكره نفسي ان اكون مخـادعا ... لأدرك نفعـا او لأدفع ضـائرا
ومن أجل مقتي للمخانيث انكرت ... يدى أن تحلىّ في الجنان اساورا
وما العجز الاّ ان اكون مكاتمـا ... اذا ما تقاضتني العلى ان اجاهـرا
وما انا ممـن يبهم القـول لاحناً ... فيضمر فيـه للجليس الضمائرا
ولولا طموحي في الحياة الى العلى ... سكنت البوادي واجتنبت الحواضرا

وهي مقطوعة من أروع مقاطيعه في الحماسة ، ولـكنه اضطرب في تعليل سكنى البوادي اضطرابا ظاهرا ••

اما ما يلي ذلك من القول في مصر وشاعرها (شوقي) فقد كان في بعضه من الاملال ما كان حرياً بالشطب والحذف كقوله :

فلو قلتَ بعضَ الشعر في يوم حفلهم ... تشـدّ به منـا لمصر الاواصرا
فقلت اجل والشعر ليس بمعجزي ... ولن تعدموا مني على الشعر قادرا

وقوله :

ويختصّ بالتبجيل من جاء منشدا ويقـذف بالتجهيل من جـاء فاكرا

فان فيه ضحالة وخطلا ..

ومن الابيات المجوّدة قوله – في شوقي – :

اذا رام جزلاً منه انشد زاخرا وان رام سهلاً منه انشد ساحرا

فلا عجب من اهل مصر وغيرهم اذا عقدوا منهم عليه الخناصرا

وليس في القصيدة مما يستحقّ الالتفات غير الذي نوّهنا به .. اما ما قاله في ختامها :

والاّ فعصـــر الجاهلية قبلنـــا له السبق في تكريم من كان شاعرا

فهو جيد الصياغة حسن المعنى ..

ومن تراكيبه واوصافه الساذجة قوله (حاصبا متطايرا) و (وان لأهل الفضل فيها دساكرا) و (راح شعره بانشاده في البر والبحر سائرا) و (بها رفعوا للقائلين المنابرا) ..

٤٥) الامة العربية

ــ ماضيها وحاضرها ــ

من أروع قصائده ، وأجودها أداءاً وبيانا •• وقد كاد ان يلخص بها تاريخ الامة العربية الحافل منذ عصر نهضتها الى العهود التي تقهقرت فيها •

ولم تكن هذه القصيدة ملحمة طويلة ، وانما هي من تسعة عشر بيتا ، ومن هنا كان توفيق الشاعر في ابراز قصيدته بهذه الفخامة •• اما ما فيها من سلاسة وانسجام ورونق وماء ، فشيء لا يحتاج لشدة وضوحه الى ان تشير اليه اِصبع •

وها هي ذه القصيدة كلها :

همم الرجال مقيسة بزمانها ... وسعادة الأوطان في عمرانها
واساس عمران البلاد تعاون ... متواصل الأسباب من سكانها
وتعاون الاقوام ليس بحاصل ... الا ّ بنشر العلم في اوطانها
والعلم ليس بنافع الا ّ اذا ... اجرت به الاعمال خيل رهانها
ان التجارب للشيوخ وانما ... امل البلاد يكون في شبّانها
هذي لدى العرب الكرام مبادىء ... نزلت بها الآيات في قرآنها
والعرب اكبر امة مشهورة ... بفتوحها وعلومها وبيانها
كم قد اقامت للعلوم مدارسا ... يعيا ذوو الاحصاء عن حسبانها
وبنت بأقطار البلاد مصانعا ... تتحير الافكار في بنيانها
فالمجد مأثور بكل صراحة ... عن قيسها ابدا وعن قحطانها

طبعت على حب العـلاء فسـعيها للمكرمات يعــد من ديدانهــا

نهضت بماضي الدهر نهضتها التي خضعت لها الأفلاك في دورانهـا

حسنت عواقب امرهــا حتى لقد بهرت بني الدنيا جلالة شأنهــا

فهم الألى فتحوا البـلاد ونشّروا رايات معــدلة على قطّانها[٨٣]

وهم الألى خضعت لهم امم الورى من تركهــا طــرا الى اسبانهـا

والروم قد نزلت لهم عن ملـكها والفرس عمــا شيد من ايوانهـا

يا امــة عاش البــرية اعصــرا في عدلهــا رغــدا وفي احسانها

ثم انقضت تلك العصور فجاءهــا زمن بـــه انقـادت الى عبــدانها

فنضــت ملابس عزهــا وتثاقلت في الذلّ راسفة بقيد هوانها[٨٤]

---

(٨٣) قوله (ونشروا رايات معدلة) بحاجة الى تنقيح ، فهي جملة ليست ذات اطار شعري ، فلو قال (للعدل رايات على) لـكان أحسن به قولاً ..

(٨٤) قوله (وتثاقلت في الذل) ليس بشيء فلو ذكر انها لبست ملابس الذل لـكان للمطابقة موقع حسن ..

٤٦) في ايلياء

ـ الى فاضليها النشاشيبي والسكاكيني ـ

من قصائده الجزلة الرقيقة وهي على ما فيها من المآخذ ذات روعة ثابتة .. قال :

اری الایام ظامئــة وليســت بغــير دم الأنام تريـــد ريّا
ولو لم تنو حــرباً ما تبــدّى بهـــا شكل الأهلّة خنجــريا

ومنها :

وقلّ حياؤهم حتى رأينا ظنين القوم يتهـم البريّـا

ومما جاء فيها من مفارقات المعاني مصوغة بألفاظ ساخرة :

وكم تَرِبٍ تجسس للأعادي فأصـــبح مــن تجسسه ثريّا
وســاع كان يسرح بالمواشي فأمطي من ســعايته شريّا[٨٥]
وان لســاسة الدنيــا لقلبــا قسيّا في الســياسة مرمريا[٨٦]
قد اتخذوا الحسام لهم لســانا فقالوا البطل واختلقوا الفريّا[٨٧]

---

(٨٥) الشرىّ : الاسد ..

(٨٦) لو قال (غليظا في سياسته قسيا) لدفع عن البيت لفظة (مرمريا) وهي غير شعرية .

(٨٧) لو قال (كم اختلقوا به القول الفريا) ونحوه ، لكان اسلم اداءا مما قال ، فان لفظة البطل غير شعرية أولاً ثم ان لفظة الفريّ جاءت صفة لشيء أو قول محذوف ليس في حذفه حكمة ، واستعمال فعلين لمعنى واحد ليس من البيان الفخم (فقالوا واختلقوا) .

ثم انتقل الى فصل آخر فأحسن اداءه واتقن تجويده فقال :

الا ما بال دمعـي ليس يرقى ۔۔۔ كـأنّ بمقلتي عـرقا صرّياً

ومن أبيات هذا الفصل :

ولمـا سرت في جبـل وسهل ۔۔۔ وكابدت السـمائم والعـرّيا
نزلت بايليـاء على كـرام ۔۔۔ وخيم العيش عـاد بهم مرّيا
فكدت بقـربهم انسى بلادي ۔۔۔ وأسلو الطفّ ثمـة والغريّا
ولـم ار كالنشاشيبي نـدبا ۔۔۔ الى العليـاء متـدراً جـريّا
فتى سعت المفاخر وهي عطشى ۔۔۔ الى آدابـه فأصبن ريّـا

ومنها :

ولم ار سـيداً كـأبي سريّ ۔۔۔ ولا مثل ابنـه ولـداً سريّا
همـا متشابهـان فعبقـريّ ۔۔۔ مـن الآباء انجـب عبقـرّيا
أب في المجـد اروع احوزيّ ۔۔۔ نمى للمجـد اروع احـوزّيا

ثم اتبع ذلك قوله في السكاكيني :

الى الشهم السكاكيني اهـدي ۔۔۔ ثنـاءا لا يزال بـه حـرّيا
فتى غـرس المكارم ثم منهـا ۔۔۔ جنى ثمر العلى غضـا طرّيا
يعـاف معاشه الاّ شـريفاً ۔۔۔ ويأبى المجـد الاّ جوهـرّيا

ولسنا نعلم شيئا عن ظروف هذه القصيدة ، ولذلك لا نملك ان نقول ان الحاق القول في السكاكيني بما قاله في النشاشيبي امر معيب .. فانه من غير اللائق ان يرد مدح رجل ذي مكانة كتذييل لمدح رجل في مثل مكانته .

٤٧) تجاه الريحاني

ـ شكواى الخاصة ـ

يطري الرصافي في أوائل هذه القصيدة (أمين الريحاني) الجوّابة والأديب العربي المعروف •• ثم يشكو اليه ظروفه الخاصة ويصف خلال ذلك ما عليه البلد من أوضاع تثير الاسف وتتطلب العلاج ••

فمما قاله في الريحاني :

فتى كثرت مناقبه فأضحى — له في كلّ مكرمة نصيب
تجالس منه ذا خلق كريم — له بجليسه اثر عجيب
واقسم لو يجالسه سفيه — فواقاً لاغتدى وهو الاريب

ومنها :

له قلم به تحيا المعاني — كما يحيا من المطر الجديب
وتشرق في سماء الشعر منه — كواكب ليس يدركها مغيب
لقد طارت بشهرته شمال — كما طارت بشهرته جنوب
وطبق صيته الآفاق حتى — تعرّفه القبائل والشعوب

ثم يتحدث الشاعر عن شكاته واملاقه وما يعانيه من سخط الناس وحقدهم عليه ونظرهم اليه شزرا ، ثم يقول :

سكنت (الخان) في بلدي كأني — اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه — لأني اليوم في وطني غريب

وما هــذا وان آذى بـــدائي ولا هــو امره امــر عصيب
ولــكني ارى ابنــاء قــوسي يدبـّر امرهــم من لا يصيب
يقدّم فيهــم الشــرير دفعــاً لشــرّته ويحتقــر الأديب
فهــذا الداء منتشــب بقلبي وفي قلــب العلى منــه وجيب
فكيف شــفاؤه ومتى يرجّى واين دواؤه ومــن الطبيــب
وان أك قد شكوت فما شكاتي الى ذي خلــة امــر معيب
سأنصب للهواجر حرّ وجــه يعود الى الشروق بـه الغروب
واضرب في البــلاد بغير مكث اجوب من المهامه ما اجــوب
الى ان اســتظلّ بظــلّ قوم حيــاة الحرّ عنــدهم تطيب
والاّ فالحيــاة امــرّ شيء وخــير من مرارتها شــعوب

وفي القصيدة بعض المآخذ منها قوله :

امــرّ فتنظــر الابصــار شزراً اليّ كأنمــا قــد مــرّ ذيب

ان هذا التشبيه غير مطابق للواقع ، فان الناس اذا مرّ ذئب لا تنظر اليه شزرا وانما تتهيبه وتخشاه وتفر منه •• اما قوله :

اقمت ببلدة ملئت حقــوداً عليّ فكل ما فيهــا مريب

فقد جمع به لفظة الحقد وهو مما لا يجمع فجاءت اللفظة غير شعرية ، وكذلك حكمه على ان كل ما فيها مريب ، لا يكاد يكون له مفهوم سوى ارادة المبالغة التي جاوز بها الحدّ المحدود ••

اما قوله :

وكم من اوجــه تبدي ابتساما وفي طــيّ ابتسامتها قطــوب

ان المعنى الذي حاول الشاعر تصويره معنى جميل وبارع ولـكن العبارة قصرت بالشاعر عن ادراكه ••

وكذلك قوله :

ففي ذا اليوم نحن قــد احتفينا بريحانتّينــا وهــو الأديب

فانه اشبه بالـكلام العامي ، اما قوله :

ويحسن في المسامع منــه صوت لــه تهتــز بالطرب القلوب

ففيه من الخطأ انه وصف الريحاني بكونه من المغنين ـ وهو ليس منهم ـ وبركز هذا المعنى في ذهن السامع ان من الالفاظ التي ترادف لفظة مغنية ان يقال محسنة ومسمعة ..

ومن المآخذ الاخرى عليه ما نحاه منحى العقلية العامية في ادائه وتعبيره فان هذا الداء عريق في الكثير من شعره ، ففي وصف الريحاني يقول :

تجالس منه ذا خلق كريم   له بجليسه اثر عجيب

فالأثر العجيب هنا من بعض معالم الفكرة العامية ..

وقوله :

له قلم به تحيا المعاني   كما يحيى من المطر الجديب

فان تشبيه المعاني بالجديب من الأروض تشبيه غير موفق ..

وقوله :

وأقسم لو يجالسه سفيه   فُواقاً لاغتدى وهو الاريب

لا يصلح في مقام المدح ، فانّ الممدوح ينبغي ان يحاشى عن رفقة السفهاء ، ولا شأن للقسم هنا .. والمبالغة الواردة في البيت ليست الاّ ضرباً من انماط العقلية العامية ..

اما مطلع القصيدة وهو قوله :

لهذا اليوم في التاريخ ذكر   به الآناف يفعمهنّ طيب

فلو قال (في الايام) دون ان يقول في التاريخ لكان اولى .. ولا يصلح هذا البيت ان يكون مطلع قصيدة ـ رغم قوته ـ ما لم يسبقه بيت قبله يعين به شخصية اليوم الموصوف بما وصفه به[88] ..

---

(٨٨) قصائد الرصافي في الريحاني متعددة وكلها اطراء واجلال لشخصية أمين ، غير ان رسالة كتبها الرصافي سنة ١٩٣٥ اوضحت ان علاقة الرجلين لم تكن سليمة مأمونة ، فقد أثبت مصطفى علي في كتابه ص ١٨٠ نص عريضة قدمها الرصافي الى وزارة المعارف سنة ١٩٣٥ حول ديوانه :

(أبعد ما بيعت نسخه بيع الهوان، فتفرقت شذر مذر جاءت وزارة المعارف تطلب منه مائة نسخة وهي التي اشترت من كتاب الريحاني والأرناءوط ثلثمائة نسخة) !!

٤٨) بني الارض[٨٩]

هذه من قصائده الوجدانية الرائعة تشكّى بها من الزمان واهله ، ورسم بها أدقّ صورة للأقدار النازلة بالناس •• وهي قصيدة فخمة جميلة قلية المآخذ •

قال :

بني الارض هـل من سامع فأبثّه ... حديث بصـير بالحقيقة عـالم

جُبلنا على حبّ الحياة وانهـا ... مخيلة احـلام اطافت بحـالم

سعى الناس والاقدار مخبوءة لهم ... وناموا وما ليل المطيّ بنـائم[٩٠]

جرت سفن الايام مشحونة بنـا ... على بحـر عيش بالردى متلاطم

تأملت في الاحياء طرّاً فلم اجـد ... بهم باسـماً الاّ على ألف واجم

وربّ سعيد واحـد تمّ سـعده ... بألف شـقيّ في المعيشـة راغم

وما المرء الاّ دوحـة في تنـوفة ... ملوّحـة اغصـانها بالسـمائم

لهـا ورق قـد جفّ الاّ اقلّه ... وعيدانهـا بين النيوب العـواجم

ولابدّ ان تجتثّ يوماً جذورهـا ... وتقلعها احدى الرياح الهواجم[٩١]

---

(٨٩) في القصيدة أخطـاء مطبعية كثيرة تنبهنا اليهـا فنقلنا الابيات على الوجه الصحيح •

(٩٠) في الشعر القديم :

اقد لمتنا يا ام غيلان في السرى ... ونمت وما ليـل المطيّ بنـائم

(٩١) لو قال عوضاً عن (احدى الرياح) هوج الرياح لجاء أداؤه سليماً ، فان لفظة (احدى) هذه ليست شعرية ••

اری العمر مهما ازداد يزداد نقصه / اذن نحن في نقص من العمر دائم[92]

ومما أجاد فيه :

هل الموت الا سالك وحياتنا / اليه سبيل مستبين المعالم
وما زال هذا الدهر غضبان آخذاً / على الناس من سيف المنون بقائم[93]
تبصّر تجد هذى البسيطة منزلاً / كثير اليتامى عامراً بالمآتم[94]
وليس الذي آسى له فقد هالك / ولكن ضياع المفجعات الكرائم
وكائن ترى مخدومة في جلالها / سعت حيث ابكاها الردى سعي خادم[95]
فليت المنايا حين قوّضن بيتها / بدأن بها من قبل هدم الدعائم
ارى الخير في الاحياء ومض سحابة / بدا خلّبا والشرّ ضربة لازم
اذا ما رأينا واحداً قام بانياً / هناك رأينا خلفه ألف هادم[96]
وما جاء فيهم عادل يستميلهم / الى الحق الا صدّه ألف ظالم[97]

---

(٩٢) استعمال (مهما) على هذا الوجه ليس من الفصيح ٠٠ والبيت يتضمن مقولة بديهية ، ومن العيب الظاهر في أدائه قوله (اری العمر ٠٠) في حين ان البديهيات ليست مما يحسن أن يختص بها أحد نفسه ٠٠

(٩٣) كان أحرى أن يصف الدهر بغير صفة الغضب فليس للغضب هنا مورد ٠٠

(٩٤) لفظة (عامر) هنا غير ملائمة لظرف البيت ومعناه ، وخير منها ان يقول (زاخراً) ٠

(٩٥) لا محل لذكر الردى هنا فانه لم يكن هو الذي أبكاها مباشرة وانما أبكاها أثر من آثاره وهو الترمّل ٠٠ والفاجعة تتمثل في أن تسعى المخدومة سعي خادم ، أما ذكر الردى وإبكائه فأمر لا قيمة له ازاء ذلك ٠٠

(٩٦) لو استغنى الشاعر عن هذا البيت لخفف من هذه (الآلآفات) التي وردت أكثر من مرة في القصيدة ، على أن معناه مسروق من قول تاج الدين الديباجي الحلي من شعراء القرن الثامن الهجري فهو القائل :

(أرى ألف بان لا يقوم بهادم / فكيف ببان خلفه ألف هادم)

ولا مكان للفظة (هناك) في البيت بعد ذكر الرؤية ٠٠

(٩٧) لفظة (ألف) هذه جاءت مملولة من جراء تكرارها ولو قال (كل ظالم) لكان المعنى يستقيم به دون حاجة الى حصر العدد بالأرقام ٠٠

جهلت كجهل الناس حذمة خـالق … على الخلق طـرّاً بالتعاسة حاكم[٩٨]
وغـاية جهـدي انني قـد علمته … حكيماً تعـالى عن ركوب المظـالم

ثم ختم القصيدة بهذه المقطوعة :

دأبت لنفسـي في الحيـاة كـأنني … من العيش ملقى في شـدوق الاراقم
يخـاصمني منهـا على غير طـائل … اناس فأبدي الصفح غير مخاصم[٩٩]

ثم قال :

وكم لي في بغـداد من ذي عـداوة … ومـا انا في شيء عليـه بجـارم
اذا جئت بالقلب السليم يجيئني … بقلب لـه من كثـرة الحقـد وارم

ومن المآخذ على الشاعر قوله :

ولولا انهـدام في بنـاء جسومنا … لمـا احتيج في تعميرها للمطـاعم

فانه حريّ بالحذف لما فيه من سخف المعنى والتمثيل •• وكذلك قوله :

نروح كما نغدو نجاهد دونهـا … أموراً دعتنـا لارتكاب الجـرائم

فانه واضح انها قاعدة لا تطّرد في النـاس ، فليس كـل القـوم يرتكبون الجرائم من أجل دواعي الحياة وحاجاتها •

وقال :

وأقنـع بالقوت الزهيـد لطيبه … حذار وقوعي في خبيث المطـاعم

وهو فلسفة باردة الطبـع وفكرة ضحلة النبع ، فانّ من بديهيات الامور ان الطعام الطيب على قلته خير من الطعام الخبيث رغم كثرته ، وفي التنزيل العزيز (قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث) ولـكنْ حـذره من الوقوع في خبيث المطاعم هو العجيب في التعليل ••

---

(٩٨) ادعاء حكم الله على الخلق طرّاً بالتعاسة لا يصدقه الواقع والحقيقة ، فليس الخلق طرّاً تعساء على ما يزعم الشاعر •

(٩٩) لا يصدق الشاعر دائماً في مثل هذه الدعوى •• واذا صحّ من ذلك شيء فانما هو أيام كان الشاعر مستضعفاً في القوم فلما راش الزمان جناحه غير لهجته من الرقة الى المخاشنة •

واين هذا من قول الشنفرى .

(واستفّ ترب الأرض كي لا يرى له   عليّ من الطـــول امرؤ متطـــوّل
ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشـــرب   يعـــاش بـــه الاّ لـــديّ ومأكـــل
ولـــكن نفســـاً حرّة لا تقيـــم بي   على الذأم الاّ ريثمـــا أتحـــوّل)

اما قوله :

وأترك ما قد تشتهي النفس نيله   لمـــا تشتهيه قلّـــة في دراهمي

فظاهر الركاكة والاضمحلال ، وليس فيه معنى اصيل ولا دخيل ، ولعل الشاعر ظنّ ان في نسبة الاشتهاء الى الدراهم بياناً مبتكراً ، فان ظنّ هذا فانه واهم كل الوهم .. فانّ المعاني التي تجول في الصدور انما ينبغي التعبير عنها ونقلهـا الى الاسماع بما لا حذلقة فيه ولا تفيهق ولا معاضلة كالذي فعله الشاعر هنا ..

٤٩) الحمد للمعلم

ــ الى المعلم نخلة زريق ــ

قصيدة الشاعر هذه مقولة في تكريم (نخلة زريق) المعلـم في مدارس القدس ..

وقد تناول الشاعر موضوعه بعد مقدمة من بليغ الشعر ورصينه .. وما احسب ان احداً ممن وصف الليل والنجوم والدجى ومن تخبط في ظلماته قد بلغ مثل هذا المبلغ في موضوعه ..

قال الشاعر :

وليل به قـد بتّ أختلس الكرى ... وأرقب فيه النجم ان يتغوّرا

تمطى على الآكام منه بغيهب ... تكاثف حتى خلته قد تحجّرا

وكان دجاه يمكن الكفّ لمسه ... فلو سارَ سارٍ في دجاه تعثّرا[١٠٠]

لقد بتّه والهمّ معتلج به ... اذا زاد طولاً زدت فيه تضجرا

يقلبني فيه الجوى وتهزّني ... لواعج شوق في الفؤاد تسعّرا

أرى الزَهْر فيه يضطربن كخابط ... بتيهاء يجتاب الدجى متحيّرا[١٠١]

---

(١٠٠) أراد الشاعر ان يقول ان شدة الظلام كادت تكون كالجدار في كثافتها، فلو مشى هناك ماش لاصطدم بهذا الظلام كمن يصطدم بجدار .. ولكن التعبير خانه فاضطرب المعنى الذي أراده من حيث أستعمل (تعثر) دون ان تكون مقصودة في الكلام ، واستعماله (سار) بموضع (سرى) من قوله (ولو سار سار في دجاه) لا أحسبه مما يؤاخذ عليه وان كان السرى مخصوصا بسير الليل ..

(١٠١) هذا البيت ابلغ بيت قيل في لمعان النجوم ، والتخيل فيه بديع جدا .

كأنّ نجوم الليـل غضبى على الدجى — تردد لحظـاً في الدجنّـة أشـزرا
الى ان بدا لي الصبح يحكي عمـوده — لنخلة رأياً في الذكـاء منورا[١٠٢]
فتى كنت قبـل اليوم خبرت فضله — كبيراً ومذ شاهدته كـان أكبرا[١٠٣]
ترى منـه ان لاينْتَه ذا دمـاثة — اديبـاً وان خاشـنته فغضنفـرا

ثم قال بعد أبيات :

لنا اليوم جيش من تلاميـذ علمـه — بـه الجهل ولّى مدبراً وتقهقـرا
هم الجيش سدوا ثغر كلّ جهالة — اذ اتخـذوا في كلّ ثغـر معسكرا

ثم قال :

لـك ابن زريق منّـة سرمـديّة — سيذكـرها في دهـره من تذكّرا
كفى بالسكاكيني في القدس شـاهداً — بما لك من فضـل عميم على الورى
فقد كان قبـل اليـوم تلميذك الـذي — غـدا اليـوم أستاذاً كبـيراً مفكّـرا

ومن المآخذ على القصيدة ، انه استعمل ألفـاظاً ذات مسـتوى فقهي أو عامي كقوله : (بالعلوم تحضّرا) وقوله (منها تقررا) وقوله (أماليَ املاهـا عليهم وقررا) وقوله (اثنينا عليك تشكرا) ..

ومما قاله فخلط به الحسن والسيء :

تقضت له فيهـا ثلاثون حجة — بها قرّط الآذان درّاً وجوهرا

فان صدر البيت جيد حسن الأداء والتأليف ولـكن الدر والجوهر والآذان جاء في مستوى عامي .

---

(١٠٢) (لنخلة) يريد به الاستاذ نخلة زريق ، وفي البيت تخلص موفق وانتقال جميل .
(١٠٣) لو قال (بان اكبرا) فانّ ذلك اجلى بيانا من قوله (كان اكبرا) .

٥٠) عرس مصر

ينتقد الشاعر بقصيدته ما أقيم في مصر من حفلة تكريمية فخمة ، لكريمة مصري عند اقترانها بابن الداماد فريد باشا ، وكان ذلك أثناء الحرب البلقانية ..
وهي من عيون الشعر وروائعه ، أتقن فيها الشاعر صناعة التبكيت والسخرية ، ولمَّ فيها جمهرة من المفارقات في تقريع القوم ومعاتبتهم ..

وقد جاءت الألفاظ الفصيحة في مواقعها من أبيات القصيدة كأحسن ما يمكن ان يجيء شيء وفق الدقة والانسجام ، كما ان الضرب الوجداني كان ظاهر الحسّ في هاتيك الابيات .. قال :

أطربتهم بلحنها الانغام — حين أدمت قلوبنا الآلام
فأقاموا مجالس الأنس حتى — رقص العار بينهم والذام
أضحكوا اوجه السفاهة ضحكاً — قد بكت في خلاله الأحلام
ان في مصر (للكريمة) عرساً — سوف تعنى بشرحه الأقلام
ذاك عرس تكشّر اللؤم فيه — عن نيوب كأنهن سهام
وتغنّت للقوم فيه قيان — أنكر العهد صوتها والذمام
فلعيَّنْ ِ الحليم فيه بكاء — ولثغر السفيه فيه ابتسام
ايها المولمون في مصر مهلاً — ان ايلامكم لنا ايلام
أتغنّيكم القيان بيوم — قام في مأتم به الاسلام ؟[١٠٤]

(١٠٤) لو قال (بات في مأتم) لكان أحسن وأجود .

لبست هـــذه البــلاد حـــدادا   وتحلّـــت بوشـــيها الأهـــرام
وجـرت اعـــين الفرات دموعــاً   وجرى النيل ثغـــره بسام[١٠٥]
أشـــماتاً بالمســلمين وقـــد دارت عليهـــم بنحسها الأيـــام ؟
اذ رمتهـــم يـــد الزمـــان بخطب   جلـــل مـــا لنقضـــه ابـــرام
فهوت في مصارع الحرب منهـــم   جثث تملأ الفضاء وهـــام[١٠٦]
وتخلّوا عـــن البـــلاد وأبقـــوا   حرمـــات تدوســـها الأقـــدام
يا بني مصـــر صـــغية لســـؤال   فيـــه عتب لـــكم وفيـــه مـــلام
أتناط الفتوخ في خنصر الـكفّ ازديانـــاً ان قطّت الابهـــام ؟
أدمـــاء القتلى لديكم خضـــاب   ام انين الجرحى لـــكم انغام ؟
ام تريدون ان تكونوا كقـــوم   أسكرتهم بين القبـــور مـــدام
ام أصـــختم الى الأغاريد كي لا تسمعوا كيف تنحب الأيتـــام
لست ادري وقـــد سمعت بهذا   يقظـــة ما ســـمعته ام منـــام

---

(١٠٥) عجز البيت ظاهر القصور ..

(١٠٦) في الاصل (فهوت مصارع الحكم منهم) وهو من الهفوات المطبعية فيما يبدو ..

٥١) من مضحكات الدهر

من قصائده المختارة المشحونة بالحكم والامثال •• وقد جاء فيها من جزالة اللفظ وفصاحة الكلم وحسن الأداء وإحكام البناء ما نشير الى نصوصه ، كما جاء فيها ما جاء من حوشي اللفظ وغريبه •• قال :

اذا الدهر لم يعتب من الناس جازعاً ... فأضيع ما فيه شكاية مشتك
على ان ضحكي منه لا عن سفاهة ... ولكن كضحك العفّ من متهتّك
ولو سبر الناس الحوادث بالنهى ... لما حصلوا منها على غير مضحك
وما حادثات الدهر الاّ خوابط ... كعشواء تمشي مشية المترهوك[١٠٧]
وما حكم هذا الدهر الاّ تحكّم ... كحكم فصوص النرد في نقل مهرك[١٠٨]
كأنا من الدنيا ببيت مقامر ... حوى من سهام القمر كلّ مدملك[١٠٩]

ومنها قوله :

ومن مضحكات الدهر حامل سبحة ... تقبّل جهلاً كفه للتبرك
وآخر تركي تعرّب ودّعى ... على عربيّ هجنة المتترّك
وما الناس الاّ خادع ادرك المنى ... وآخر مخدوع لها غير مدرك
فلا تبد من زير النساء تعجباً ... ولا تغترر بالزاهد المتنسّك

(١٠٧) المترهوك المضطرب في مشيته ••
(١٠٨) المهرك واحد المهارك وهي صايات الطاولي (البوالة) التي تكون في الغالب من قطع خشبية مستديرة على شكل أقراص •
(١٠٩) المدملك ، من سهام المقامرة •

ومما اجاد فيه ، قوله :

وان أبصرت عيناك يوماً حقيقـــة تخالف ما قـــد قلتـــه فتشكك
فانك لم ينبئك مثـــل مجـــرّب خبير ، ولم ينصحك مثل محنّك
فهـــذا لعمر الله رأيي فخذْ بـــه فقد فزت فيـــه بالجُذَيْل المحكك

اما ما يؤاخذ عليه فمن ذلك قوله (ولا خائف من شره المتحـــرك) فانه استعمال عامي ساذج جاء به الرويّ ، وقوله :

وما الحرف اللآتي يجيد احترافها ســـوى شبك منصـــوبة للتملك
وان طبيب القـــوم ناصب كفّـــة ليصطاد فيهـــا بالدواء الممصطـــك

فهذان بيتان مما زادا على نصاب القصيدة لفظا ومعنى •• فان نصب الشباك للتملك كلام مجرّد من دواعيه ، وكذلك وصف الدواء بأنه ممصطك لا يعدو ان يكون من توريطات القافية ••

اما قوله :

فمـــا دارت الأفلاك الاّ وقطبها بحكم الهوى حبّ الكعاب المفلّك

الـكعاب المفلك ، الجارية التي استدار ثديها وصار كفلكة المغزل •• والبيت ضرب من عقيم المبالغة وان كانت ألفاظه ذات جمال وروعة ••

٥٢) الشارع الـكبير ببغداد

من القصائد الممتعة ذات الطابع الساخر •• وقد تناولت موضوعاً ليس ممـا اعتاد الشعراء تناوله بالنظم أو التنبه اليه ، وقـد جاءت القصيدة ممتازة بالسلاسه ودقة الوصف وتناسق المعاني • قال :

نكب الشارع الـكبير ببغـــداد ولا تمش فيه الاّ اضطرارا
شـــارع ان ركبت متنيه يوماً تلق فيـــه السهول والأوعـارا
تترامى سنابك الخيل فيــه ان تقحمن وعثـه والخبارا
فهي تحثو التراب فيه على الأوجه حثـــواً وتقذف الأحجارا
لو ركبت البراق فيه او البرق نهـاراً لمـــا أمنت العثـــارا

ومنها :

هو إن رُشّ جاش وحلاً والاّ جاش نقعـاً على الوجوه مثـارا
تصهر الشمس فيه أدمغة القوم اذا هـــم تخبّطـــوه نهـــارا
واذا ما مشـــيت في جانبــه فتجنـــب رصـــيفه المنهـــارا
واذا ما ارسلت فيـــه الى الأطراف لحظـاً انكرته انكـــارا
لا ترى فيه ما يسرّك بالصنعة حســـنا ويبهـج الابصـــارا(١١٠)
بل ترى الـعين فيــه كلّ جدار تكره العـين ان تراه جـــدارا
ودكاكـــين كالأدحيص تمتـــدّ يمينـــاً بطوله ويســـارا(١١١)

(١١٠) لو قال أو يبهج الابصار لأحسن ••
(١١١) لا مكان لاستعمال (بطوله) ولو قال (عن متنه) لـكان ذلك أملأ للفراغ في البيت •

اين هذا من الشوارع في الامصـــار زانت بحسنها الامصارا
عبّدوهـــا ومهّدوها فجــاءت لا اعوجاجاً فيهـا ولا ازويرارا
وأعدّوا بهنّ كــل رصيف يحمد الســير فوقه من سـارا
واقاموا لهم بها كل صرح خيل في الحسن كوكباً قد انارا
ثم لم يكتفــوا بذلــك حتى غرسوا في ضفافها الأشجارا
فوقتهم ظلالها وهـــج الشمس وسرّ اخضرارها الانظـــارا
هكـــذا فلتكن شوارعنا اليوم والاّ فمـــا عمـــرنا الديـــارا

ومما لم ننقله من أبيات القصيدة ظاهر فيه الاعياء والتقصير كقوله :

فجدار عال وفي الجنب منه متـــدانٍ تقيســه اشـــبارا

ونحو ذلك قوله :

مستجيشا من الجرائيم جيشاً مسبطرّاً عرمرمـاً جـــرّارا

فلا مورد لهذه الصفات المتكررة من أسماء الجيش وكراديسه ..

وقوله :

تحسب العابرين فيه سكارى من هـــواء تنسموه غبـــارا

فليس فيه مما يشبه أحوال السكارى .. من شيء ..

وهذا النوع من الشعر عني بنظمه قليلون من الشعراء .. وممن اوغل فيه فأجاد وأمتع الشاعر اللوذعي الرقيق أحمد الصـافي النجفي ، فان لـه عشرات القصائد في مثل هذه الموضوعات ، بحيث أدّى الشعر من هـذه الناحية خدمات ملحوظة للتاريخ الأجتماعي الشعبي ، وذلك بما اعطاه من الصور الواضحة لمـا يستوجب الانتقاد الساخر من أحوال الناس وسلوكهم ..

٥٣) على الخوان

عالج الشاعر بهذه القصيدة نهم الناس في التهام الأطعمة ، بحيث يدفعهم ذلك الى عدم مضغ اللقم ، فينشأ من جرائه ما ينشأ من العلل والاسقام ..

فالقصيدة من هـذا الوجه صحية المنحى وهي كذلك خلقية اصلاحية .. واشار الشاعر الى ما اعتاده الصائمون من الاقبال على الطعام بنهم كبير عند الافطار ، وهي قصيدة سلسة ولم تخل من بعض المآخذ التي سنشير اليها ..

قال الشاعر :

أكبّ على الخوان وكان خفّاً ... فلما قام أثقله القيام
ووالى بينها لقماً ضخاماً ... فما مرئت له اللقم الضخام
وعاجل بلعهنّ بغير مضغ ... فهنّ بفيه وضع والتهام
فضاقت بطنه شبعاً وشالت ... الى ان كاد ينقطع الحزام
فأرسلتُ اللحاظ اليه شزراً ... وقلت له رويدك يا غلام[١١٢]
ارى اللقمات تأخذها حلالاً ... فتدخل فاك وهي به حرام
قد انتضدت بجوفك مفردات ... تخلل بينها الداء العقام[١١٣]

(١١٢) يا غلام هـذه جاءت للقافيـة ، وليس في القصيدة ما يدل على ان المخاطب صبيّ صغير .
(١١٣) لفظة (مفردات) غير شعرية والبيت ضعيف التأليف .

أتزدرد الطعـــام بغـــير مضـــغ ... على ايام صحتك الســـلام[114]

فـــلا تأكـــل طعـــامك بازدراد ... معاجلـــة فيأكلـــك الطعـــام

ألا ان الطعـــــام دواء داء ... بـــه ابتليت من القدم الأنام[115]

فداو ســـقام جوعك عن كفـــاف ... فاكثـــار الدواء هـــو الســـقام

ومـــا اكـــل المطـــاعم لالتـــذاذ ... ولـــكن للحيـــاة بهـــا دوام[116]

طعـــام الناس اعجب ما أحبّـــوا ... فمنـــه حياتهم وبـــه الحمـــام

يقـــودهم الزمـــان الى المنـــايا ... وما غير الطعام لهـــم زمام[117]

واعجب منـــه ان الناس رامـــوا ... تنوّعـــه ألا بئس المـــرام[118]

اذا استعصى القفـــار عليك اكلاً ... كفـــاك من القـــراح لـــه ادام

حذار حـــذار من جشـــع فاني ... رأيت الناس اجشـــعها اللئـــام[119]

وأغبى العالمـــين فتـــى اكـــول ... لفطنتـــه ببطنتـــه انهـــزام

---

(١١٤) قوله (على أيام صحتك السلام) عامي اللهجة والمعنى ٠

(١١٥) هذا البيت ينبغي حذفه فلا مورد للابتلاء والداء والدواء في هـذا المقام ٠٠

(١١٦) في هذا البيت انكار لمـكانة الاذواق والشهوات واثرها في حيـاة الناس ٠٠ في حين انه لا تعارض بين اللذة وادامة الحياة ٠٠

(١١٧) المعنى الذي اورده الشاعر ظاهر التكرار ، فالذي قبله يدلّ عليه ، وقد تكرر ذلك أيضا في غير بيت من القصيدة فكأن الشاعر نصب قدره على اثفية واحدة فظلّ يكرر المعنى الواحد يبدئه ويعيده فيّ حين انه من البديهيات الظاهرة ٠٠

(١١٨) ليس في الامر ما يدعو الى العجب ٠ و (بئس المرام) مما نظمته القافية لا مما نظمه الشاعر ، والبيت حريّ بالحذف ٠ ولـكن الذي يليه جاء بليغاً فخماً ٠٠

(١١٩) هـذا البيت من عيون الشـعر ، والالتفات فيه الى هجو اللئـام رائع جداً ٠

ولو اني استطعت صيام دهري | لصمت فكان ديدني الصيام[120]
ولكن لا اصوم صيام قوم | تكاثر في فطورهم الطعام[121]
فان وضح النهار طووا جياعاً | وقد نهموا اذا اختلط الظلام
وقالوا يا نهار لئن تجعنا | فان الليل منك لنا انتقام[122]
وناموا متخمين على امتلاء | وقد يتجشّأون وهم نيام[123]
فقل للصائمين أداءَ فرضٍ | ألا ما هكذا فرض الصيام[124]

---

(١٢٠) قوله (فكان ديدني الصيام) فضلة في الكلام استدعته القافية لسد الفراغ ٠

(١٢١) هذا البيت والذي يليه من الشعر الفصيح وقد استوعب فيهما الشاعر معاني جليلة ٠

(١٢٢) هذا البيت ظاهر الركة تافه المعنى ، وكذلك فهو ليس من هزل القول ولا من جده ٠٠

(١٢٣) البيت جميل التخيل حسن التأليف نافذ السخرية ٠

(١٢٤) في هذا البيت وصف موفق لتعيين معنى الصوم في الاسلام ٠

٥٤) تحية سركيس

قصيدة ألقاها في حفلة اقيمت في القدس لتكريم الكاتب الشهير ـ يومئذ ـ سليم سركيس • وبالرغم من ان الشاعر نظمها في القدس فانها لم تكن من الشعر الموفق ، فالعامية طاغية فيها والركاكة ظاهرة عليها والاعياء ملحوظ في تراكيبها ، قال :

كم فاضل أكبرته قبل اللقـا فسجرت فيـه من الثناء وطيسا
حتى اذا كان اللقـاء وجدت ما يعزى اليه من العلى معكوسـا
الاّ الفتى سركيس إي وتشرّفي بلقـائه الاّ الفتى سركيسـا

لفظة فاضل هذه لفظة فقهية يطلقونهـا على من وعى من العلم قسـطا غير قليل •• وهي هنا غير شعرية اصلاً ••

وعجز المطلع جزل العبارة جميل الاداء •• وحين نمرّ على البيت الثاني يتأكد لنا ان لفظة (فاضل) هذه حرية بالتبديل لأن الشاعر رآه فيمـا بعد غير جدير بتلك السمعة الطيبة ••

والشاعر هنا هدم جميع من مدحهم واطـراهم من أهـل الفضل والمـكانة واستثنى منهم ممدوحه (الفتى سركيس) •

ومدح شخص اذا استلزم ذمّ اشخاص آخرين ليس من حسن القول وانما هو مظنّة الى ذمّ الممدوح نفسه ••

اما قوله (الآن الفتى سركيس) مكررا في الصدر والعجز فانه من ذيول الكلام وليس من عرانينه ..

اما قوله في ذات البيت (اي وتشرفي بلقائه) فما أسخفه وما أركّه .. فانّ حشواً مثل هذا لما يمجه الشعر العامي بله الشعر الفصيح ..

ثم قال :

جالسته في القدس اولّ مرّة ... فأحس قلبي من هواه رسيسا

في مجلس نظم الزمان بصدره ... عقداً من الصيد الكرام نفيسا

اذ كان يسكرنا بخمر حديثه ... فيدير منه على الجلوس كؤوسا

يحيي السرور الميت منه بنكتة ... فيريك معجزة ابن مريم عيسى

الهوى والرسيس لا موقع لهما في البيت الآن اذا كان الممدوح قد بلغ من الحسن والفتنة مبلغاً يستدعي الهيام به ، ولم يكن في ظروف القصيدة ما يشير الى ذلك ، فهي قصيدة تكريمية ذات مستوى أدبي غير غرامي ، فالحديث فيها عن الهوى والرسيس جاء لسدّ الفراغ .. وقوله (أول مرة) ضرب من الحشو والعامية .. وبقية الابيات مما مرّ ظاهرة الجودة .

ثم قال :

واذا أفاض من الحديث بحكمة ... خلنا محدثنا ارسطاليسا

وهذا بيت جميل .. ثم قال :

واذا تحدث مازحاً فنكاته ... بالضحك تصفع من تراه عبوسا

هذا البيت ضعيف التأليف رغم ان الشاعر كرر به معنى سبق له (يحيي السرور الميت منه بنكتة) ويريد الشاعر ان يقول ، ان العبوس من الناس عند سماعه نكات ممدوحه يقع على جنبه من شدة الضحك فكأنّ ذلك بمثابة الصفع ، وهذا تصوير تافه عجيب ..

ثم قال :

لو يستدرّ يد الشحيح بظـرفه   يوماً لجـاد لـه وحلّ الـكيسا

وهو كلام عامي اللهجة سخيف التمثيل •• وما يلي ذلك من الابيـات ظاهر الركة والفجاجة ، لاسيما قوله في ختامها :

قمنـا لفضلك يا سليم تجلة   نحني الظهـور مطأطئين رؤوسا

٥٥) الى البلاغ

قصيدة بعث بها وهو في الآستانة الى محمد الباقر صاحب جريدة البلاغ في بيروت .. وهي ذات أبيات جزلة وفيها ضروب من المعاني ذات الخيال الجميل والأداء الموفق .. قال الشاعر :

أباقر لم تدع للقوم عذراً ... بما أصدرت من حجج البلاغ
فقد صغت النصائح خالصات ... فجاءت وهي فائقة المصاغ
واوضحت الحقائق رائقات ... لدى الأذواق طيبة المساغ
ولكن اين من يصغي ومن ذا ... نحاول منه قلباً غير صاغ

جمع بين يصغي وصاغ اما الاولى فمن الاصغاء وهو الميل بالسمع الى حديث المتحدث ، واما الأخرى فهي الانحراف عن الجادة ، وليس في هذا الطباق هنا فائدة ينتفع منها المعنى بشيء من الوضوح والتبيان .. وبهذا جاء البيت غامضاً ، والمبالغة التي اوردها الشاعر لنفي من يصغي ومن هو ذو قلب سليم كانت من نوع مبالغات الوعاظ المشبعة باليأس والقنوط من صلاح أحوال الناس .. ولكن الابيات التي جاءت قبله بارعة موفقة .

ثم قال :

لقد حلم الأديم فليت شعري ... اينفع ما تريد من الدباغ

وهو بيت فيه من الحكمة صورة رائعة •• و (حلم الأديم) اذا فسدت جلدته وتعرضت للتخرق فلا ينجح في الأديم الدباغ في مثل هذه الحالة •• والتعبير ظاهر الاشراق والقوة والسخرية على انه من الألفاظ العربية القديمة ••

ثم قال :

ألست ترى بني الاسلام امسوا　　حيـــارى بين منتصـــف وباغ

هذا البيت جيد السبك ولـكن معناه قلق مضطرب ، فان الحيرة لا تنشـــأ من المنتصف انما تنشأ من الباغي وحده فالبينية هنا ليست ذات مفهوم ••

ثم قال :

فقــوم في مقاصفهم وقومٌ　　يلوكون القفار بلا صباغ

وهذا ظاهر الجودة موفق التوزيع لمنازل الناس وظروفهم •• ثم قال :

وكم داع رأوه لهم مفيدا　　وما هو في الحقيقة غير لاغ

كان عليه ان يقول (بليغ قول) أو ما يشبهه من اللفظ من نحو (اخا بيان) و (يجيد قولاً) بدل قوله (لهم مفيدا) ليقع الانسجام بين صـــدر البيت وبين عجزه ••

وقال :

وكم صحف لهـم فغرت حلوقاً　　لتمضغهـــم بأســـنان شـــواغ

ومـــا اخذتهم نفثـــاً ولـكن　　تضـــجّ كأنهـــا الابل الرواغي

ثم قال :

على اني وان ابديت ســـخطا　　فمـــا ادعوك فيه الى الفـــراغ

فلا تترك (بلاغـك) عن ملال　　فيفرح من ملالك كل طـــاغ

فقم في القـــوم منتضياً يراعـــا يفلق هـــام ارباب الرواغ[١٢٥]

وخاطبهـــم بشقشقة المنـــادى وآونـــة بدندنـــة المنـــاغي

فأنت فتى اذا بلّغـــت امـــراً تؤيدك البـــلاغة في البـــلاغ

وانت وان خلقت نحيف جسم تفوق ســـواك في كبر الدماغ

وهي أبيات لا تخلو من الجودة والسلاسة ..

(١٢٥) ارباب الرواغ ، يريد بهم المراوغين ولـكن التعبير لم يجيء موفقا من جراء استعمال (ارباب) هذه ، فهي مما يرد غالبا في ما يضاف الى المحامد لا الى المساوىء .

٥٦) في حفلة الزهاوي

من قصائده السلسة الرقيقة قالها في الترحيب بالشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي بعد عودته الى بغداد من مصر .

قال :

أرى بغداد من بعد اغبرار ... زهت بقدوم شاعرها الزهاوي

زهت بكبيرها أدباً وعلماً ... زهت بطبيب علتها المداوي(١٢٦)

ولكن عاد محتقباً اليها ... فخار الارض والشرف السماوي(١٢٧)

فأهلاً بالحكيم وألف اهل ... بمن لازال مرشد كلّ غاوي(١٢٨)

وما الآداب في بغداد لولا ... يراع جميلها الاّ دعاوي(١٢٩)

اذا ما قال في بغداد شعراً ... رواه له بأقصى الارض راوي

تفرّد في بديع الشعر معنى ... فجلّ عن المعادل والمُساوي

---

(١٢٦) تكرار (زهت) معيب شكلا وموضوعا .

(١٢٧) لو قال (الينا) بدلاً من (اليها) لكان أدق تعبيراً فقد سبقه قوله (وكادت مصر تسبقنا) فابتعد به الكلام عن بغداد ، وأصبح من الانسب ان يقول (عاد محتقبا الينا) .

(١٢٨) لفظة (اهلا) أخذت في الاستعمال شكلا خاصا ينبغي التزامه ، فقوله (والف اهل) خطأ من هذا الوجه صوابه (والف اهلا) .

(١٢٩) هذا البيت بارع رائق المعنى جميل التضمين .

أعيـــذك ياجميل الشـــعر من ان يسوؤك نقد ارباب المَساوي[١٣٠]

يداوون السـقيم مـن المعـاني بفهم كـان اجدر بالتداوي[١٣١]

ألا لاتعجبـــنّ وهـم ذئـاب اذا ما أفزعوك بصوت عـاوي[١٣٢]

لقد نقدوا قريضك نقـــد أعمى يدلّ على الضغائن في المطاوي[١٣٣]

فأَحْمِ لهم حديد الشـعر حتى تذيق نفوسهم حـرّ المكاوي[١٣٤]

فهـم قـوم يرون الحلم عجـزاً اذا ما ناوأوك ولم تناو

ولا تضربهـم ان شـئت الاّ بضغث من نبـات الشعر ذاوي[١٣٥]

فهم مثـل الذباب يطير ذعـرا بهزّ مذبّة وهوي هـاوي

وليسـوا محوجيك الى معـين وهم ما بين مهزول وضـاوي[١٣٦]

---

(١٣٠) اضافة (جميل) الى الشعر ظاهر الابتذال ، وقد مرّ قبله قوله (بديع الشعر) ..

(١٣١) قصد الشاعر غامض في بيته .

(١٣٢) لو حذف لفظة (افزعوك) وقال عوضاً عنها ما يومىء الى النباح والعواء أو ما يشبهه لـكان ذلك أليق في مخاطبة رجل يقام له حفل التكريم ..

(١٣٣) قوله (نقد أعمى) ظاهر القصور لأن العمى لا يتنافى مع المعرفة وكان أبو العلاء المعري من اشهر النقاد واحذقهم .. ولعل الشاعر أراد ان يقول (نقداً أعمى) فلم يسعفه التعبير ..

(١٣٤) هذا البيت تافه المعنى عامي اللهجة .

(١٣٥) اجدر ان يكون قوله هذا قدحاً واهانة لممدوحه ، فليس يصحّ ان ينسب لرجل في موضع التكريم ما ينمّ عن عيب من العيوب أو يشعر بنقيصة من النقائص ..

فان اشارته على الزهاوي ان يضرب خصومه بالشعر الذي هو كالضغث الذاوي من النبات يفهم منه ان من شعر الزهاوي ما هو على هذا المستوى الضحل ، وليس شيء من هذا من مقتضيات الحفاوة بالرجل ..

وكان الأليق ان يطلب منه ان يقول فيهم من الشعر ما يكونون به عبرة لمن اعتبر بحيث تظلّ الاجيال تتغنى به .

(١٣٦) لفظة (معين) حرية بالتبديل . والقول في هذا البيت كالقول في سابقه .

فنفـــخ منـــك يجعلهم هبــاءا ويسقطهم الى سـفل المهـاوي[137]

وما احتــاج القويّ الى معـــين اذا كان الضعيف هو المقـاوي[138]

ان الرصافي لم ينصف صاحبه في هـذه القصـــيدة التي هي اشـبه شيء بالأفكوهة تنشد في المطارحات الخاصة ، ولم يكن من الملائم لمقام الاحتفاء والاطراء أن يوضع خصوم الزهاوي بين سمعه وبصره ، وأن تثار قضيتهم في مثل هـذه المناسبة ، وان ينشد في تكريمه مثل هذه المقاطيع المضحكة !

---

(١٣٧) الأسلوب العـامي ظاهر على قوله هـذا ، فوق كون المعنى عامي التصور ٠٠ والمبالغة فيه سخيفة المنحى ٠

(١٣٨) في هذا البيت من الحكمة ما يحسن استشهاده والتمثّل به ٠

٥٧) الى صاحبة الحياة الجديدة

قصيدة بعث بها الشاعر الى صاحبة مجلة الحياة الجديدة في بيروت واسمها (حبّوبة) وهي قصيدة شبه عامية ، وليس فيها من الابيات الجزلة ذات المستوى اللائق في الشعر الا ّ النزر الضئيل كقوله ـ من أبيات متفرقة ـ :

الى عـزائم نرمي بها المرامي البعيدة

الى صـلاح نداوي به فسـاد العقيدة

الشرق فيـه قيود وقد فككت قيوده

آراؤك الغـر ّ فيه صحيحة وسديدة

الا ّ الذي عاش غرّاً وطوّق الأسر جيده

ومجموع أبيات القصيدة اثنان وعشرون بيتا •• وما خلا ما نقلناه لا يعدو ان يكون من نمط ما ينظمه صغار المتأدبين كقوله ـ من أبيات متفرقة ـ :

هو الذي تدّعيه حبّوبة في الجريدة

من لايريد اموراً لهـن ّ انت مريدة

حبوبة استنشديني ان شئت كل نشيدة

الى آخر هذا النسال ••!!

٥٨) الى المتعلم

هذه القصيدة بارعة القصد رائقة البحث ، غير ان نصيب الشاعر من التوفيق فيها جاء طفيفا .. فان حكمياته لم ترقَ الى مستوى الحكميات ، من جراء ضعف تأليفها وتدافع الحشو فيها .. كقوله :

وبغاة العلوم مثل رماة الصيد فاعلم فليس مُنْمٍ كمُصْمِ

فان قوله (فاعلم) من زوائد شعراء المتفقهة وهو هنا حشو ممجوج . والتشبيه بعيد بين القبيلين ..

وكقوله :

واذا رمت في التعلم حذفاً فاترك النفس والذي هي ترمي

فقوله (والذي هي ترمي) عامي المستوى لفظا ومعنى .

واما قوله :

أطعم العقل ما اشتهاه من العلم والاّ استقأت من سوء هضم

فليس بحكمة ، والاستقاءة غير متصورة .

وقوله :

ليس في أرؤس الرجال دماغ هاضم في ذكائه كلّ علم

ليس بحكمة ، وهو أيضا لا يطّرد في الناس كلهم .. والتعليل في العجز عن استيعاب العلوم حريّ ان ينسب الى ان استمرار التحصيل لايتسع له العمر كله ، ولايتسنى للناس الانصراف الى العلم مدى الحياة ، اذ ان للحياة حقوقاً على الأحياء تشغلهم بالتزامها ووفائها .. وهذا أحرى في الدعوة الى الاختصاص

في العلم من اتهام الأدمغة بالتقصير والاطالة في الأقاويل •

واما قوله :

فمن النقص ان تحاول ان تضرب في كلّ ذي العلـــوم بســـهم

فليس من النقص ان يحاول طالب العلم ذلك ان استطاع اليه سبيلا ••

واما قوله :

واذا ما اشتغلت بالجدّ ساعات فهازل سويعة واستجمّ

فان للاستجمام اهميته في مقابلة الجدّ والانهماك في العمل ، اما المهازلة سويعة فليست مما يصحّ ان يدعى اليه في مقابلة الجدّ ، فان سنحت المهـازلة سنوحاً فذلك امر آخر ••

واما قوله :

حُسْنُ فهمِ الأخصّ اكثر نفعاً لذويه من قبـــح فهـــم الأعـمّ

فليس فيه الاّ الطباق بين الاخص والاعم والحسن والقبح ولـكن من غير جدوى ولا قصد سليم •• على ان فهم الأعم لا تقع عليه صفة القبح لأنه فهم على أي حال ولعله كان يريد (حسن فهم الأعم) •

واما قوله :

كـلّ من كانت العلوم لديه جمّة كان نفعـــه غير جمّ

فليس بصحيح ••

وقوله :

أيّ فضل لعـــالم غير بدع ليس في العلم يرتجى للمهمّ

فانه من أسلوب متفقهة الشعراء ••

ومما جاء جزلا من أبيات القصيدة قوله :

هبه أبدى من العلوم نجـــوما في ليـــال من المشـــاكل دهم

او ليس البـــدر التمـــام وان كان وحيداً يربو على الف نجم

٥٩) اليتيم المخدوع

قال هذه القصيدة في رثاء (نعيم الحلبي) وقد كان قتله (ابراهيم منيب الباچه‌چي) ببغداد في أعقاب العهد العثماني ، وهي قصيدة لاترتفع عن الشعر العامي شيئا •• وليس فيها من جيد القول الاّ النزر كقوله :

فجاء الموت ملتفعا بخزي ومِلءُ اهابه سفه ولوم

وقوله :

ولم يقتله ابراهيم فيما ارى بل ان قاتله سليم

وقوله ـ وهو مطلع القصيدة ـ :

قضى والليل معتكر بهيم ولا اهل لديه ولا حميم
قضى من غير باكية وباك ومن يبكي اذا قتل اليتيم ؟

اما الأسلوب العامي فيها فمن نحو قوله (سليم الملعون) و (بها الاشجان طافية تعوم) و (لئن لم تبك من اسف عليه سفاهتنا) و (فتبدي الى الزوراء ما يبدي الخصيم) و (يتيماً ماله ابداً زعيم) ••

وكذلك قوله :

سأبكيه ولم أعبأ بلاحٍ وأندبه وان سخط العموم[١٣٩]

(١٣٩) بكاء الرصافي على نعيم ليس من اجل انه يتيم •• فقد سبق له ان تشبب به في قصيدة جاءت في ديوانه (ص ٥٠٤) قال فيها :

أسبغ الله نعيم الحسن في وجه نعيم
قمر اغني في الاشراق عن ليل بهيم
علم الناس صحيح الحب بالطرف السقيم
يرجع السحر بعينيه الى عهد الكليم

فانه بيت ركيك .. واستعمال حرف الجزم (لم) غير صحيح في هذا المقام لانه استعمل في صدر الكلام سين الاستقبال ولا يناسب ذلك استعمال (لم) التي هي لقلب الفعل الى الماضوية ، وانما كان عليه ان يقول (ولا أعبا) .

ولماذا يسخط العموم من بكاء ذي مروءة على يتيم اغتيل غيلة اذا كان هذا البكاء خالصاً لوجه الانسانية ؟!..

واما قوله :

فأطلق من مسدّسه رصاصا　　به في الرمي تنخرق الجسوم

فهو ظاهر العامية بادى السذاجة ..

ومن تعابيره الركيكة قوله (تناط بـه الوصوم) فان المعايب ليست ممـا يستعمل في وصفها (النوط) وانما يستعمل في وصفها الالصاق ونحوه .

وعلى الرغم من ان الموضوع مشجٍ بحدّ ذاته فان الشاعر لم يوفق لتجسيم الصورة الشجية له ، فجاء بما يشبه الفكاهة الباردة التي تستثير الضحك .

وقد نظم شعراء العامية يومئذ شيئا في هـذا الحادث كـان أبلغ ممـا قاله الرصافي ..

٣٦ ـ ميت الاحياء وحيّ الاموات

في قصيدته هذه معان طرية ، غير ان مستوى فريق من أبياتها واطيء ضحل المـــاء .

وكانت هذه القصيدة بحاجة الى ان يعيـد الشاعر فيهـا النظر ليحاشـيها الخطل والركة والعاميّة ..

قال الشاعر ـ وهو مطلع القصيدة ـ :

تيقظ فمـــا انت بالخالد ولا حادث الدهر بالراقد

المطابقة التي أوردها الشاعر لم تكن موفقة ، والبيت جامد الحسّ ..

وقوله (ولا حادث الدهر بالراقد) مترجم عن فكرة عامية شائعة[١٤٠] .

ومن أبياتها الجيدة قوله :

ورِدْ ما يناديك عند الصدور ألا دَرَّ درّك من وارد

وهو معنى جليل غير ان العبارة بعدت أو كادت تبعد بالسامع عن فهـم المعنى المقصود ، فان الشاعر يريد ان خير أعمــال الناس ما لا يعقبهــا الندم والحسرة ، وانما يحسّ صاحبها بنشوة الاجادة والتوفيق ..

---

(١٤٠) يقول العامة في وجوب التيقظ والحذر (الشيطان مو ميتّ) وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله (ولا حادث الدهر بالراقد ..) .

ومنها قوله :

فانّ فتى الدهر من يدعي | فتأتي اعاديه بالشاهد
ولا تك مرمى بداء السكون | فتصبح كالحجر الجامد

ومما أجاد فيه معنى وأكدى فيه تعبيراً قوله :

اذا اطردت حركات الحياة | ومرّت على نسق واحد
ولم تتنوّع أفانينها | ودامت بوجه لها بارد
ولم تتجدّد لها شملة | من السعي في الشرف التالد
فما هي الاّ حياة السوام | تجول من العيش في نافد

فهذا معنى طريف ولكن العبارة قصرت به عن ادائه فلم يجد من اللفظ ما يتمّ به القول ، فان قوله (بوجه لها بارد) قول بارد ، وقوله (في نافد) ليس بشيء وكان يريد ان يقول انها تجول في فراغ ..

وقال :

وما المرء الاّ فتى يغتدي | الى العلم في شرك صائد

وهو معنى كرره غير مرة في بعض قصائده(١٤١) والتشبيه غير موفق وأتبعه بقوله :

سعى للمعارف فاحتازها | وصاد الأنيس مع الآبد

ليس في هذا التعليل والتذييل ما يقرب أصل المعنى الى الذهن ، فان تشبيه طالب العلم بالصائد سخيف ..

ومما قاله :

وطالع أوجه أقمارها | بعين بصير لها ناقد
فأبدى الحقائق من طيّها | وألقى القيود على الشارد

---

(١٤١) قال :
وبغاة العلوم مثل رماة الصيد فاعلم فليس منهم كمصمم

وهذه أقوال لا تصدق على طالب العلم لا من بعيد ولا من قريب ، وانما هي أخيلة عابرة ..

ومما يؤخذ عليه قوله (بعزم يشقّ على الحاسد) ولفظة (الحاسد) هنا لا مورد لها وانما يشق العزم على من لا عزم له ، والحسد أمر غير هذا .. وكذلك فان الحاسد لا يشق عليه العزم انما يشق عليه ما وراءه من توفيق ..

وقال :

وان بات بات على يقظة　　　بطرف لنجم العلى راصد
واحدث مجداً طريفاً له　　　واضرب عن مجده التالد

يكرر الرصافي ـ في شعره ـ الحديث عن المجد التالد بمثل هذا الضرب من التعبير ، فانه مجدٌ على كل حال ـ كما سماه هو نفسه ـ ففيم يضرب عنه الضارب .. وكان من القول الموفق لو قال (مضافاً الى مجده التالد) فيمكن بذلك صاحب اقصوصته ان يستحوذ على الطارف والتالد وليس في ذلك من منقصة ..

ثم قال :

وما الحمق الآ هو الاتكال　　　على شرف جاء من والد
فذاك هو الحيّ حيّ الفخار　　　وان لحدته يد اللاحد

ولو بدل قوله (حيّ الفخار) فقال (عند الفخار) لكان أجود مما قال .. وعبارة (الآ هو الاتكال) واضحة فيها رداءة التعبير ..

ومن المآخذ عليه جمعه (الحقد) في قوله :

وسر بين قومك في سيرة　　　تميت الحقود من الحاقد

وهو مما اكثر من استعماله في غير مكان من شعره .. وقوله (في سيرة)

ليس بالفصيح وانما الفصيح ان يقول (سيرة) مجردة عن حرف الجر[142].
ولفظة (تميت) غير شعرية هنا ..

ومما اجاد فيه قوله :

وما يرتجى من حياة امرىء كماءٍ على سبخة راكد
وليس له في غضون الحياة سوى النفس النازل الصاعد
يغض على الجهل اجفانه ويرضى من العيش بالكاسد
فذاك هو الميت في قومه وان كان في المجلس الحاشد

اما قوله (وان كان في المجلس الحاشد) فقاصر عن ارادة ما اراده الشاعر من معنى ..

وان كون الشخص في المجلس الحاشد لا يعني انه سيد المجلس أو رئيسه فقد يكون ابعد الناس عن صدره وتكرمته ..

ولعله أراد ان يقول (ذا مجلس حاشد) فان في هذا بعض ما يريد من معنى ..

---

(١٤٢) قال :

أقمت ببلدة ملئت حقوداً علي فكل ما فيها مريب

٦١) نحن في بغداد

هذه مقطوعة من تسعة أبيات وقد جاءت جزلة الألفاظ متينة التركيب بارعة النسق ، تلوح على أسلوبها ملامح السخرية اللاذعة •• وهي من روائع شعره •

قال :

أيا سـائلا عنّا ببغـداد اننا ... بهائم في بغـداد اعوزها النبت

علت امة الغرب السماء واشرفت ... علينا فظلنا ننظر القوم من تحت

وهم ركضوا خيل المساعي وقد كبا ... بنا فرس عن مقنب السعي منبتّ

فنحـن اناس لم نزل في بطـالة ... كأنا يهـود كلّ ايامنـا سبت

خضعنا لحكام تجور وقـد حـلا ... بأفواهها من مالنـا مأكل سـحت

كما قامرتنـا ساسة الامر خدعة ... فتمّ علينـا بالخداع لهـا الدست

لماذا نخاف الموت جبنـاً فلم نقم ... الى الذبّ عنّا من امور هي الموت

اذا كنت لا القى من المـوت موئلا ... فهـل نافعي ان خفته او تهيبّت

وللموت خـير من حيـاة تشوبها ... شوائب منهـا الظلم والذل والمقت

ومما يؤخذ على الشاعر من الهنات فيهـا قوله (فظلنا ننظر القوم) وكان اجود من هذا لو قال (فصرنا) لأن هذه فيها من معنى الانتقال ما هو ملحوظ دون تلك التي اختارها الشاعر •• وكذلك قـوله (مأكل سـحت) لو عـرّفه ووصفه لـكان أبلغ من استعمال اللفظة منكرة موصوفة ، وذلك بأن يقول (المأكل السحت) فان في استعمال اللفظة معرفة في هذا المقام ما يشير الى كثرة ما أكل

من هذا السحت ، فاذا جاءت منكرة فلا دلالة لها على ذلك ، والمقام من هذه الناحية يقتضي المبالغة وهي متحققة بالتعريف ..

اما قوله :

لماذا نخاف الموت جبنا فلم نقم   الى الذب عنا من امور هي الموت

فانه ظاهر الركاكة والفجاجة ولا مجال لتعديله ورفع مستواه الا بالحذف ..

وقوله (فلم نقم) صوابه (فلا نقوم) .

وقوله :

اذا كنت لا ألقى من الموت موئلا   فهل نافعي ان خفته او تهيبت

رائع الأداء وهو معنى قديم أخذه من قول الشاعر

(وما جزعي من ان اموت وانني   لأعلم ان الموت شيء موقت)

اما قوله في ختام القصيدة (شوائب منها الظلم والذل والمقت) فما للفظة المقت هنا من مكان ..

٦٢) رقية الصريع

ينتقد الشاعر بقصيدته هذه أوضاع الحكومة العثمانية وهي من أربعين بيتا . ويشير الى ما كان من البيع والشراء في مناصبها ، وانتشار الرشوة والمظالم والفظائع .. ويتحدث عن الحكومات المتمدنة وما جاءت بـه من التقدم والرفعة وضمان الحرية للشعوب ..

والقصيدة بصورة عامة ضعيفة الاسلوب ، وليس فيها ما هو جيـد رائق سوى النزر اليسير ..

ولو اختصر الشاعر قصيدته ونقح ما فيها من الابيات الركيكة لأحسن بذلك صنعا .. ومما رك ّ من قوله :

تلك الحماقة لا حماقة مثلهـا　　　حمقا فهل هو من صحيح تعقّل

فانه بيت لا يكاد يتماسـك على الشفاه لتهافُته وتهريه ..

وكذلك كان على الشاعر ان يصـحح ألفاظ الروى التي منهـا (الغني الاجهل) و (الطراز الأكمل) و (المعاش الارذل) و (العذاب الأهول) ..

ومما جاء مهلهل النسج ضعيف التأويل قوله :

ما بالنا منهـا نخاف القتل ان　　　قمنا اما سنموت ان لم نقتل

اما ما جوّده من أبيات قصيدته فقوله ، ـ من أبيات مختارة وليست متوالية الترتيب ـ :

كيف القرار على امور حكومة　　　حادت بهن ّ عن الطريق الامثل

في الملك تفعل من فظائع جورها　　　ما لم تقـل وتقول ما لم تفعـل

وقال ـ في أمر المناصب والوظائف ـ :

تعطى مؤجلة لمـن يبتاعهـا ... ومتى انقضى الأجل المسمى يعزل
مَثَلُ الحكومة تستبد بأمرها ... مثل البناء على نقاً متهيّل

ويقول ـ في السلطان ـ :

ايكون ظل الله تارك حكمه المنصوص في آي الكتاب المنزل
ام هل يكون خليفة لرسوله ... من حاد عن هدي النبي المرسل

ويقول فيه ـ أيضا ـ :

ويروم صبرك وهو يسقيك الردى ... ويروم شكرك وهو لم يتفضل

ويقول في الأمم المتفوقة :

فسموا الى اوج العلاء ونحن لم ... نبرح نسوج الى الحضيض الأسفل
وعلوا بحيث اذا شخصنا نحوهم ... من تحتهم ضحكوا علينا من عل

ويقول في تمثال الحرية :

تمثال ناعمة الشمائل وجهها ... تزداد نوراً منه عين المجتلي

ومن المبالغات الجميلة الموفقة التي جاءت بارعة التخيل رائقة العبارة قوله :

قد أبحرت شمّ الجبال وأجبلت ... لجج البحار ونحن لم نتبدّل

اما قوله :

حتام نبقى لعبة لحكومة ... دامت تجرعنا نقيع الحنظل

فليس فيه معنى اصيل ..

وقوله :

هذا ونحن مجدّلون تجاهها ... كالفأر مرتعداً تجاه الخيطل

على سذاجة تشبيهه جيد الأداء حسن التعبير ..

٦٣) مثنيات شعرية

خمس عشرة مقطوعة ، ضمنها الشاعر شيئا من الامثال الحكيمة ولكنها غلبت عليها الضحالة وسوء التأليف ..

وما يؤخذ عليه من هناتها قوله :

فان للبشر الراقي بخلقته　　من قد انفت به اني من البشر

فلو ذكر بدلاً من (الراقي بخلقته) ما يشير الى سوء تصرفاته لكان له بذلك شيء من حسن التعليل في انفته من الانتساب الى البشر ..

وقوله (أشرّ فعل البرايا فعل منتحر) وهو أول ما بدأه من هذه المقاطيع ، فانه لا يقال في التفضيل من الشرّ والخير أشرّ وأخير وانما يقال (شر فعل البرايا ..) واستعمال الرصافي اياه بهذا اللفظ عاميّ ..

وقوله :

يا راجي الامر لم يطلب له سببا　　كيف الرماية عن قوس بلا وتر

لو قال (لم يحكم له سببا) لكان اولى ..

وقال (وانما العجز تفويض الى القدر) فان في التفويض الى القدر ما لا يخلو من دعوى سليمة ..

وقال :

ألبس حياتك احوال المحيط وكن　　كالماء يلبس ما للظرف من جدر

استعمال المحيط بمعنى البيئة استعمال شبه عامي فهو مما شاع في لغة الصحف

مؤخرا •• واستعمال (الجدر) هنا غير شعري •• وانما أراد الشاعر ان يذكر ان الماء اذا وضع في وعاء أخذ ظاهر لونه فاستعمل في هذا المعنى لفظة (الجدر) وهي غير مؤدية لهذا المعنى ••

وفي البيت دعوة صريحة الى المخاتلة والرياء وتملق الناس والرضى بأوضاع البيئة كائنة ما كانت !

وقوله (عار من الانس أو كاس من الضجر) احتفظ فيه بالمطابقة دون ان يأتي بالمثمر من المعنى ••

وقد ناقض بهذا ما أراده لنفسه من الانتساب للشاء والبقر احتجاجاً على الأناسي وانفة من الانتماء اليهم ••

ثم دعا القوم ان يلبسوا حياتهم أحوال المحيط ويتكيفوا بذات الكيفية التي يكون عليها الناس ••

ومن مثنياته قوله :

اذا نظرت الى الجزئي تصلحه فارقبه من مرقب الكلي في النظر
فانّ نفعك شخصا واحدا ربما يكون منه عموم الناس في الضرر

استعمل فيه أسلوب المناطقة ولهجة المتفقهة ، وقوله :

قد يقبح الشيء وضعا وهو من حسن كالنعش يدهش مرأى وهو من شجر

فانه تصوير باهت •• وتعبير مشوّه ••

وقوله ـ وهو جيد ـ :

فانما لمعات الخير كامنة بين الشرور كمون النار في الحجر

اما قوله :

سبحان من اوجد الاشياء واحدة وانما كثرة الاشياء في الصور

ظنّ الشارح ان الشاعر يعبر بهذا عن (وحدة الوجود) •• ولكن العبارة لا تتحمل ذلك ، وانما يريد الشاعر ان الموجودات من مادة واحدة وأصل واحد ، غير انها اختلفت صورها •• وهو من بديهيات المعاني الشائعة ••

اما قوله ـ بعده ـ :

هب منشأ القوم يبقى مبهما ابدا فهل ترى فيه عقلا غير منبهر

فلا ارتباط بين انبهار العقل وانبهام الامر في منشأ القوم •• فان منشأهم لو تكشف للعقل لكان ادعى الى انبهاره ودهشته •

واما قوله :

الحب والبغض لا تأمن خداعهما فكم هما اخذا قوماً على غرر
فالبغض يبدى كدوراً في الصفاء كما ان المحبة تبدى الصفو في الكدر

فهو معنى عرف في الشعر القديم في قول القائل :

(وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما ان عين السخط تبدى المساويا)

وقوله :

واشنع الكذب عندي ما يمازجه شيء من الصدق تمويها على الفكر
فان ابطال هذا في النهى عسر وليس ابطال محض الكذب بالعسر

لم يوفق فيه الشاعر الى القالة السليمة ، فان الكذب ظاهر وان خالطه من الصدق ما خالطه •• وابطال الكذب المخلوط بالصدق اهون من أبطال الكذب البحت وليس بأعسر منه كما قال :

واما قوله :

فالوا عشقت معيب الحسن قلت لهم كفوا الملام فما قلبي بمنزجر
ما العشق الا العمى عن عيب من عشقت هذى القلوب ولا اعني عمى البشر

فان تأليفه مضمحل ، وقوله (ولا أعني) من التكآت الشائعة ، واصل المعنى شائع مبتذل • وقوله (كفوا الملام) عبارة تقليدية عامية ••

وليس في هذه المطارحة حكمة ولا فلسفة • ثم قال :

قالوا ابن من انت يا هذا فقلت لهم اني امرؤ جده الأعلى ابو البشر
قالوا فهل نال مجداً قلت واعجبي أتسألون بمجد ليس من ثمرى ؟

ولا يقال في هذا الا انه ضرب من السفسطة والتخليط •• وقوله (يا هذا) و (واعجبي) و (ليس من ثمري) تعابير عامية الأداء ، والاملال في العبارات ظاهر ••

وقوله :

لا درّ درّ قصيد راح ينظمه … من ليس يعرف معنى الدرّ والدرر

ظاهر الخطأ ، فقد كان على الشاعر ان يقول (من ليس يفرق بين الدر والدرر) فان من لم يفرق بينهما حريّ ان يوصف بالجهل ، اما من لم يعرف معناهما ولم يعرف معنى المثين من الألفاظ والمفردات فلا يعاب على شيء من ذلك لأنه ليس في الشعراء من يلمّ بجميع الألفاظ العربية ..

اما قوله بعده :

يبكي الشعور لشعر ظلّ ينقده … من ليس يفرق بين الشعر والشعر

فانه ليس بذي بال ، واتهام ناقد ينقد الشعر بأنه لا يفرق بينه وبين شعر الجسم النابت عليه ، ظاهر التعسف ، ولا يمكن ان تكون له صورة في الذهن ..

وانه لحري بالشعور ان لا يجزع أو يبكي للشعر اذا كان ناقده على مثل الصفة التي ذكرها الرصافي ..

ان القافية هي التي دفعت الرصافي الى ان يقول هذا ..

والمثناة الأخير :

قالت (نوار) وقد انشدتها سَحَراً … ممن تعلمت نفث السحر في السحر

فقلت من سحر عينيك الذيسحرت … به المشاعر من سمع ومن بصر

فان هذه في الحق من جيد الشعر وفصيحه ورقيق الغزل وطريفه وهي تسمو على كلّ ما قاله من تلك المثنيات الخائرة القوى المتداعية البناء الضحلة المعاني .

٦٤) الى المتقاعدين من ضباط الجيش

كان المتقاعدون من ضباط الجيش قد ألفوا لأنفسهم جمعية تنظر في بعض أمورهم وتكون منتدى لهم يقطعون فيه أوقاتهم وكانت هذه هي مناسبة نظم القصيدة ..

مطلعها قوله :

عقل وتجربة وجد زائد   هذي صفات حازها المتقاعد

الزائد : تعبير عامي يراد به وصف الشيء بالكثرة ، فالجد الزائد هنا معناه الجد الكثير وليس هذا من الفصيح .

اما قوله :

جعلوا التقاعد للجنود كرامة   كي يستريح من الجهاد مجاهد

فان الكرامة لا تصلح ان تكون توطئة لما قال من استراحة المجاهد من جهاده .

ثم قال :

ليس التقاعد للرجال بطالة   ان البطالة للرجال مفاسد

معنى كون البطالة من المفاسد قديم الذيوع والورود في الشعر وكانوا يخصون ذلك بالشباب واستعمال الشاعر هذا المعنى مخصصا بالرجال ولاسيما من قضى معظم حياته في خدمة الدولة وفي غشيان غمار الحروب يعد الشاعر

فيه غير موفق ولا مصيب •• ومن الناحية التعبيرية لا يناسب البطالة الا وصفها بانها مفسدة بالافراد لا بالجمع ، وليس من حق سلطان القافية أن يتحكم في هـذه المعنى •

ثم قال :

لـكنه عمـل مفيـد نافع　　　عما تقوم بـه الحكومة حائد

وهو تركيب ظاهر الاضمحلال والتداعي ، ومجرد ألفاظ (من نحو حكومة وعمل وحائد) كتب لها ان تجتمع في هذه الصورة الباهتة •

ومما ركّ من كلامه وقصر من تمثيله قوله :

فكأنّ أشغال الحياة مراجل　　　والسعي نار والبـلاد مواقد

ومما حسن من أبياته :

كونوا جميعا في الحياة كأنكم　　　رجل اذا دهت الدواهي واحد
في الحرب طاب لـكم جلاد فلتطب　　　في السلم أعمال لـكم ومقاصد

ومما اتقن صناعته لفظا ومعنى :

ما عاب من سلّ المهنّد أنه　　　للسيف من بعد التجالد غامد

ويؤاخذ على الشاعر ـ فيما يؤاخذ عليه ـ قوله :

وتصرفوا في امرها بمهـارة　　　وذروا السيوف فانهنّ جوامد

فهو نابي المعنى ولا يحسن ان يقال في السيوف مثل هذا ، ومن حيث الصلة بين صدر البيت وعجزه فانا لا نجد بينهما من صلة •• فما معنى التصرف بمهارة ، وما معنى ترك السيوف لأنها جامدة •• في حين انّ القوم متقاعدون عن اعمالهم في الجيش ولم تبق لهم حاجة الى السيوف بطبيعة حالهم ••

والاعتراض على التصرف بمهارة لايرد من اجل هذه العبارة نفسها فان معناها واضح ، اذ اوردها بعد قوله (وتتبعوا سبل الحياة) وهو يعني التصرف في أمر الحياة ، ولـكن الاعتراض ينصبّ على العلاقة بين دعوته الى التصرف في

الحياة بمهارة وترك السيوف وهم تاركوهـا دون حاجة منهم لنصيحته في هـذا الصـدد ..

ومما جاء عامي الأداء من تعابيره قوله (الراقد الـكسلان فيها بائد) .

ومن رائع قوله :

ولربما كانت سـلاحا نافذا   عنـد اللئام دسائس ومكايد

٦٥) دار تربية الطفل

تتعاور على هذه القصيدة القوّة تارة والركاكة تارة أخرى وفيها من المعاني ما صفا وفيها ما عكر ..

فمما رقّ من أبياتها وعذب من معانيها واستقام من بنائهـا قوله في وصف الأطفال :

ومن اللؤم ان ترى عندنا الاطفـــال تفنى لأنهـــم فقـــراء
انهم غير معربين ومن حســـــن السجايا ان ترحم العجماء
علّ من لو يعيش منهم لأضحى فيـــه للناس مأمل ورجـــاء
ليس موت الاطفال هينا فقد ينـــبغ منهـــم نوابغ أذكيـــــاء

وقال في وصف الدار التي اتخذت لتربيتهم :

شأن هـــذا البناء شـــأن عظيم لم تطاوله في العلى الجوزاء
كلما قـــد رأيتـــه لمعت لي فيـــه من تحت أسّه العليـاء[١٤٣]
ولقـــد دلّ ان من شيّدوه ســـادة في طباعهـــم كرمـــاء
شكر الله سعيهم من رجـــال بلغوا من فخارهم ما شـــاءوا
سوف يبقى لهـم على الدهر ذكر فيـــه حمد لهـم وفيـــه ثنـــاء

وهذه أبيات راقية الأداء فصيحة الـكلم ، ناسبت ختـــام القصيدة خـــير مناسبة ..

(١٤٣) استعمال قد بعد كلّما ركيك ، وهو مما يكثر مثله لدى الشاعر .

ومن تعابيره الركيكة قوله (حماية عذراء) و (امه من ابيه آمت فأمست) و (لاح ذبول بجسمها وارتخاء) ويؤخذ عليه ايراد لفظة (معه) ساكنة العين في قوله (ربّ من مات منهم مات معه) ، ومما يؤخذ عليه أيضا قوله :

لا غذاء في جوفهم لا كساء   لا وطاء من تحتهم لا غطاء

فان من القواعد التي يستقيم بها بناء الجمل ان يكون لها من الروابط والفواصل ما تتضح به المقاصد التي يساق لها الكلام وتتعين المعاني المنظومة والمنثورة ، وبذلك يزول التنافر والغرابة من بين الالفاظ المجتمعة على صعيد واحد .. وقد جاء البيت غير ناظر لهذه الناحية فاذا هو مخلخل المفاصل متقطّع الأنفاس .

فان الشاعر كما هو ملحوظ حذف حروف العطف من بين الكلمات المتعاطفة في هذا البيت فأدى ذلك الى هذه الركة الظاهرة ..

اما قوله :

ان يكن فوق هذه الارض شيء   فيه قدسية فهذا البناء

فان القصر فيه ظاهر الافراط و التفريط ..

٦٦) خزانة الاوقاف

من قصائده البليغة وقد اجاد فيها وصف الاوقاف وتشخيص عللها وها هي القصيدة ذه :

للمسلمين على نزورة وفرهم ... كنز يفيض غنى من الاوقاف
كنز لو استشفوا به من دائهم ... لتوجّروا منه الدواء الشافي
ولو ابتغوا للنشء فيه ثقافة ... لتثقفوا منه بخير ثقاف
ولو ارتقوا بجناحه في عصرهم ... لأطارهم بقوادم وخوافي
لكنهم قد أهملوه وأعملوا ... في جانبيه عوامل الاتلاف
فاذا نظرت رأيت ثمة ارضه ... تجرى الرياح بها وهنّ سوافي
قد تابعوا الموتى عليه وما وقوا ... اهل الحياة به من الاجحاف
وقفوا به عند الشروط لواقف ... وتغافلوا عن حكمة الايقاف
تركوا له في العصر نفعا ظاهرا ... وتعاملوا فيه بنفع خافي
لم يستجدّوا فيه شيئا واكتفوا ... في كلّ حال منه بالسفساف
قل للذين تقيدوا بشروطه ... ماذا التوقف عند رسم عافي
غرسوه غرسا مثمراً لكن جرت ... غير الزمان فعاد كالصفصاف
هل بين شرط الواقفين وكلّ ما ... نفع العموم تناقض وتنافي
انريد ان يقفو الزمان امورنا ... وامورنا هي للزمان قوافي
الارض مسجدنا ففيم مساجد ... اضحت تعدّ اليوم **بالآلاف**
كان الصلاة بمسجد وبغيره ... في الحكم واحدة لدى **الأسلاف**

هـــلاّ جعلـن مدارســـا فيّاضة ... من كلّ علـــم بالزلال الصـــافي
يتنابها ابنـــاؤكم كي يأخـــذوا ... من كـــلّ فنّ بالنصيب الوافي
فيفيض فيض العلم حتى يرتوى ... منـــه بنـــو الامصـار والارياف
ان لم يكن شرف البلاد محصّنا ... بالعلم كـــان مهـــدد الأطراف
واذا النفوس تسافلت من جهلها ... لم يعلهـــا شـــمم على الآناف
هـــذى الخزانة انشئت فبناؤهـــا ... للأمـــر فيـــه تـــدارك وتلافي
ايظنّ ذو عقـــل بأنّ بناءهـــا ... امـــر لشرط الواقفـــين منـــافي
تالله ليس بمنكـــــر تشـــييدها ... الاّ امرؤ خـــال من الانصـــاف
أحيوا بها عصـــر العلوم لدولة ... خلفاؤها من آل عبـــد منـــاف
عصر الرشيد ابي الخلائف اذ غدت ... بغـــداد رافلة بمجـــد ضـــافي
في عهـــد فيصلنا المعظـــم انشئت ... علمـــا يشـــير لأشرف الأهـــداف
فاذا هتفت بحمـــده وبشـــكره ... ردّ الصـــدى بنيانهـــا لهتـــافي
ناديت طـــلاّب العلوم مؤرخـــا ... حجوا بنـــاء خـــزانة الاوقاف

اما ما يؤاخذ عليه فقوله (وقفوا به عنـد الشروط لواقف) فان الشاعر ضاقت عبارته عن اضافة الشروط الى الواقف فجاء بها على وجهها الركيك •

وقوله :

الارض مسجدنا ففيم مساجد ... امست تعـــدّ اليوم بالآلاف

فليس فيه شيء جديد ، فان الارض لا تزال هي مساجد الناس ، وليس في بناء المساجد وتأسيسها ما يلغي طبيعة كون الارض مسجداً لمن يصلي •

وكيف يتسنى للناس ان يصلوا ان لم تخصص مساجد يصلون فيها ؟ فهل يصح ذوقاً ان يتجمعوا فيصلوا في الشوارع والاسواق فيعطلوا على الناس بيعهم وشراءهم وسابلتهم ••

ان مسألة انشـــاء المساجد مسألة قضت بها الشريعة نفسها وليست هي من قضاء الناس • ولذلك فلا فلسفة مقبولة لقول الشاعر هذا ••

وما قاله الشاعر بعد ذلك حين قال :

هلاّ جعلن مدارسا فياضة ... من كل علم بالزلال الصافي

ينتابها ابناؤكم كي يأخذوا ... من كل فنٍّ بالنصيب الوافي

لا يحتجن حقيقة من الحقائق ، فان هذه المساجد لم تكن الاّ مدارس للتفقه في الدين وعلوم العربية وآدابها بل انها درّست الحساب والمنطق والفلك لأياً من الدهر •• وما الرصافي الشاعر نفسه الاّ من طلابها ولولا هذه المساجد لما بقيت للعربية باقية فلقد حدبت عليها أعظم انحدب دون عوادي الغزاة والمدمرين ••

فدعوى الرصافي هنا ليست الاّ مغالطة ظاهرة ونكراناً لجميل هذه البنيّات (الكريمة على الله) •• اما ان يريد الشاعر بذلك الغاء صفة المسجد من المسجد ليكون نمطا من أنماط المدارس الابتدائية والثانوية ونحوها فهل كان الشاعر يرى ان الارض شحت على تلك المدارس ، فذهب يعرج على المساجد ليزيل ذلك الشحّ بهذا الضرب من الجود ••

اما قوله :

هذي الخزانة أنشئت فبناؤها ... للأمر فيه تدارك وتلافي

فهو بعيد كلّ البعد ان يطابق حقيقة الأمر •• فانّ هذه الكتب نقلت من المساجد وجمعت في تلك البناية التي اتخذت مكتبة عامة للمطالعين ، وحين كانت في المساجد كان ذلك دليلا على ما نهدت اليه من الحرص على العلم واحتضان مصادره ومدوّناته ، وكان طلاب العلم يعكفون على مدارسة هذه المراجع ويأخذون من كلّ فنّ فيها بالنصيب الوافي (على حدّ قول الشاعر) •• فلما نقلت الى مكان آخر وافرغت منها اروقة المساجد كان ذلك اولى ان يكون حجة على من يدعو الى جعل المساجد مدارس ••• فهل كان معنى وجود هذه الكتب فيها الاّ انها كانت مدارس فعلا ••

اما قوله :

أيظنّ ذو عقل بأنّ بناءها ... امر لشرط الواقفين منافي

فلقد حدثت يومئذ ضجة في الاوساط الدينية حـول اخـراج الـكتب من المساجد وجمعها في مكتبة واحدة وكانت ضجة بلغت اروقة المجلس النيابي وانتهت بما انتهت اليه من تحقيق هذه الفكرة •• وهي في الحقيقة فكرة رشيدة وان لم تؤت ثمارها العلمية حتى اليوم •• وحريّ ان يقال أيضا ان تلك الـكتب لو لبثت في قماطرها حيث كانت في المساجد لـكانت اليوم شذر مذر ، على كلّ رفّ في بيوت القوم منها مجموعة •

في الواقع ان هذه القصيدة قصيدة عصماء بكل معنى الـكلمة بما اورد فيها الشاعر من رائق المعاني وفصيح الألفاظ وبليغ التراكيب ••

٦٧) التعصب الوطني للأدب

في هذه القصيدة يعرض الشاعر لدأب المصريين في تقـــدير كل ما هو مصري ، وقد فصّل الشاعر الأمر فجاء أشـــبه بالصورة المصورة .. والقصيدة ظاهرة السلاسة ويلاحظ ان بعض تعابيرها لاذعة الاسلوب ، وهي من بليغ الشعر ورائقه . قال :

من جور مصر على العروبة انهـــا ... تتعمّــد التمصــير في آدابهـــا
وتحيد عن آداب كـــلّ قبيلة ... لم تنتحلها مصـــر في أنسابهـــا
فترى بمصـــر تعصبا لأديبهـــا ... متوالي النزغـــات في أعصـــابها
فاذكر أولى الآداب من غير الألى ... في مصر يغضب منك اهل جنابها
وأشدْ بمن في غير مصر منوّهاً ... ما ان ترى فيها القولك آبهـــا
تحفى بمنشدها القـــريب وتدّعي ... ان لن يكون له البعيد مشـــابها
فالشاعر المصـــريّ فيهـــا فاضل ... وسواه مفضول وان يك نابهـــا
وكأنمـــا أمست مواهب ربّنـــا ... مقصـــورة فيهـــا على كتّابهـــا
هـــذا لعمر الله جورٌ عـــدّه ... من فرط ضلّتها أولوا ألبابهـــا
آداب كـــلّ معاشـــر كعلومهم ... جلّت عن الاوطان في استنسابها
للعلم والآداب في كـــلّ الورى ... دار محرّمة إِجافة بابهـــا[١٤٤]
من اين كانت مصر في اقباطهـــا ... كمواطن الأعراب في اعرابهـــا
أبت العروبة ان يفوق هزارهـــا ... صُرَدٌ زقى في مصر زقي غرابها

(١٤٤) اجافة الباب ، اغلاقه ..

٦٨) عتاب وولاء

القصيدة من مطولاته وهي مما نظمه في الهزيع الأخير من حياته ، وقوامها اربعة وستون بيتا •• قالها في شاعر من ضباط الجيش يومئذ •• وقد كان ملظاً بالرصافي •

وفي القصيدة ضروب من الأساليب منها الضخم ومنها الهزيل المعروق •• وقد ظهرت فيها صور من مبالغات الشاعر واطنابه ، والرصافي ساذج من هذه الناحية فهو لا يحبّ احبابه هوناً ما ولا يبغض خصومه هوناً ما •• فاذا امتدح من أحب افرط في امتداحه وكذلك يفعل اذا هجا من كره •• وربما كان ذلك سجيّة كثير من الشعراء •

فها هو ذا يصف صاحبه بأنه الشاعر الصادق الاحساس والشهم ذو الأدب الزاكي بمحتده وانه فرع الذؤابة من علياء عدنان وانه زكيّ النفس ، واليافع الذي به شرخ الشباب ريان من الشرف المزدان بالمجد ، وانه الأديب الذي باهر بسيرته كل الكواكب وكانت مكارمه تباهي أهل المكارم •• وقال فيه ـ ايضا ـ انه الشاعر الذي تطرب الدنيا نشائده وانه ينوط بالسمع من ألفاظ شعره درراً •

وهي مبالغات ظاهرة الافراط •• وقد جاءت في القصيدة أبيات ساذجة الوصف • كقوله :

من جاءني بقواف جدّ زاهية ... كمثل ازهار روض ذات ألوان

قد زانهنّ بوشي من بدائعه ... حتى اتّسقن بأنغام وأوزان

لما شـدون بموسيقى براعتـه مازجن في الشدو ألحانا بألحان

فليس في هذا محصّل من معنى ..

ثم تطرق الشاعر الى مخاطبة الوطن ، ولـكنه لم يوفق لرفع قصيدته الى مستوى وجداني تتحسسه الاذواق السليمة ، ذلك لضـعف الحسّن البيـاني في أبياتها .. خلا ما ندر . ومن المآخذ عليه قوله :

يا شاعرا تطرب الدنيا نشـائده كيف ابتدعت نشيداً هاج أشجاني

وكان اولى ان يقول (قد ابتدعت) لتصح مخاطبته بما خاطبه به من وصفه بالشاعر الذي تطرب الدنيا أناشيده ، والاّ فلا يتلاءم ان يسميه هـذه التسمية ثم يعجب كيف نظم قصيدة هاجته ..

ومما اجاد في تأليفه ، ـ قوله في الاوطان ـ :

أخلصت حبي لها حتى نسيت به نفسي واهلي واحبابي وخلاّني

وقوله (غير انه ساذج عامي الفكرة) :

ان سرّك الدهـر يوما سرّني واذا آذاك بالمزعجات الدهـر آذاني[١٤٥]

ما ضرّني انّ كلّ الناس تحقـرني ان كنت انت جليل القدر والشـان

وقوله :

آليت منذ بلغت الحلم في وطني أن لا اقابل نعمـاه بكفران

وقوله ، وقد اجاد صياغته ـ :

اني ألفت على الايام مخمصتي فالنعم والبؤس عندي اليوم سيان

ووردت أبيات تناقض فيها الشاعر في اللأي الواحد :

يا لاهجـين بشتمي في مجالسكم ناموا على الأمن في أحضان غفراني

لولا ترفّع نفسي عـن سفاهتكم أحرقتكم من لظى هجوي بنيران

جادلتموني فمـا أحسنتم جـدلي حتى بذيتم بذاء الماجن الخـاني

وخضتم الباطل المبـدي بنعرته شتى الأقاويل من زور وبهتـان

تأبى المـروءة الاّ ان اخالفكم فالغشّ ديدانكم والنصح ديداني

ولا اريد قصاصـاً من شتائمكم بل أتبع العفو عنها بعض احسان

(١٤٥) تكرار الدهر معيب وكان أحسن منه وصف المزعجات بكلمة مناسبة تسوية لوزن البيت وانزالاً للعبارة في منزلتها الرصينة .

ثم قال في نفس المقام :

يا منتمين الى عرب وهم عجـــم | من كلّ احمر هيّان بن بيّان
سمج الملامح في عثنونه صــــهب | مستعجم القول جافي الطبع مرطان
كيف استويتم صقوراً في مجاثمكم | ولستم في الســـجايا غير غربان
وما بكم غير قـــرد في جبلّتـــه | وان يكن جاء في مسلاخ انسان
اذا تسميتم عـــربا فـــلا عجب | في ان يسمى ابن آوى باسم سرحان
تستنشرون صـــغارا في معاطسكم | وتشمخون الى آفـــاق كيـــوان
كم تظهـــرون عفـــافا في تدينكم | وتضمرون ضـمير الفاجر الزاني
لو كان في الجـنّ شيء من خبائثكم | لعـــاذ بالله منهـــا كلّ شيطان

فقد خرج آخره عن اوله .. وظاهر" ان الشاعر وادَعَ القوم وتنازل لهم عن المقاصّة وأتبع سيّء عملهم بما زعم من عفوه واحسانه ، وكان ـ كذلك ـ قد هنّأهم بالنوم في احضان غفرانه . وها هو ذا بعد ان لم يجف حبر ابياته ينثال عليهم بهجوه وسبابه ، فأين بات غفرانه وترفّعـــه عن سفاهتهم ان ثبتت لهـــم السفاهة ؟.

مما هو ظاهر من سيرة الشاعر انه كان يستعظم نقد الناس له فيتجسم عنده القول اليسير ويكثر اضطرابه فيقع في مثل هذه الحيرة من التعلق بعدم المبالاة والصفح عن اولئك الثالبين ، ثم لا يجد الاّ ان يأخذهم باللهجة القاسية المشوبة بالاتهامات العجيبة والبذاءات السمجة .. وهذا النمط من ديدن الشاعر ظاهر في غير قليل من قصائده . .

ومن مبالغاته الساذجة التي لا تصلح ان تكون امارة من امارات المدح قوله :

ذاك الأديب الذي باهى بسيرته | كلّ الكواكب من قاص ومن دان

ومما جاء ظاهر التعبير عن فرط جزعه ـ والشاعر معروف بشدة الجزع للحوادث ـ قوله :

يا قوم اني من الدنيا ضحيتكم | فقرّبوا من حياتي كل قربان

ويصف الشاعر نفسه بقوله :

اعيش عيشة (غندى) وهو ذو جدة　　في الهند يمشي وئيداً شبه عريان

فانه تشبيه فه ..

وقوله :

وان ذكر الفتى بعد الممات بما　　يحيي الثناء عليه عمره الثاني

منقول المعنى ــ والنصّ ــ من شعر مشهور ..

ومما ركّ من تعابيره وقصر عن الأداء البليغ قوله (تخليطا بألوان) و (حتى يكلمهم في رعدة) و (شعر أتى من زكيّ النفس) ..

ومما اورده من المعاني في غير موارده ، قوله :

وان لي في ابائي كلّ شائنة　　عزماً يؤيده بالله ايماني

فليس موطن الاستشهاد بالايمان هو هذا الموطن ..

وقوله :

وما الطعام بمأكول للذته　　وانما هو تقويم لأبدان

وهو معنى أكثر من تكراره رغم انه غير مطابق لطبيعة الحياة فانّ للذة شأنا يحمل النفوس على تقبل هذه الأغذية والانتفاع بها ، وانما يؤكل الطعام للذته حتما وقد قال الرصافي في هذا ــ من قبل ــ :

وأقنع بالقوت الزهيد لطيبه　　حذار وقوعي في خبيث المطاعم

والمعنى المنقود ورد مثله في قوله :

وما أكل المطاعم لالتذاذ　　ولكن للحياة بها دوام

٦٩) مناجاة وشكوى

هذه القصيدة موجهة الى الشاعر محمد مهدي الجواهري وهي مقولة في مدحه آونة ، وفي التشكي من ظروف خاصة آونة أخرى ..

وقد بدأها بقوله :

أقول لربّ الشعر مُهدي الجواهر　　　الى كم تناغي بالقوافي السواحر

وانما هو (مَهدي الجواهري) ولقد سُمعت بهذا اللفظ يوم نظمت ونشرت في بغداد ..

ومما قصر في ادائه قوله :

أترجو من الحساد عونا وناصرا　　　فتدعو منهم خاذلاً غير ناصر

وانما ينبغي ان يقول (ناصرا غير خاذل) أي انك لن تجد فيهم الناصر الذي لا يخذلك فانهم حساد لا يرجى منهم العون والنصير ..

وقال :

رمتهم يد الايام من جشع بهم　　　ومن بطرٍ فيهم بداء الضرائر

بداءين قتّالين حمّت نفوسهم　　　فساد السجايا وانمساخ العناصر

البيت الاول حسن التأليف بارع المعنى .. ولكنه ذكر بعده داءين آخرين وصفهما بأنهما قتّالان وهما فساد السجايا وانمساخ العناصر . فاذا كان قد اورد هذا على وجه التفسير فانه ظاهر الخطأ والتقصير .. واذا كان أراد تعداد ادوائهم الاخرى فليس هذا مكانه اما انمساخ العناصر فمصطلح عجيب .

وقال :

وقد فرقت اهواءهم في بلادهم   أنانيّة حلّت عقـــود الأواصر

وقد كان ينبغي وصف الأنانية بغير ما وصفها به من حلّ عقود الأواصر اذ انه كان قد بدأ الـكلام بما فعلته الانانية فيهم من تفرق الأهواء ، وليس في اعادة ذلك ــ في وصف الانانية ــ مزيد من معنى ..

وقال :

لذاك ترى كلاّ يعيش لنفســـه   على عكس عيش عند اهل الحواضر

استعمال (عند) في هذا المقام ظاهر الركاكة ، فهي حرف زائد جـــاء به ما يستلزمه استقامة البيت من بعض الألفاظ ..

وقال :

اذا جئتهم ابدوا اليك بشاشة   وحسن ابتسام من ثغور مواكر

لا توصف الثغور مثل هذا الوصف .. اما عطف (حسن ابتســـام) على البشاشة فضرب من اللغو .. على ان الابتسام لا يوصف بالحسن ..

ومما استقام له من بناء أبياته قوله :

وسوف تراهم من تمادي ضلالهم   يعودون في العقبى بصفقة خاسر

اما قوله :

ونزّه بليغ الشعر عنهم بتركه   لـكلّ كـذوب بينهـم متشاعر

فانّ وصف الـكذوب بالمتشاعر لا يقتضيه البيان وانمـا كان ممـــا صنعته القافية ، على ان اصل المعنى غامض ..

اما قوله :

سلـكت بحور الشعر قبلك خائضاً   لعمرك منهـــا كل طـــام وزاخر

وسيرت من غـــرّ القوافي بلجّها   قصـائد سارت كالسفين المواخـر

فانهما بيتان فيهما من حسن الصياغة وقوة الأداء ما هو ملحوظ •• غير ان وصف القوافي في هذا المقام بأنها غرّ لا مورد له ولا مناسبة • واستعماله لفظة (سارت) بعد ان قال (سيّرت) معيب •• فان التكرار اذا وقع في الكلام فانه لا يقع جزافاً عند البلغاء انما يكون لوقوعه قصد ونكتة • وليس في (سارت) شيء من هذا المعنى ••

اما قوله :

بكيت بها المجد المضاع بأدمع　　　من الشعر شروى اللؤلؤ المتناثر

فانه أكثر من مثل هذا التشبيه غير مرة وهو مما لا يصحّ ان يقع من شاعر يتحدث عن نفسه •• اما لفظة (شروى) فهي على رغم فصاحتها ليست ذات حسّ شعريّ •• ولو قال (مثل اللؤلؤ •••) لكان أحسن اختيار اللفظ ••

ومما لم يرد مورده الأصيل من تعابيره وأوصافه قوله (القوافي السواحر) و (الدياجي الكوافر) و (الوحوش النوافر) •

واما قوله :

فترسلها غـرّاً هواتف بالعلى　　　يزوّد منها سمعه كلّ شاعر

فلو قال (يشنف منها سمعه) لأحسن وضع اللفظ في نصابه • واما الهواتف بالعلى فهو معنى غير بيّن •

ثم رجع فقال :

وتشدو بها والقوم صمٌ عن العلى　　　فلم تلق الاّ غير واعٍ وذاكر

ولا معنى للصمم عن العلى ••

وقوله :

كما راعني منهم تماسيح خسّة　　　تريد ازدرادي بالحلوق الفواغر

فانه ضحل الخيال عاميّ المنحى ••

وقوله :

فقابلتهم بالصفح عنهم ترفعا وأعرضت عن شتم السفيه المهاتر

وهي قالة يكثر من قولها منّاً منه على خصومه فيما يرى •• ومن يقرأ للشاعر مثل قوله (واعرضت عن شتم السفيه المهاتر) يخال ان الشاعر كان عرضة لاهانات الناس وتحرشهم به ونبزهم شخصه بالتهم والقبائح ••

وما ختم به القصيدة كان بليغ الأداء رائق المعاني :

أنا اليوم من هذى الحياة على شفاً أشارف منه مرقدي في المقابر
سأرحل عنهم عائذا من شرورهم برب كريم قابل التوب غافر

ومما قاله فناقض به فكرةً معروفة عنه •• :

ونحت على الماضي الذي كان زاهرا مناحة ربّات الحجال الحرائر

فهو بيت جاء موفق السبك جميل المعنى •• ولكنه يناقض ما كان يكرره من العزوف عن تالد الامجاد وعدم التغني بها ••

٧٠) في حفلة الميلاد النبوي

من روائع شعره وفصيح قصائده وقد جاءت في الديوان مشحونة بالأغلاط المطبعية المشوّهة ، وفيما ههنا نثبتها على نصها الصحيح •• على أن صدر المطلع منقول من معتوق الموسوي ••

قال :

وضح الحــقّ واستقام السـبيل بعظيـم هــو النبي الرســول

قام يدعو الى الهدى بكتــاب عــربيّ قــرآنه ترتيــل

طالباً غاية من المجد قصــوى صدّه عن بلوغهــا مستحيل

ووصولاً الى مقــام رفيــع عزّ من قبله اليــه الوصول

همة دونهــا الـكواكب نوراً واعتــلاء يعلو بهــا ويطول

جرّد الله منـــه للحق سيفا كان ضدّين حــدّه والفلول

فيـــه عزم للمهلـكات قحوم واصطبــار للنائبــات حمول

ودهــاء لو ماكرته دواهي الدهـــر طرّاً لاغتالها منــه غــول

تدلهمّ الخطوب والرأي منــه في دجاهــا كأنه قنــديل

كلّ اوصـــافه الجليلة بدع فهــو من عبقــرية مجبـول

أطلق الناس من تقاليد جهل كلّ فرد منهــا بهــا مغلول

وشفاهم بهــديه من ضــلال كلّ فرد منهـم بــه معلول

أنهض القوم للعـــلاء وكانت في دنى القوم رقدة وخمول

فاستفاقت به على الدهر يقظى همم يعربية وعقول
تلك في الدين نهضة هي للعقل انتباه وللهدى تأثيل
نهضة عالمية في وغاها من امام البعير فرّ الفيل
هي كالبرق سرعة والتماعاً كل افق بفضلها مشمول
خضعت فارس لها عن صغار وتداعى ايوانها المستطيل
والى اليوم قام في الهند منها أثر مثل طودها لا يزول
يعرف النيل فضلها وعلاها من قديم ويشهد الدردنيل
وبها الارض والسماوات ترضى وتقرّ التوراة والانجيل
غير انّا عن نهجها اليوم حدنا واستحلنا وكل حال تحول
حيث عدنا وفي النهوض قعود ورجعنا وفي الصعود نزول
واختلفنا في الدين حتى افترقنا فرقاً لا يسيغها المعقول
والتزمنا الفروع منه فضاعت بالتزام الفروع منه الأصول
كلّ حزب بما لديه فخور ولمن هم مخالفوه خذول
بدعٌ في حياتنا منكرات غضب الله فوقها مسدول
حالة ساءت الرسول وساءت كلّ آي بها أتانا الرسول
لو رآنا والشرّ فينا كثير مستفيض والخير نزر قليل
وثغور الضلال مبتسمات ووجوه الهدى عليها محول
والدعاوى في الحق منّا كبار طال فيها التزمير والتطبيل
نعبد الله والعبادة لحن عند بعض وعند بعض عويل
ونحجّ القبور كالبيت حجّاً يكثر المسح فيه والتقبيل
ونعدّ الركوع للقبر حلاًّ وهو في الدين ماله تحليل
ونزجّي الى القبور نذوراً فضحايا مسوقة وحمول
ونقول التوحيد قولاً وكلّ هو للشرك عامد وفعول
قال مستنكراً لما نحن فيه ما بهذا قد جاءني جبريل
اين دين التوحيد منكم وأين الأوب لله وحده والقفول
انا حرمت كلّ ما كان فيه شبه للأصنام او تمثيل

كل من قال منكم ان هـــذا   هو دين الاسلام فهـو جهول
لم لم تحفظوا أخـــوّة دين   جاءكم ناطقـا بهـا التنزيل
كان حبـل الاخـاء فيكم وثيقاً   كيف امسى وعقـده محلول
لست منكم بيائس بل نهوض   منكـم بعـد فتـرة مأمول
فاجمعوا الشمل ناهضـين فانّ   الكفر في الدين عجزكم والخمول

وهي فوق سلاستها وروعتها احتجن فيها الشاعر من دقائق المعاني ما جاء عرضاً مفصلاً لطبيعة المجتمع الاسلامي في عصره الراهن ••

٧١) الى العمــال

بدأ القصيدة ببديهية من البديهيات التي لا مقتضى لتثبيتها :

كلّ ما في البلاد من أموال   ليس الاّ نتيجة الأعمــــال

اما قوله :

ان يطب في حياتنــا الاجتماعية عيش فالفضل للعمـــــال

فليس في نصه معنى يطرد على كل ما يطيب في حياة الناس الاجتماعية من عيش بحيث ينسب فضله الى العمال ، ووصف الحياة بالاجتماعية ليس له فضل من معنى ..

ثم قال :

واذا كان في البــلاد ثراء   فبفضل الانتــاج والابدال

وهذه بديهية اقتصادية لا مقتضى لذكرها ..

ثم قال :

نحن خلق المقدرات وفيها   لا حياة للعاطل المكسال

اذا كان الشاعر يريد تعليلا يعلل به وجوب السعي وعدم التقاعس عن العمل والتكسب ، فان قوله هذا لا يصلح لمثل هذا القصد ، فاذا كنا خلق المقدرات فان المقدرات لا تفقه هذا المعنى فهي قد ترزق الكسول وتحرم الســـاعي المتشبث بكل هدب من أهداب الرزق ..

وتناول الشاعر بعد هذا النظامَ العام في المجتمع فأراد تحطيمه ناهجا بذلك نهجا بين الشيوعية والاشتراكية .

وقد قسا الشاعر في كثير من احكامه هذه :

عندنا اليوم في الحياة نظـام قد حوى كلّ باطل ومحال

تطرّف الشاعر في نقد النظام الاجتماعي الى الحدّ الذي وصفه فيه بأنه لم يحو الاّ الباطل والمحال ، والموضوع في الحقيقة ليس موضوع نظـام اقتصـادي يبـدّل انمـا هـو موضـوع يتصـل بالأخلاق والذمم ، فاذا عولجت هذه صلح من امور الناس ما فسد ، واذا لبثت هذه فاسدة فان النظم لا تملك ان تقوّم ما اعوج من سلوك الناس ..

فالنظم الاقتصادية القائمة لا تخلو من معـايب وهي كذلك لا تخلو من محاسن .. والذين يحسبونها من اصلها معيبة وغير سليمة ويرون ان الملكية ليست حقا للمالكين وان رؤوس الأموال ينبغي نقلها الى الدولة دون الأفراد من الناس فانّ هؤلاء يقدّرون ان الدولة لا تتعسف بأجرائها تعسف الملاّكين من أفراد الناس والمتموّلين منهم .. والخطأ ناشيء من ان الدولة انما هي دولة من أشخاص فاذا لم تسم نفوس رجال الدولة الى مستوى كريم من الأدب والفضيلة والتهذيب كان الامر اشدّ شقاءا وأطغى فتنة على من يعمل تحت امرتهم ..

ان نظرية استحواذ الدولة على كلّ شيء ينمو أو يقوم على أرض الدولة لا يحلّ من معضلات الحياة غير اليسير منها ..

ويبدو ان الشاعر لم يشأ ان يطيل القول في هذا الوجه انما انقطع عنه ثم ذهب يخوض في لجة لا تصل به الى ذات النقطة التي بدأ بها دعواه العريضة .. رغم ما اوهم من شرح النظام الذي وصفه بالباطل والمحال ، اذ قال :

حيث يسعى الفقير سعي اجير لغنيّ مسـتأثر بالغـلال

ان سعي الفقير سعي اجير للغني ولغير الغني امر مما لا يعلق به ما يدعو الى التذمر والسخط فكل انسان ينبغي ان يسعى لمعاشه ، وقد قال الرصافي نفسه هذه المقولة في ذات القصيدة :

ليس للمرء ان يعيش بلا كدّ وان كان من عظام الرجال

فما هو وجه المؤاخذة في ان يسعى الفقير سعي اجير لدى الغني ؟ . فهل كان هذا هو النظام الباطل المنبوز بالمحال ؟ واذا آل الأمر الى الدولة فهل يعفى الفقير من السعي كأجير لديها ؟.

ان الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي لا ينبغي ان تتمّ عن طـريق اسـتغلال الفقير مثل هذا الاستغلال ، واثارة الحقد في صدره على أصحاب الاموال ، فان لذلك من الأثر السيىء ما تفسد به الرجال وينفد به المال ••

والرصافي يريد ان يجهل ما في الأعمال من جدوى عامة ، فان اصحاب الغلال المستأثر بها لا يأكلونها في بطونهم غلالاً انما يعرضونها في الاسواق لتكون في متناول المستهلـكين ، ولا يكون لهم من ذلك الاّ النقـد المنقـود ، وسـائر ضروب التجارة والزراعة ليس لها من مصير غير هذا المصير ••

ووجود الاغنياء والفقراء في المجتمع لا يعدّ من العاهات الاجتماعية الاّ اذا علقت بنفوس القوم دواعي الشرّ والفساد والفتنة ••

وبديهيّ ان الاغنياء لم ينزلوا من السماء انما كانوا فقراء فسعوا ما وسعهم السعي حتى آل اليهم الغنى واليسار ، وهـذا ثابت من وقـائع التاريخ الحديث نفسه •• وانما يؤاخذ الغني ويعاقب اذا لجأ الى الغشّ فأكل السحت وغصب حق اجرائه وأكرته ، فما لم يفعل من هذا شيئا فلا سبيل عليه ••

وقول الرصافي اذ يقول :

فترى المـكثرين في طيب عيش ارغدته لهـم يـد الاقـلال

فالاستفزاز ظاهر في مثل هذه الألفاظ في حين ان المـكثرين الاّ من ندر منهم لم يصلوا الى اليسار الذي هم فيه الاّ بعد ان ذاقوا الويلات من نكد الايام وعانوا الشظف المرّ في هذي الحياة •• ومنهم من وصلت اليه الثروة بفضل جهده الشخصي وكدحه في ميادين العمل والتكسب المشروع •

وقوله :

وترى الغائصين في البحر أمسى لسواهم ما أخرجـوا من لئالي

والبيت رغم دقته وحسن التمثيل فيه فانه لا يصحّ ان يرد مورد الاحتجاج والاعتراض على الواقع الاقتصادي في الحياة ، وانما جاء الشاعر بذلك مغالطة ••

وقال :

وترى المعسرين في كلّ ارض كعبيـد والموسـرين مـوالي

وليس في هذه القالة ما يطّرد ، فانّ كلاًّ من هؤلاء الناس يشعر بضرب من الحاجة الى الآخر •• وقد يكون للمال في الناس مثل هذا السلطان ولكن ليس بالمدى البعيد الذي وضعه الشاعر ••

ثم قال :

واحد في النعيم يلهو وألفٌ   في شقاء وأبؤس واعتلال

والشاعر هنا يلجأ الى التهويل في الأمر ليقرّ في النفوس روح السخط والتبرّم ، في حين ان معضلات الأمم لا تعالج بهذا الأسلوب ••

ومما احسن فيه تعبيرا :

حالة في معاشنا أسلكتنا   طرقات المخاتل المحتال

فترانا بعضاً لبعض لبسنا   من خياناتنا مسوح الثعالي

ثم قال فكشف عن شيء مما يتلجلج في قرارة نفسه :

تلك عادٌ مستهجنات ورثنـاها قديما من العصور الخوالي

فالى كم نشقى وحتى م نبقى   هكذا في عماية وضلال

انما الحقّ مذهب الاشتراكيّة فيما يختص بالأموال

مذهب قد نحا اليه ابو ذرّ قديماً في غابر الاجيال

فالشاعر يرى ان النظام الاقتصادي القائم انما هو من مستهجنات العادات الموروثة من العصور الخوالي •• وانه كان ابداً مدعاة الشقاء والتسكع في الضلال والعماية ، والشاعر مخطىء في ذلك فان العيب ليس في ذات النظام ـ وان كان لا يخلو من عيب ـ انما العيب على ما قلنا في سلوك الناس وفي اخلاقهم لا غير ••

وصرّح الشاعر بالاشتراكية التي لم تكن تعني يومئذ الاّ ما تعنيه الشيوعية من معنى ، والاشتراكية لها في الاسلام معنى يستقر في وجدان الأفراد لا في سلطان الحكومة •

اما الحديث عن ابي ذرّ فان ابا ذرّ كان يدعو الى ضرب من التصوف يحدّ من السعي والتكسب ، ويلزم الانصراف الى طاعة الله بالتجرد من ملاذّ الدنيا وشهواتها •• وليس في شيء من ذلك معنى الاشتراكية التي يظنها الشاعر ••

ثم قال وقد أحسن سبكه :

مبدأ ذو مقاصد ضامنات ما لأهل الحياة من آمال

موصلات الى السعادة في العيش هواد الى طريق التعالي

ولكنه لا يصدق كل الصدق على المبدأ الموصوف •• وانما يكون الناس فيه اشبه بالآلة في المكينة ••

وتنبه الشاعر الى هذا فذهب يفلسف الامر بقوله :

ليس للمرء ان يعيش بلا كدّ وان كان من عظام الرجال

كل مجد يبنى على غير سعي فهو مجد مهدد بالزوال

ليس قدر الفتى من العيش الاّ قدر انتاج سعيه المتوالي

وبهذا لم يستطع الشاعر ان يبين كبير فرق بين النظام الحالي المشكوّ منه وبين النظام الاشتراكي المقترح اذ لابد من الكدّ وانه ليس قدر الفتى من عيشه الاّ بمقدار انتاجه •• وهي ذات القاعدة الشيوعية المعدلة التي تنصّ على ان من كلٍّ حسب طاقته ولكلٍّ حسب انتاجه ••

والفقير هو هو على كلتا الحالتين وفي ظلّ كل من النظامين ••

وقال فجاء بالضحل الركيك من القول :

ما رؤوس الاموال الاّ اداة للمساعي كالحبل للأحمال

مثل شدّ الأحمال شدّ المساعي ودنانيرها لها كالحبال

صاح ماذا تجدي الدنانير لولا همم الدائبين في الاشتغال

أفتأتي من الطعام بديلا أفتغني عن كسوة ونعال

وظاهر انها أقوال عامية المستوى ••

وحين استقرّ للشاعر ان يثبت نظريته الاشتراكية أو الشيوعية قال :

حاجة المرء اكلة وكساء وسوى ذاك بسطة في الكمال

فصير الانسان في مستوى البهائم لا يفرق عنها الاّ بما فضل به عليها من كساء •• فهل الأمر كذلك ؟•

اما قوله :

ان للعيش حومة في وغاها لا تحقّ الحياة لبطّال
انها مثل حومة الحرب مادارت رحاها الاّ على الابطال

فحسن التمثيل والأداء ••

ثم قال وهو مندفع في هذا المدى دون ان يدرك مغبته :

ايها العاملون ان اتحادا بينكم مرخص لكم كلّ غال
ما لعيش تشقون فيه سقاما بسوى الاتحاد من ابلال

وما قاله من بعده :

فليكن بعضكم لبعض نصيرا ومعينا له على كلّ حال

فهو قول حسن يمكن ان يوجّه الى كلّ فئة من الناس فان التعاون من محامد المساعي ••

وختم البيت بقوله :

ثم قولوا معي مقالاً رفيع الصوت فلتحي زمرة العمّال

فانه عامي الأداء والمعنى •• و (رفيع الصوت) قول ظاهر النبوّ ••

ومما مرّ من التهويش اللفظي قوله :

اكثر الناس يكدحون لقوم قعدوا في قصورهم والعلالي

اما قوله ـ وقد مرّ ـ :

ليس للمرء ان يعيش بلا كدٍّ وان كان من عظام الرجال

فقد كان قاله وهو يومئذ يتعاطى بيع السكاير على مقربة من داره بالاعظمية واراد به ان يفلسف ظرفه الذي هو فيه ، فيوحي الى نفسه ان شيئا من ذلك لا يتنافى مع عظمة الشخص اذا كان عظيما ••

وهي من القصائد التي نظمها في اخريات ايامه في الحياة ••

واذ نحن نتحدّث عن العمال فانه مما ينبغي ان يقال في هذه المناسبة ان

الاسلام كان كثير الحرص على حقوقهم شـديد النكير على من يغصبهم من ذلك شيئا •• وقد اوصاهم في ذات الوقت بوجوب الاخلاص في العمل واتقانه وعدم الغش فيه ••

ولم يشر الشاعر في مخاطبة العمال الى ما يقـع منهم من عـدم النصيحة والتسويف في المواعيد والتعسف في معاملة ذوي الحاجات ونحو ذلك من العاهات الشـائعة في أوساطهم •• وكذلك لم يدعُ الشـاعر القوم الى التزوّد بالعلم ورعاية حقّ المجتمع عليهم في الاسهام في خدمته من النواحي الاجتماعية بالاضافة الى خدمته من الناحية الصناعية •• ولم يحثهم الشـاعر الى التطور في المستوى الصناعي ليجيء انتاجهم مماثلا للانتاج الأجنبي ان لم يكن مضاهيا له ••

والسبب في كلّ هذا ان القصيدة نظمت لقصد بعيد عن هذه الامور وقد اوضحه الشـاعر حين نصّ على بطلان النظـام الحاضر وحين دعـا الى اتحـاد العمـال ••

٧٢) خواطر شاعر

تجاه شاعرية الريحاني

ألحقت هذه القصيدة بقسم الفلسفيات من الديوان •• وقد جاء مطلعها غريبا من ناحية النسق والمناسبة فهو يقول :

لعمرك ما كلّ انكسار له جبر　　　ولا كلّ سرّ يستطاع به الجهر

فما الصلة بين نفي الجبر عن كلّ ما انكسر وبين كون بعض الأسرار لا يمكن الافضاء بها ؟ • ان الجامع الوحيد بين الأمرين انهما من البديهيات الضحلة لا غير ••

ثم يقول :

لقد ضربت كفّ الحياة على الحجا　　　ستاراً فعلم القوم في كنهها نزر

جاء في شرح الشارح (ان لنا من حياتنا ستراً مسدولا على عقولنا فليس لنا من العلم بما وراء ستر الحياة الا النزر اليسير) والشارح نفسه لم يطمئن الى شرحه فانه بعد ان قال ان الستر مسدول على العقول عاد فسماه ستر الحياة •• ذلك لأنّ الستر انما يضرب على كنه الحياة لا على العقول ، وقول الشاعر يدلّ على ان المستور هو الحجا وليس كنه الحياة وهو وهم في التعبير ، وكان عليه ان يقول :

(لقد ضربت هذي الحياة لنفسها　　　ستارا فعلم القوم في كنهها نزر)

أو كان عليه ان يقول ما هو من قبيله ••

ثم قال :

فقمنا جميعـــا من وراء ستارها نقول بشوق ما وراءك يا ستر

قوله (جميعا) ليس في محله ، وكذلك قوله (بشوق) فان الملائم للمعنى هنا ان يقول (بحرص) فالشوق لاينصبّ على اكتناه ما يجهل من الامور ••

ثمّ قال :

حكت سرحة فنواء تبصر فرعها ولم ندر منها ما الأنابيش والجذر

التشبيه يفتقد المطابقة ، اما الأنابيش هذه والجـذر فانهـا ان كانت لا ترى فانها تدرى وليس في أمرها غيب ، ونفي الشاعر درايته بهذه الانابيش لا مفهوم له •• وان لـكل شجرة انابيش واصولاً وليس في شيء من ذلك سرّ تحار فيه الافهام ••

ثم قال :

وقد قال بعض القوم ان حياتنا كليلٍ وانّ الفجر مطلعه القبر

فانّه تشبيه " سخيف " ، لاسيما جعله القبر مطلعاً للفجر ، وليس في البيت من مُحَصَّلٍ غير خلط ألفاظ بألفاظ ••

ولـكن البيت الذي تلاه جيد وفيه إشراقة من حسن التعبير ودقة الصياغة لا سيما قوله (فياشدّ ما قد شاقني ذلك الفجر) ••

وتحدث الشاعر بعد هذا عن الروح حديثاً كان ممـا تكرر على لسانه في فتراتٍ شتّى ••

أمّا قوله – من بعد – :

وأعجب شأن في الحيـــاة شعورنا وأعجب شأن في الشعور هو الحجر

وهو معنى يتعلق بحدس الشاعر وحده ، وليس للشاعر في هذا البيت الاّ ما رسمه من التسلسل في ان اعجب شأن في الحياة الشعور واعجب شأن في الشعور هو الحجر •• ولعل من العجيب ان لا يرى الناس جميعـاً ان اعجب شـأن في الحياة هو هذا •

ثم قال :

وللنفس في أفق الشعور مخايلٌ ... اذا برقتْ فالفكرُ في برقها قطر

وهو ضرب من الحذلقة ..

وقوله :

وما كلُّ مشعورٍ به من شؤونها ... قديرٌ على ايضاحه المنطق الحرّ

وهو محكم الأداء ، وبهذا البيت لايكون لما قبلَهُ شأنٌ في القصيدة ..

وعاد الشاعر فكرر المعنى نفسه ثانية حين قال :

ومن خاطرات النفس ما لم يقم به ... بيانٌ ولم ينهض بأعبـــائه الشعر

وهو رغم جودته سبكاً وأداءا زائد في القصيدة .

ورجع الشاعر فكرر نفس المعنى بأكثر من بيت آخر وهذا معيب حتما ، واذا كان يحسن التكرار في شعر أو نثر فانّ هـــذا ليس محله .. لأنّ رحى القصيدة لا تدور على حبة واحدة ..

واما قوله :

ولولا قصور في اللغى عن مرامنا ... لما كان في قول المجاز لنا عذر

المجاز ليس من امارات القصور في اللغـــة ، ولـكنه اسلوب من أساليبها وضرب من ضروبها وقد تفنّن به أرباب الفصاحة في مخاطباتهم فكان ذلك دليل التفوّق والقدرة البيانية ، وليس دليل العجز بحيث يكون المجاز مما يعتـــذر منـــه ..

وقد كرر الشاعر هذا المعنى غير مرة ..

وقد اجاد الشاعر في أبياته التي وصف بها الشعر واثره في النفس وضروبه فجاء بالبدع البديع من المعاني فهو يقول :

وما الشعر الاّ كلّ ما رنّح الفتى ... كما رنحت اعطاف شاربها الخمر

وحرك فيه ساكن الوجد فاغتدى ... مهيجاً كما يستنّ في المرح المهر

فمن نفثات الشعر سجع حمامة ... على ايكة يشجي المشوق لها هدر

ومن شذرات الشعر حوم فراشة ... على الزهر في روض به ابتسم الزهر

ومن ضحكات الشعر دمعة عاشق — بها قد شكا للوصل ما فعل الهجر
ومن لمعات الشعر نظرة غادة — بنجلاء تسبي القلب في طرفها فتر
ومن جمرات الشعر رنة ثاكل — مفجعة اودى بواحدها الدهر
ومن نفحات الشعر ترجيع مطرب — تعاور مجرى صوته الخفض والنبر
وان من الشعر ائتلاق كواكب — بجنح الدجى باتت يضاحكها البدر

وهذه معان لم يوفق الشاعر حين أراد ان يقول مثلها في قصيدته (العالم شعر) ولكنه وفق فيها هنا توفيقا ظاهرا ..

وختم الشاعر القصيدة بمدح الريحاني والشهادة لشاعريته بأنها هي الشعر ..

ثم ذهب مفتخراً بشعره هو أيضاً فقال (ولم يخل قوله من ركة) :

وان لم يكن شعري من الشعر لم يكن — لعمرُ النهى للشعر عند النهى قدر

والقصيدة من الناحية الموضوعية مبعثرة الأهواء والمقاصد ، وأبعد ما فيها من شيءٍ عن شيء مضمونُها عن عنوانها .. ويبدو أنّ الشاعر وجد انه أكْثَرَ من مدح الريحاني في عددٍ من قصائده فمالَ الى التخفيف من ذلك فجاءت القصيدة على هذا الهوى ..

ومن ظنّ انّ هذا من التجدد في الشعر فلا يزال ما ظنّه ظنّاً لم يبلغ رتبة اليقين ..

٧٣) وجه ابن آدم

موضوع هذه القصيدة عجيب ، فان احداً من الشعراء الأقدمين أو المحدثين لم ينظم في الوجه قصيدة ذات أربعة وعشرين بيتا غير الرصافي ..

وقد حشرت بين قصائده (الفلسفية) على ما سميت به في الديوان ..

وفيها أبيات تنطوي على معان رائعة وحكم سديدة ، وفيها كذلك أبيات ليس بينها وبين الفلسفة وشيجة من الوشائج ، وفيها كذلك معان ساذجة بلهاء ..
مطلعها :

لله سـر في الأنام مطلسم ... حار الفصيح بوصفه والأعجم

وهو بيت ظاهر الجودة ، ولكن استعمال لفظة (الوصف) ليس هذا موقعها .. والحيرة امام الاسرار لا تكون في وصفها بل تكون في استكناهها وفقهها ..

ومن أبياته الرائعة :

واذا نظرنا في العجائب نظرة ... ظهر ابن آدم وهو منها الأعظم

فانّ فيه تعبيراً فخماً لا يخلو من نكتة ..

ومما اجاد فيه وحلّق قوله :

ولربّ وجـه يستبيك بحسنه ... فتروح منه وانت صبّ مغرم
يبدو اليك وانت خلوٌ من هوى ... ويصدّ عنك وانت فيه متيّم

اما قوله :

لله في وجـــه ابن آدم حكمة   يعنـــو السفيه لها ومن يتحلّم

فانّ صدره لا بأس في صياغته اما عجزه فركيك مضمحلّ ••

والنظر في أبيات القصيدة يعين شخصيتها لمن شاء ان يتتبع ما بقي من أبياتها •

٧٤) ما وراء القبر

مما عدّ من قصائده الفلسفية ولم يكن الرجل بالفليسوف وان حاول ان يكونه ..

مطلع القصيدة :

متى تطلق الايام حرية الفكر　　فينشط فيها العقل من عقلة الأسر

ويصدع كلّ بالحقيقة ناطقا　　ويترك ما لم يدر منها لمن يدري

يفهم من هذا ان عند الرجل علماً لا يملك ابداءه ، من اجل ان حرّية الافكار مقيدة ، ولكنّ ما يلي ذلك من القصيدة يدلّ على ان الشاعر يتخبط في دياجي الجهل ، ولم يكن له من علم يستحقّ ان يبثّه في القوم ..

وبهذا لا يكون في المطلع من براعة الاستهلال شيء ، بل لا يكون بين المطلع وما بعده ائتلاف في القصد والغاية ..

قال :

جهلنا اشدّ الجهل آخر عمرنا　　كما قد جهلنا قبله اول العمر

هما ساحلا بحر من العيش مائج　　ففي أىّ امر نحن بينهما نجري

ومن اين جئنا ام الى اين قصدنا　　وفي ايّ ليل من تشككنا نسري

فما محصّل هذا من نتيجة ؟ . غير تثبيت معنى الجهل العالق بمعلوماته ، والتقصير المتشبث بأذيال مداركه ..

ثم يقول :

تسائلني نفسي وللموت صـولة ... ألا هل لـكسر الموت ويحك من جبر

لعلّ حيـاة المرء ليـل ستنجلي ... غياهبه من سـكرة الموت بالفجر

فان كـان ذا حقّا فانّ حياتنـا ... كما قيل ستر والردى كاشف الستر

وفي هذا اقرار وتركيز لمعنى الجهل الدامس في نفس الشاعر ..

ثم يعلن الشاعر اعترافه بالعجز عن ادراك شيء مما يحاول من امر هـذه الحياة فيقول (وقد جاء اداؤه سليماً بارعاً) :

لعمرك ما هذى الحياة وما الذي ... يراد بنا فيها من الخير والشرّ

نحاول علمـاً بالحيـاة وانّ ذا ... منوط الى ماليس يدرك بالفكـر

ونسلك منهـا في مجاهل قفـرة ... فنخرج من قفر وندخل في قفر

فالشاعر يعترف ان موضوع الحياة ليس مما يستوعبه الفكر ويجدد حيرته من امرها الذي يستدعي الحيرة ، فاذا كان الأمر كذلك فما معنى قوله في مطلع القصيدة :

متى تطلق الأيام حرية الفكر ... فينشط فيها العقل من عقلة الأسر

ترى ما الذي حبس على الشاعر رغبته في الانطلاق من عقلة الأسر والايغال في بواطن هذه الحياة لاكتشاف ما فيها من اسرار ؟.. وما يجدي الشاعر شيئا لو اطلقت الايام حرية الفكر فأمكنت الشاعر ان يصـدع بالحقيقة ؟. فأين هي الحقيقة المزعومة اذا كان سداها ولحمتها الجهل والعجز ..؟

اما قوله :

ارانا اذا رمنـا بيان حقيقـة ... عزينا معاذ الله فيها الى الـكفر

وهذا ضرب من ارجاف الشاعر يظنّ انه يشفع له شيئا من الجهل والعجز عن ادراك ما يحاول ادراكه من نحو هذه الأمور .. وأية حقيقة أبانها الشـاعر

فعزى فيها الى الـكفر ؟• في حين انه يعترف دائما بقصور ادراكه عن فهم أسرار الحياة واستكناه غيوبها ••

ومما اجاد فيه سبكا وصياغة واحسن به من تخير الالفاظ الفصيحة قوله :

خيال به رحنـا نعلل انفساً   هزأن به لما رجعن الى الحجر

وتغلب على الابيات الأخرى من القصيدة هنات من الركاكة والضحالة •• لم نشأ الاطالة في شأنها ••

٧٥) لو

بالامكان عدّ هذه القصيدة ضربا من طريف الشعر وجديده من حيث بدأها بحرف واحد وحشر فيها جمهرة من حكمياته الخاصة ، على ان بعض حكمه هذه رائقة المعنى بالرغم من تداعي بنائها ، وبعضها بديهيات شائعة ، وبعضها يفتقد النسق الذي ينتظمها •• وان قصيداً مثل هذا حريّ ان يمعن الشاعر في تهذيبه وايجازه ••

قال الشاعر :

لو قاس كلّ فتى سواه بنفسه فيما أراد لما تعادى اثنان

فهذه حكمة رائعة الأداء •

وقال :

لو لم يشكّ بربه متفلسف في الدين لم يحتجّ بالبرهان

فانّ الأصل فيه قول مشهور عن فيلسوف سأل احد الرعاة ما دليله على وجود الله فأجابه بأنه لا دليل له فقال الفيلسوف ان لديه الف دليل على ذلك فقال الراعي ان ذلك يدلّ على ان للفيلسوف ألف شك على وجود الله فعارضهن بهذه الأدلة ••

اما قوله :

لو ان عقل المرء يغلب حبّه للنفس لم يلجأ الى الأديان

فلا تنطبق نتيجة منه على مقدمة ، وقد عالج الشارح هذا بقوله (لاشكّ

انّ حبّ النفس هو الاصل الوحيد الذي يمكن الرجوع اليه في تعليل افعال الانسان كلها ، ومعنى البيت ان حب النفس هو الذي يدفع الانسان الى التمسك بما تقوله الأديان من الحياة الأخرى لأنه يحب الخلود لنفسه ولا يرضى لها ان تذهب سدى بعد الموت) .

وهو تفسير ضحل ، فان الأديان تحتقب من التكاليف والشعائر التي تجد النفوس فيها تحريجا شديدا على رغباتها وحاجاتها في الحياة ، وبهذا تكون الاديان أثقل عبء على النفوس ، وفي الحديث (حفّت الجنة بالمكاره) . ولكن الشاعر يريد ان حبّ النفس يحمل الناس على ان تهرع الى السماء فتنشد لطف الله لينقذها من بلوى حاقت بها أو علة نهكتها ونحو ذلك .. وكذلك يعني الشاعر ان تمسك الناس بالعبادات من صلاة وصيام وغير ذلك من الشعائر انما ينبعث من الحرص على سلامة النفس واستجلاب الخير لها .. وكأنّ الشاعر يريد ان يشير الى ان بعض الأمور لو وكلت الى العقول لعالجتها على خطتها الخاصة ولكن العواطف النفسية تتغلب على العقل فتحدّ من سلطانه وتمضي هي في سبيلها الروحي كما تشاء ..

والبيت من اصله مضمحلّ ركيك ..

وقال :

لولا جمود في الشرائع مهلك   لتغيرت بتغير الازمان

وصف الجمود بأنه مهلك ضحل المعنى وهو حشو ظاهر ، اما القاعدة التي وضعها فانّ الواقع يبطلها فان الاديان طالما تغيرت وتطورت ، وليس شيء من هذا يحسن ان يغيب عن بال الشاعر الفقيه ..

ومما قاله :

لو حكّم العقلَ الحجيجُ بحجّهم   أبوا الطواف بتلكم الجدران

يقول الرصافي هذا ونحوه فاذا نبزه القوم بالتجني على الدين والزندقة فيه اطال الاعوال واتهمهم بأنهم يهيجون عليه (العوام) ..

ان موضوع العقل لا يعدّ هو الأصل الأصيل في أمور الحياة ، والدعوى الى تحكيم العقل في كل شيء ضرب من التخرص •• ذلك لأنّ المؤثرات التي يتأثر بها الانسان كثيرة ومنها الغرائز المسيطرة على النفس والعقد التي تتعقد فيها وما استقرّ في كلّ نفس مما ورثته من الآباء والأجداد من نحائر واخلاق ، يضاف الى ذلك سلطان البيئة وظروف الحياة التي يحياهـــا الناس والنظم التي تفرض عليهم فرضاً والعادات التي تشيع فيهم شيوعاً ونحو ذلك مما يطول القول فيـــه ••

فان المرء يبكي لهمّ يصيبه ولو حكم العقل لما بكى ، وفي الواقع ان العقل لا شأن له في الحجر على النفوس الجازعة ان لا تبكي ، ويفـــرح الوالد لوليد يرزقه ولو حكم العقل لما فرح بمولد وليده لأنه سيموت بعد حين قد يطول وقد يقصر ••

فاقحام العقل في كل دعوى مغالطة ظاهرة ••

اما طواف الحجيج بجدران الـكعبة فانه ضرب من المنطق تتحدث بـــه النفوس عن هيامها في الله واقبالها عليه بالتوبة وليست تلـكم الجدران الاّ رمزاً رمز به الى بيت الله في الارض ، ولله في النفوس المؤمنــة بــه معنى تفهمه كلّ الفهم •• واتخاذ خطة يرمز بها الى امر من الامور أو معنى من المعاني على وجه التمثيل ليس مما يتنافى والعقل فقد كان هذا البيت نقطة في الارض تنصرف اليها النفوس وتتجه اليها الوجوه من كل حدب في هذه الدنيا •• ويكفي ذلك شعيرة الحجّ شرفاً وتساميا واجلالا ••

فما الذي يريب الشاعر من هذا ؟•

ثم نبز الشاعر قريشا بقوله :

كذبت قريش لو تقادم عهدها   في المجــد ما خدعت أبا غبشان

وابو غبشان هذا على ما قالوا رجل كان يلي سدانة الـكعبة فأسكره قصيّ ثم اشترى منه مفاتيح الـكعبة بزِق من الخمر •• وليس في هذا ما يصلح ان

يكون تكذيبا لقريش في تقادم عهدها بالمجد فانّ المجد لا يتصور في صورة واحدة لا تعدو سدانة الكعبة وقد استهان الله بهذا المعنى في القرآن الكريم حين قال (أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله) •• ومثل ابي غبشان من احمق بليد حريّ ان يقصى عن الكعبة ليليها من هو اولى بها ••

فما معنى التعريض بقريش في هذا المقام •• وما فلسفته ؟•

ثم قال :

لو كان للشيطان معنى غير ما الانسان ما آمنت بالشيطان

وفي البيت قصور واضح عن اداء ما أراد الشاعر اداءه من معنى ، فلقد أراد ان يقول (ما أيقنت بوجود الشيطان) فقال ما آمنت بالشيطان ••

وقال :

لو يجعل الناس التعاون دابهم لتمتعوا بسعادة العمران

ان التعاون لو جعل دأب الناس لتمتعوا بسعادة شاملة لشتى مناحي حياتهم ، وفي حصر هذه السعادة بالعمران قصور عن تصوير المعنى بما يقتضيه من الصورة ••

ولعلّ (العمران) مما ساقته القافية أو فرضته ••

وقوله :

لو كان خير في المجرّة لم يكن في الارض شرّ دائم الغليان

قال الشارح (الارض كوكب تابع للشمس ومنفصل عنها ، والشمس كوكب من كواكب المجرة ، فيصحّ ان نستدلّ بما في الارض على ما في المجرة لأنها أي الارض جزء من المجرة ، ونحن نرى في الارض شرّاً دائم الغليان ففي المجرة شرّ أيضا دائم الغليان •) وظاهر ان هذا اسخف قياس وقع في عالم القياس ••

وليس في اثبات مثل هذه الأقاويل شيء من الفلسفة السليمة •• وانما هي حذلقة من الحذلقات ••

وقوله :

لو لم يكن فزِعاً سهيلٌ لم يبت   في افقـــه متتابع الخفقـــان

والبيت من التخيلات الحسنة ، وللرصافي في النجوم أوصاف شتى تتكرر عنده في المناسبات المألوفة وغير المألوفة غير ان البيت لا معنى له بصورة عامة ..

٧٦) حقيقتي السلبية

في هذه القصيدة يكشف الشاعر عن المعنى الذي كان يعرّف بعضه ويعرض عن بعض في أكثر من قصيدة قالها من قبل وقد كان ذلك قد اثار عليه ضجة الهيئات الدينية في العراق ..

الابيات الأوائل في القصيدة جيدة موفقة قال :

أحبّ صراحتي قولا وفعلا ــ وأكره ان اميل الى الرياء
فما خادعت من احد بأمر ــ ولا أضمرت حسواً في ارتغاء
ولست من الذين يرون خيرا ــ بابقاء الحقيقة في الخفاء

ثم قال :

ولا ممن يرى الأديان قامت ــ بوحي منزل للأنبياء
ولكن هنّ وضع وابتداع ــ من العقلاء ارباب الدهاء

وحين ضجّ القوم على مثل هذه المقولة التي خرج بها على مفاهيم **الأديان** وتعاليمها ، كان من بعض جوابه على ذلك في قصيدة له :

رماني القوم بالالحاد جهلا ــ وقالوا عنده شكّ مريب
فمن ذا منكم قد شقّ قلبي ــ وهل كشفت لكم فيّ الغيوب
فعند الله لي معكم وقوف ــ اذا بلغت حناجرها القلوب

وهو ضرب ظاهر من المغالطة والتملص لاينبغي لرجل مثل الرصافي ان ينهجه فان للرأي من القيمة والشأن ما يعدل سخط الساخطين ، فاذا تبين لذي رأيٍ

رأي يؤمن به ففيم يخشى اتهام الناس اياه بالكفر وغير الكفر ..

وكيف لا يكون قول الشاعر ذلك حين ينفي الوحي ابطالاً لمبدأ الأديان وهدماً لكيانها الراسخ على أساس الوحي دون سواه ؟.

وكيف يبيح الشاعر لنفسه ان يقول في عقائد الناس ما يشاء دون ان يكون لهم حق الاعتراض عليه . وللعقائد في كل نفس حرمها المحرّم ، وقد قال في ذلك أبو العلاء المعري من قبل :

(واذا العقيدة في النفوس استفحلت   فمن المحال بحجة ابطالها)

وقد رأينا المغربي صاحب مقدمة الديوان نفسه غير مرتاح لقالة الرصافي هذه فهو يصف ذلك بأنه قول جرىء لا يوافقه عليه وانه كان يتمنى لو جرد ديوانه منه ..

وفي القصيدة كثير من التخبط في متاهات الرأي المضطرب .

ومما قاله فأتقن تعبيره دون ان يوفق في فلسفته :

ولست من الذين يرون فضلا   كبيرا للرجال على النساء
ولكن دالت الايام حتى   تهاون هؤلاء بهؤلاء

فلا مورد هنا لتداول الايام ليتخذه الشاعر سببا فيما ظنّه من مسألة سلطان الرجال على النساء ..

وليس في مثل هذا ما يحتاج الى تعليل كهذا التعليل . فان نظام الطبيعة من صدر التاريخ نهج في الناس هذا النهج ..

وسيبقى سلطان الرجال على النساء ثابتاً لهم عليهن ، من الأزل الى الأبد .. مهما شاء لهنّ غير ذلك من شاء ..

٧٧) حياة الورى

من أروع قصائده في الفلسفة ، وقد جاءت رائقة الألفاظ متسقة المقـاطع دقيقة الوصف ، ولم تزد أبياتها على احد عشر بيتا ، ويغلب على الشاعر ان يوفق حين يقلّ ..

قال :

حيـاة الورى جسر مديد وانمـا — عليـه الورى يمشون مشية عابر
وللموت كسر ليس يمكن جبره — بلفّ ضماد او بشدّ الجبـائر
وقتل الردى قتل جُبار" فلم تكن — لتدرك فيـه ثأرهـا نفس ثائر

ثم قال :

وما الموت الاّ هوّة أولج الورى — اليها بمسودّ الدجنّة كافر
فهم أبداً يسّاقطون لقعرها — تساقط عمي في عماق الحفائر

وهذا أبلغ وصف وأروعه في وصف الموت والقبـور .. وأراد بمسـودّ الدجنّة (القبر) ..

وقال وقد أجاد فيه :

أرى كل حيّ في الحياة ممثّلاً — رواية رؤياً من كتـاب المقـادر
رواية رؤياً قد بدت في ديارنا — فجائعها حتى انتهت في المقـابر

ولو قال (في نفوسنا) لـكان أدقّ عبارة من قوله (في ديارنا) ..

ولو اجرى تأدية البيت على نحو تال :

(رواية رؤيا قد بدت في نفوسنا — فجائعهـا حتى مشت للمقابر)

فان فيه من معنى الاستغراق والاستيعاب ما هو من ضروريات القول في هذا المقام ••

واجاد اجادة بارعة في قوله :

لقد قدّم الموت الحيــــاة امامه   نذيراً ومن ينذر فليس بغــادر

فلا عجب انّا نرى كل ســاعة   أكفّ المنـــايا داميات الأظـافر

ففيه من دقة التمثيل وفخامته ورقة اللفظ وجزالته ما هو ظاهر ••

٧٨) حبذا النوم

هذه قصيدة انفذها الشاعر الى صاحبة مجلة (الفجر) وقد أراد بها التعليق على مقال ورد في ذات المجلة حول النوم •• ولـكنّ المقدمة التي اثبتها في صدر القصيدة كانت ظاهرة الجفاف ، بالاضافة الى ما فيها من الانماط العامية كقوله :

ثمّ اني قرأت فيه لأسما   كلمات بعيـــدة الافصاح

أيقظتنا بها الى انّ في النـــوم ارتياحا لنا وأيّ ارتياح

ومضى الشاعر بعد ذلك الى وصف النوم وما فيه من خصائص ، وقد غوّر في بعض مقاطيعه في العامية من نحو قوله :

(تلفون) به الى الغيب نصغي   و (تلسكوبنا) الى الأرواح

ومن المعاني العامية المستوى قوله :

ايهـا القوم ان للنوم سلطاناً قـــوّياً لا يتقى بســلاح

ومما احسن اداءه وتقويم عبارته قوله :

فهو للنفس من مراقي المعالي   وهو للجسم من دواعي الصلاح

حبـــذا النوم فهـــو كالزيت للروح بـــه تستضيء كالمصباح

وقال وقد جاء قوله ظاهر الرقة والسلاسة :

انّ للنوم لذة هي في الأنفس اشهى من لذة الأفراح
ادركتها النفوس بالفعل واستغنت بادراكها عن الايضاح

ولـكن (لذة الأفراح) هذه ليست بشيء ، ولو قال :

(انّ للنـــوم لذة هي أشهى من تعاطي الندمان بنت الراح)

لـكان أبلغ في أدائه ..

وفي بقية الابيات يتحدث الشاعر عن الاحلام وما تحققه للنائم من اجتماعه بأحبّائه ومن مات من اهليه ، وان النوم يخامر الطير والأسد ..

٧٩) بين الروح والجسد

جاءت هذه القصيدة في مستوى المتون المنظومة ، وقد شحنت بالأفكار العامية والتخيلات الساذجة ، وكان للركاكة فيها المدى العريض .

قال في المطلع وهو حسن الأداء موفق التعبير :

أرى للروح بالبدن اتصالا	خفياً لا تبين له رســـوم

ومن ركيك لفظه (به منها ومنه بها) .

ومن بديهياته :

فلا جسد يقوم بغير روح	ولا روح بلا جسد تقوم

ومما رآه من رأي في الروح قوله :

لذلك كانت الارواح منّـــا	بحيث تهي اذا وهت الجسوم
ولست اظنّ انّ الروح تبقى	اذا محيت من الجسد الرسوم

وفي العبارة تقصير فقد عبر عن الموت بقوله (اذا محيت من الجسد الرسوم) ولا تمّحي من الجسد الرسوم بالموت ما لم يمض عليه لأي من الوقت .. وانما أراد الشاعر ان يقول ان الروح لا تبقى حين يموت الميت ..

وتحدث الشاعر بعد ذلك عن اثر الاطعمة في الجسم ، ومن بعض قوله :

وبعض من مطاعمنـا غـــذاء	تحاك على العظام به اللحوم

ثم تحدث الشاعر عن الانغام واثرها في النفوس ومن بعض قوله في ذلك :

فانّ الروح تغذوها الأغاني ويجلو همّها الصوت الرخيم

ويصقلها الجمـال اذا رأته وتصدئها القبـــائح والهموم

ولو قال (وتصدئها من الدهر الهموم) لـكان ارق واجود .

واجاد القول اذ قال :

ولا تترفعنّ عن المـــلاهي ولو شهدت برفعتك النجوم

وكن في المطربات فتى طروبا فان الناس اطربها الـكريم

وقف عند الحدود بلا تعدّ الى ما ليس يحمده الحليم

ولا تشتطّ في طرب ولهو فكلّ مقـارف شططا ذميم

وهذه أبيات تعدّ من عيون الشعر ، لما التمّت عليـه من المعـاني الرشيدة المحكمة ابلغ إحكام ..

٨٠) من نواميس الحياة

الأصل في هذه القصيدة انها نظمت في التشجيع على مشروع الفلس ، وهو مشروع تنادى القوم الى تبنّيه من أجل القيام ببعض الخدمات العامة في المجتمع وفشل امره فيما بعد ..

ولا صلة للفلسفة بهذه القصيدة ، ولكن جامع الديوان حشرها في اطار القصائد الفلسفية .

وتحتجن القصيدة كثيرا من البديهيات الساذجة والمعاني ذات المستوى العامي ..

ومما احسن اداءه من أبياتها قوله :

ان اصل الثراء فلس وهل سالت سيول الا من القطرات

وكذلك قوله :

ان ترد غرس نخلة من ثراء فسوى الفلس ما لها من نواة

وجميلٌ بارعٌ قولُه :

ليس حسن الاعمال في الناس الا حسن ما يضمرون من نيّات

اما قوله :

فدع الفعل كيف كان ــ حميدا او ذميما ــ وانظر الى الغايات

فانه من الفلسفة القائلة بأن الغاية تبرر الواسطة .. وهي فلسفة فيها محاذير كثيرة .. ولم يكن في طبيعة القصيدة ما يدعو الى سوق مثل هذه النظرية وعرضها أصلاً !.

٨١) أنا والشعر

من شعره الجزل بألفاظه ، الفخم بمعانيه ، وقد وفق الشاعر لتصوير ملامح الشعر وتعريف شخصيته بما لا يضاهى فيه من دقة التعبير وحسن التخيّل ..
ونهج الشاعر في نظم قصيدته نهج ما ينظم في الفخر ..

وها هي القصيدة ذي :

أرى الشعر أحياناً يجيش بخاطري ... ويبذل ما قد عزّ لي من مصونه
ويسكن أحيــاناً فأشجى وانمّــا ... تحرّك شجوي ناشيء من سكونه
وقد أتوخىّ الهزل منــه مجارياً ... لدهر اراه موغــلاً في مجونه
ولـكنّ نفسي وهي نفس حزينة ... تميل الى المشجي لها من حزينه
وقد علم الراوون شعري بأنهــم ... اذا أنشــدوه أطربوا بلحــونه
واني اذا استنبطته من قــريحتي ... شفيت صدى الراوي ببرد مَعينه
واني على علــم طويت سهوله ... ولم أتحيّر خابطــاً في حزونه
واني لمحـّـاص لــه بســليقة ... أبت غَثَّه واستوثقت من سمينه
وهل يخطر الشعر الركيك بخاطري ... اذا كان في طوعي اختشاب متينــه
ألا لا اهتدت للشــعر يوماً هواجسي ... اذا هي لم تنزع الى مســتبينه
ولا غصت في بحر القريض مخاطراً ... اذا لم أفــز من درّه بثمينــه
على انّ لي طبعــاً لبيقا بوشيه ... نزوعاً الى أبكاره دون عــونه
اذا انتظمت ابياته في قصــائدي ... ترى كلّ بيت ممسكا بقرينــه
وما كان دوح الشعر يوماً لتجتنى ... بغير اليد الطولى ثمار غصــونه

ولم يستقد الاّ لذي ألمعيّـــــة ... يكون كرأي العين رجم ظنونه
واني قــد مارســته بفطـــانة ... يلوح سناها غرّةً في جبينــه
لعمرك انّ الشعر صمصام حكمـة ... وانّ النهى معدودة من قيـونه
اذا جنّني ليــل الشكوك سللته ... عليــه ففرّاه بفجــر يقينــه
وما الشعر الاّ مؤنسي عند وحشتي ... ومسلي فؤادي عند وري شجونه
تقوم مقــام الدمع لي نفثــاته ... اذا الدهــر أبكاني بريب منونه
وأجعــله للكون مرآة عبــرة ... فيظهر لي فيهــا خيال شؤونه
فأبصر أسرار الزمان التي انطوت ... بما دار في الأحقاب من منجنونه
وللشعر عين لو نظرت بنورهــا ... الى الغيب لاستشففت ما في بطونه
واذنٌ لو استصغيتها نحــو كاتم ... سمعت بهـــا منه حديث قرونه
وليل الى شعراه ارسلت فكرتي ... رسولاً بشعري حاملاً لرقينــه
سل الليل عني نســره وسماكه ... ونجم سهاه والجدي خدينه(١٤٦)
فكم بتّ في نهر المجرّة في الدجى ... من الشعر أجري منشآت سفينه
هو الشعر لا أعتاض عنه بغيره ... ولا عن قوافيــه ولا عن فنونه
ولو سلبتنيه الحــوادث في الدنا ... لما عشت او ما رمت عيشاً بدونه
اذا كان من معنى الشعور اشتقاقه ... فمــا بعده للمرء غير جنــونه

---

(١٤٦) قوله (والجديّ خدينه) ضرب من الحشو الفارغ ..

٨٢) الغروب

من روائع شعره وقد نظمها سنة ١٨٩٤م واصفاً بهـا ما شاهده من منظر الغروب في الأعظمية • وفي القصيدة سلاسة ظاهرة •• ولـكنها لم تخل من الأداء القلق كقوله :

مذ حان في نصف النهار دلوكها هبطت تزيد على النزول نزولا

فان المعنى فوق كونه غير مطابق لواقع الشمس ـ من حيث ان الشاعر تعجل وصفها بالهبوط قبل ان يحين حينه ـ فان اداءه لم يكن سـليما •• فليس قوله (على النزول نزولا) بشيء ••

واخفق كذلك في التعبير عن المعنى الذي نهد اليه بقوله :

قد غادرت كبد السماء منيرة تدنو قليـلا للأفول قليـلا

فانّ (تدنو) و (قليلا قليلا) لا جدوى لها في المعنى ••

اما قوله :

يحكي دم المظلوم مازج ادمعا هملت بهـــا عين اليتيم همــولا

فليس لعين اليتيم هنا مورد ، سوى ان الشاعر رأى ان يحشر بعض الألفاظ العاطفية في البيت ليجيء ذا تأثير في النفوس فذكر المظلوم واليتيم ولكنه لم يحسن الربط بينهما ••

ولعله كان يريد أن يقول (يحكي الدم المطلول) فشرد عن ذلك ذهنه •

وقوله :

رقّت اعاليـــه واسـفله الذي في الأفق أشبع عصفراً محلولا

وصف العصفر بأنه محلول مما اقتضاه امر تسوية القافية •

وقوله :

فوقفت ارسل في المحيط الى المدى نظراً كما نظر السقيم كليـــلا

ليس فيه من المعنى شيء يحسن نظمه ، وتشبيه نظره بنظر السقيم ، من الحشو الذي لا لبّ فيه والاصل في العين عنـــد غروب الشمس أن تنفتح لأن الأشعة لا تترامى عليها ، وبذلك لا تكون على حالة يصح وصفها بالسقم •• ولفظة المحيط هنا عامية المورد ••

وقوله :

ثم انثنيت اخوض غمر ظلامه وتخذت نجم القطب فيه دليلا

ان كان أوحشني الدجى فنجومه بعثت لتؤنسني الضـــياء رســـولا

فانّ الشاعر تناقض فيه ، فقد قال انه اتخذ نجم القطب دليلا في ظلامه وعاد فقال ان النجوم كانت ترسل اليه الضياء يستضيء به •• وايراد نجـــم القطب اطالة في الـكلام ، وقوله (بعثت) و (رسولا) تحذلق في الألفاظ لا غير •

ومن أبياته الموفقة في تعابيرها ومعانيها ، قوله وهو مطلع القصيدة :

نزلت تجرّ الى الغروب ذيولا صفراء تشبه عاشـــقا متبـــولا

تهتـــزّ بين يد المغيب كأنهـــا صبّ تململ في الفراش عليلا

ولا بأس في قوله (بين يد المغيب) على قصوره في التعبير اذ يقال في مثل هذا الموطن (بين يدي) ••

ومما قاله في وصف الشمس فأحسن :

حتى دنت نحو المغيب ووجهها كالورس حال به الضياء حؤولا

وغدت بأقصى الأفق مثل عرارة　　　عطشت فأبدت صفرة وذبولا
غربت فأبقت كالشواظ عقيبها　　　شفقاً بحاشية السماء طويلا

ثم قال :

شفق يروع القلب شاحب لونه　　　كالسيف ضمخ بالدما مسلولا

ذكره السيف مضمخاً بالدم لا يفيد تفسير شحوب اللون الذي أورده في وصف الشفق •

وقال :

شفق كأنّ الشمس قد رفعت به　　　ردناً بذوب ضيائها مبلولا

ومما اجاد فيه :

فكأنها رجل تخرّم عزّه　　　قرعُ الخطوبِ له فعاد ذليلا

اما قوله بعده :

وانحطّ من غرف النباهة صاغراً　　　وأقام في غار الهوان خمولا

فانه عامي المستوى والاداء •• ولكنه اجاد اجادة رائعة في أبياته التالية :

لم أنس قرب الأعظمية موقفي　　　والشمس دانية تريد افولا
وعن اليمين ارى مروج مزارع　　　وعن الشمال حدائقا ونخيلا[147]
وتروع قلبي للدوالي نعرة　　　في البين يحسبها الحزين عويلا
ووراء ذاك الزرع راعي ثلة　　　رجعت تؤمّ الى المراح قفولا
وهناك ذو برذونتين قد انثنى　　　بهما العشيّ من الكراب نحيلا
وبمنتهى نظري دخان صاعد　　　يعلو كثيراً تارة وقليلا
مدّ الفروع الى السماء ولم يزل　　　بالارض متصلاً يمدّ اصولا
وتراكبت في الجوّ سود طباقه　　　تحكي تلولاً قد حملن تلولا
والشمس قد غربت ولمّا ودّعت　　　ابكت حزونا بعدها وسهولا

---

(١٤٧) اليمين والشمال ، ضرب من الجغرافية في هذا البيت ••

غابت فأوحشت الفضاء بكدرة ... سقم الضياء بها فزاد نحولا
حتى قضت روح الضياء ولم يكن ... غير الظلام هناك عزرائيلا
واتى الظلام دُجُنَّةً فدجنة ... يرخي سدولا جمّة فسدولا[148]
ليل بغيهبه الشخوص تلفّعت ... فظللت أحسب كلّ شخص غولا
سبحان من جعل العوالم أنجماً ... يسبحن عرضاً في الاثير وطولا
كم قد تصادمت العقول بشأنها ... وسعت لتكشف سرّها المجهولا

ثم قال :

لا تحتقر صغر النجوم فانما ... ارقى الكواكب ما استبان ضئيلا

ان قوله لا تحتقر صغر النجوم ، لا مفهوم له ..

ثم قال :

دارت قديماً في الفضاء رحى القوى ... فغدا الأثير دقيقها المنخولا

الدقيق المنخول ، ليس بالتمثيل الموفق ..

و (رحى القوى) مصطلح اكثر الشاعر من ايراده فيما سمي بقصائده الكونية والفلسفية .. والنظرية التي أثبتها في البيت ظاهرة الاضمحلال .

أما قوله :

فاقرأ كتاب الكون تلق بمتنه ... آيات ربك فصلت تفصيلا
ودع الظنون فلا وربك انها ... لم تغن من علم اليقين فتيلا

فانه أبطل به ما ذكره من رحى القوى والأثير وما الى ذلك من الأقاويل ، فكان منه بذلك أن أتبع السيئة بالحسنة فمحاها .

وهما بيتان حريّان من ناحية أدائهما بكل اعجاب ..

---

(١٤٨) وصف السدول بالكثرة خطأ في هذا المقام وانما ينبغي ان توصف بالاضفاء .. وكان البيت الذي جاء قبله مصبوباً في قالب من الهزل المضمحل .. وهو حريّ بالحذف .

٨٣) ليلة في ملهى

نظمت سنة ١٨٩٨م في وصف مرقص من مراقص الآستانة • ـ وكـان الرصافي يومئذ معتماً ـ وتتألف من (٥١) بيتا ، وفيها الـكثير من الابيات السلسة الرائقة •• وقد ظهرت في القصيدة براعة الشـاعر في دقـة الوصف واجـادة التصوير ••

ومما قاله ـ يصف ثياب الراقصة ـ فأحسن اداءه :

قصـرت منـه كمّه عن يديهـا وأطالت الى النهـود الجيـوبا
هو زيّ يزيد في الحسن حسناً من تزيّا به وفي الطيب طيبا

وقال في وصف رقتها ومحاسنها :

خطرت والجمال يخطر منهـا في حشا القوم جيئة وذهوبا(١٤٩)
وعلى أرؤس الأصـابع قامت تتخطى تبختـراً ووثوبا(١٥٠)

ومما أجاد بناءه من أبيات قافيته :

شابهت عطفـة الغصون انحناءاً وحكت خطـرة النسيم هبـوبا

وقوله :

هي دائي اذا شكوت من الداء وطبّي اذا اردت طبيـبا

---

(١٤٩) لا مفهوم لما نسبه للجمال من كونه يخطر في حشا القوم • وانما الذي يخطر في الحشا الهيام والهوى •
(١٥٠) لو قال (وعلى ارؤس الاصابع راحت) لـكان الوصف بارع الدقة •

وقوله :

مشهد للحياة فيه حيـــاة تترك الواله الحزين طروبا

وقوله :

بين رهط شمّ العرانين ينفي الهمَّ عني حديثهم والكروبا

وقال في مخاطبة سواد العراق والتحدث الى بغداد فأجاد اجادة ظاهرة :

يا سواد العراق بيّضك الدهـــــر فأشبهتَ مقلتَيْ يعقـــوبا
اين انهـارك التي تملأ الأرض غـــلالاً بسيحهـــا وحبـــوبا
لهف نفسي على نضـــارة بغـــــداد استحالت كدورة وشحوبا
اين بغداد وهي تزهو علوما وزروعـــاً واربُعـــاً ودروبا
أقفرت أرضها وحاق بها الجهل فجاشـــت دواهيـــاً وخطـــوبا

ولو قال (وهي تزهو علوما ، وفنونا ••) لكانت العبارة منسجمة متناسقة • فان العلوم تلائمها الفنون ، وكذلك الأربُع تلائمها الدروب ••

ويؤاخذ على قوله :

حركات خلالها سكنات يقف العقل بينهنّ سليبا

فان وقوف العقل غير سلبه ، وكان احرى ان يضع بدل الوقوف كلمة من نحو (يذهب) وما شاكلها ••

وقوله :

عمّت الناس بالغـرام فكلّ قـــد غدا عاشقاً لها ورقيبـا

لا مورد للرقابة هنا فان أراد ان يمثل بذلك شدّة الحرص فان لفظـــة العشق وحدها تثبت هذا المعنى على أتم وجوهه •

ومما ركّ من أدائه ، واضمحلّ من بيانه ، قوله : (يقتفي اِثرها الجمال جنيبا) • وقوله : (ومن الخدّ كوكباً مشبوبا) • وقوله : (والى الخلف تارة مقلوبا) • وقوله : (تسرّعا ودبيبا) وكذلك قوله :

حيرتنا لمـــا أرتنـا عجيبا فعجيبا من رقصها فعجيبا

ومما أطال القول فيه فأكدى :

يعبس الأنس ان تروح ذهابا ... ويعيد ابتسامه أن تؤوبا
فهي ان اقبلت رأيت ابتساما ... وهي ان أدبرت رأيت قطوبا
نحن منها في الحالتين ترانا ... نرقب الشمس مطلعا ومغيبا
تضحك الجوّ في الصباح طلوعا ... ثمّ تبكيه في المساء غروبا

وهو تشبيه غير موفق فانّ الادبار في الرقص كالاقبال فيه ليس الاّ ضرباً من فنونه وحركاته ، ولا يكون الرقص رقصاً ما لم يكن فيه مثل ذلك ، وقد قال امرؤ القيس يمتدح جواده (مكَرٍّ مفَرٍّ مقبل مدبرٍ معا) فلا معنى للقطوب والعبوس في هذا الامر •• ولكنّ قوله :

نحن منها في الحالتين ترانا ... نرقب الشمس مطلعا ومغيبا

جاء بالغ الابداع لفظا ومعنى ••

وقوله :

وتجلّت في مرسح الرقص حتى ... أرقصت بالغرام منّا القلوبا

استعماله لفظة (تجلت) سبّب خللاً في استقامة معنى البيت ، فان التجلي لا يصح ان يقال معه (تجلت حتى ارقصت) وانما يقال (تجلت فأرقصت) ••

اما قوله :

اقبلت تنثني بقدّ رشيق ... ألبسته البرد القصير قشيبا

ففيه ركاكة ظاهرة ، وكان ينبغي ان يقول (ألبسته برد الدلال القشيبا) أو ما يحكيه ويشبهه •

وقوله :

واستمرّت رمياً بها عن بنان ... لطفهُ ضامنٌ له أن يصيبا

فانه بالغ من الروعة مبلغا عظيما •• وهو يصفها تصوب البندقية على هدف استهدفته ••

وكرر الشاعر في قافيته لفظة (القلوب) ولفظة (عجيب) ولفظة (الطيب) •

وقال :

لو ارادت رمي الغيوب وأغضت   لأصـــابت خفيـّهـا المحجـــوبا

ولو قال بدلا منه :

لو ارادت رمي الغيوب من الحذق اصابت خفيّها المحجوبا

لـكان اوفى تعبيرا •• فانه أراد ان يصف حذقها ومهارتها وليس في لفظـة الاغضاء ما يثبت هذا المعنى ، والحذق يتناسب مع الغيب ويتسق وايّاه ••

وقد جاء قوله :

او غدا الحسن شاعراً ينظم الحبّ قريضاً ابدى بها التشبيبا

مضطرب التخيّل ركيك الأداء •• وفي ديوانه المطبوع سنة (١٣٢٨هـ - ١٩١٠م) في بيروت (ينظم العشق) وكانت هذه اللفظة اكثر شيوعاً من لفظـة الحب ونحوها •

اما قوله :

قـــد شهدناه ليلة جعلتنا   نحمد الدهر غافرين الذنوبا

فانّ قوله (غافرين الذنوبا) جاء حشواً لا مذاق فيه ، وقد جرّت الشاعر اليه ضرورة القافية وهو معنى حسن لو أتقن الشاعر تعبيره وقد مرّ ذات المعنى واللفظ في أكثر من بيت له •• وانما كان الأداء هنـا ركيكا من أجل انه جـاء باللفظة مطلقة غير مقيدة بالاضافة الى الدهر ••

واما قوله :

بسمت كوكبـــاً ومرّت نسيما   وشدت بلبـــلاً وفاهت خطيبا

فان مستواه واطيء ، وهو فوق ذلك ضرب من اللغو الذي تمجه الاذواق السليمة ولاسيما ايراده (الخطابة) في هذا المقام •

٨٤) في القطار

قال هذه القصيدة لما ركب القطار من الآستانة الى سلانيك سنة (١٨٩٨م) وتتألف من ستة وثلاثين بيتا ، وهي من شعره الجزل الفصيح .. بدأها بمقدمة في الفخر جاءت وجدانية الحسّ ، قال – في المطلع – فأجاد :

تذكرت في أوطاني الأهل والصحبا … فأرسلت دمعا فاض وابله سكبا
وبتّ طريد النوم أختلس الكرى … بشاخص طرف في الدجى يرقب الشهبا
كئيب كأنّ الدهر لم يلق غيره … عدوّا فآلى ان يهادنه حربا[١٥١]
يقلّ كروبا بعضها فوق بعضها … اذا ما رمى كربا رأى تحته كربا

ومما اجاد فيه قوله :

وقد علم القوم الكرام بأنني … غلام على حبّ المكارم قد شبّا

وقوله :

واني اعاف الماء في صفوه القذى … وان كان في أحواضه باردا عذبا

---

(١٥١) لو قال (فآلى لا يهادنه حربا) لكان اصوب مما قال ، وقد جاء في الشرح (وحذف لا النافية بعد القسم مألوف ومنه في القرآن تالله تفتأ تذكر) والشارح واهم في هذا فان حذف لا النافية ليس قياسيا وانما يقع في افعال محدودة مثل (ما برح وما انفكّ وما فتيء) ونحوها ..

اما فعل آلى فلا تحذف بعده الأداة وكان الشاعر يريد ان يقول (فآلى ان لا يهادنه حربا) اما حذف ان في هذا الموقع ففصيح قال الأعشى الجاهلي :

(وآليت لا آوى لهـا من كلالـة … ولا من وجى حتى تلاقي محمدا)

وفي ديوانه المطبوع سنة (١٩١٠) (.. فآلى لن يهادنه حربا) .

ولكن لي في موقف الشوق عبرة ... تساقط من أجفاني اللؤلؤ الرطبا

والمأخذ الذي عليه وصفه دموعه باللؤلؤ الرطب وقد اولع الشاعر بهذا المعنى فأكثر من ايراده ..[١٥٢]

ومن الاخيلة الساذجة والأداء الركيك قوله :

اذا ضربت اوتار قلبي شجونه ... بدت نغمات ترقص الدمع منصبّا

ثم انتقل الى موضوع القصيدة فتحدث عن القطار .. وقد جاءت متفاوتة في المتانة والركاكة .. فمما أحسن اداءه قوله :

تمشّت بنا ليلاً تجرّ وراءها ... قطاراً كصفّ الدوح تسحبه سحبا
فطوراً كعصف الريح تجري شديدة ... وطوراً رخاءا كالنسيم اذا هبّا
تساوى لديها السهل والصعب في السرى ... فما استسهلت سهلا ولا استصعبت صعبا

وقوله :

طوت بالمسير الارض طيّاً كأنها ... تسابق قرص الشمس ان يدرك الغربا
عشية سارت من فروق تقلّنا ... وتقذف مِنْ فِيها بوجه الدجى شهبا
فما هي الاّ ليلة ونهارها ... وما قد دعونا من سلانيك قد لبّى
فجئنا ولم يعي السفار مطيّنا ... كأن لم نكن سفراً على ظهرها ركبا

ومما ركّ فيها من الأداء واضمحلّ ، قوله (وجوف به صار البخار له قلبا) وقوله (تقول بها يا طود خلّ لي الدربا) وقوله (ترى افعوانا هائجا دخل الثقبا) .

---

(١٥٢) اورد العلامة الشبيبي في تاريخ ابن الفوطي (٢ : ٧٨) لبهاءالدين ابن الفخر عيسى الاربلي في رثاء الملك عزالدين عبدالعزيز بن جعفر ونصير الطوسي المتوفى في ٦٧٢هـ قوله :

(جزعت لفقدان الاخلاء وانبرت ... شؤوني كمرفضّ الجمان المبدد)

وليس مثل هؤلاء من يصح النسج على منوالهم ولا تقليدهم .. وقد قال الشبيبي فيهم بالذات (فأصبح لديوان الخلافة شعراء لا شغل لهم الاّ نظم الشعر في العزاء والهناء ، وقد عرفوا بأنهم شعراء الديوان ، فهم في الواقع من جملة موظفي الدولة الرسميين ، لذلك جاء شعرهم متكلفاً غير مطبوع في كثير من الاحيان) .

وانتقل الشاعر بعدئذ الى الحديث عما سماه بعصر البخار فقال :

تعاليت يا عصر البخـــار مفضّلا   على كل عصر قد قضى اهله نحبا

وفيه من المآخذ انه كان عليه ان يصف العصور المفضولة بما يدلّ على بعض فضلها ، ليكون لتعالي عصر البخار وتفضله على ســـائر العصور شــــأن وقدر .. فانه لا قيمة لشيء يفضل على شيء آخـــر ليس لـــه من الفضل كله أو بعضه . وقول الشاعر (قد قضى اهله نحبا) يوهم الذمّ والاتهام بالتقصير .. فوق انه تعبير ليس له في هذه الشرعة مورد ..

وجاء قوله في البيت التالي رائع الالتفاتة والتمثيل :

فكم ظهرت للعلم فيك معاجــــز   بها آمن السيف الذي كذب الـكتبا

وجاءت عبارته متينة الاداء في قوله :

تظاهرت من فعل البخار بقوة   يذلل ادنى فعلها المطلب الصعبا

وجاء قوله ظاهر السلاسة :

هو العلم يعلو بالحياة ســــعادة   ويجعلها كالعلم محمودة العقبى

وقوله :

تبصّر اذا دارت رحى الشرق هل ترى   سوى الجهل في أثناء دورتها قطبـــا

ظاهر البراعة في التعبير عن علة الشرق وفتنة التي فتن بها في الحياة ..
اما قوله :

فكلّ بلاد جادهـــا العلم أمرعت   رباها وصارت تنبت العزّ ، لا العشبا

فان قوله (لا العشبا) لغوٌ في القول ..

٨٥) الأرملة المرضعة

القصيدة من سبعة وثلاثين بيتا ، وحري ان تعد من المعلقات في بابها فقد اجاد فيها الشاعر تصوير البؤس والخصاصة في شخص ارملة ذات طفلة . وجاءت القصيدة على ضرب رائق من السلاسة وعلى ضرب رائع من الفخامة وهي اعلى مستوى وابعد شأواً من كل ما نظمه الشاعر في هذا المدى من القصيد ..

وليس على القصيدة من المآخذ الظاهرة غير تكراره للفظة (اخت) اربع مرات في أبيات متتابعة ولم يكن لذلك ما يدعو اليه من دواعي البيان غير استقامة بناء البيت ، وليس في هذا ما يعد عذراً يعذر به الشاعر .. وكان لتكرار هذه اللفظة خاصة اثر ظاهر في تشويه الابيات فقد قال (وقلت يا اخت مهلا انني رجل) وقال (سمعت يا اخت شكوى تهمسين بها) وقال (هل تسمح الأخت لي اني اشاطرها[١٥٣]) وقال (وقلت يا اخت أرجو منك تكرمتي) .

ولو صحح الشاعر هذه اللفظة المكررة أو حذف الابيات التي اوردها فيها لجاءت القصيدة من تحف البيان النادرة ، وها انا ذا اثبت القصيدة حاذفا منها تلك الابيات الاربعة ..

لقيتهـــا ليتني ما كنت ألقاهـــا   تمشي وقد اثقل الاملاق ممشاها

اثوابهـــا رثة والرجل حافيـــة   والدمع تذرفه في الخد عيناهـــا

(١٥٣) قوله (هل تسمح) تعبير عامي اللهجة .

بكت من الفقر فاحمرّت مدامعها ... واصفرّ كالورس من جوع محيّاها

مات الذي كان يحميها ويسعدها ... فالدهر من بعده بالفقر اشقاها

المـوت افجعها والفقر اوجعها ... والهـمّ انحلها والغمّ اضناها

فمنظر الحزن مشهود بمنظرها ... والبؤس مرآه مقرون بمرآها

كرّ الجديدين قد أبلى عباءتها ... فانشقّ اسفلها وانشقّ اعلاها

ومزّق الدهر ويل الدهر مئزرها ... حتى بدا من شقوق الثوب جنباها

تمشي بأطمارها والبرد يلسعها ... كأنه عقرب شالت زباناها

حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفا ... كالغصن في الريح واصطكت ثناياها

تمشي وتحمل باليسرى وليدتها ... حملاً على الصدر مدعوما بيمناها

قد قمطتها بأهدام ممزقة ... في العين منشرها سمج ومطواها

ما أنس لا أنس اني كنت اسمعها ... تشكو الى ربها أوصاب دنياها

تقول يا ربّ لا تترك بلا لبن ... هذي الرضيعة وارحمني واياها

ما تصنع الامّ في تربيب طفلتها ... ان مسها الضر حتى جفّ ثدياها

يا ربّ ما حيلتي فيها وقد ذبلت ... كزهرة الروض فَقْدُ الغيث اظماها

ما بالها وهي طول الليل باكية ... والأمّ ساهرة تبكي لمبكاها

يكاد ينقدّ قلبي حين انظرها ... تبكي وتفتح لي من جوعها فاها

ويلمّها طفلة باتت مروّعة ... وبتّ من حولها في الليل ارعاها

تبكي لتشكو من داء ألَمَّ بها ... ولست افهم منها كنه شكواها

قد فاتها النطق كالعجماء ارحمها ... ولست اعلم ايّ السقم آذاها

ويح ابنتي ان ريب الدهر روّعها ... بالفقر واليتم ، آها منهما آها

كانت مصيبتها بالفقر واحدة ... وموت والدها باليتم ثنّاها

هذا الذي في طريقي كنت اسمعه ... منهـــا فأثر في نفسي واشجاها

حتى دنوت اليهـــا وهي ماشية ... وادمعي اوسعت في الخدّ مجراها

ثم اجتذبت لها من جيب ملحفتي ... دراهما كنت استبقي بقاياهـــا

فأرسلت نظـــرة رعشاء راجفـــة ... ترمي السـهام ، وقلبي من رماياهـا

وأخرجت زفرات من جوانحهـــا ... كالنار تصعد من اعماق احشاها

وأجهشت ثم قالت وهي باكية ... واهاً لمثلك من ذي رقة واهـــا

لو عمّ في الناس حسّ مثل حسّك لي ... ما تاه في فلوات الفقر من تاهـــا

أو كان في الناس انصاف ومرحمـة ... لم تشـــك ارملة ضنكا بدنياهـــا

هذي حكاية حال جئت اذكرهـــا ... وليس يخفى على الاحرار مغزاها

اولى الانام بعطف النـــاس ارملة ... واشرف الناس من في المال واساهـــا

٨٦) عهد الصبا (أو نهر الحياة)

مقصورة من أربعة وثلاثين بيتا ، وقد قطع بها الشاعر في مضمار الابداع طلقا بعيدا ، وهي من مقاطيعه الوجدانية السلسة المشرقة ، وقد وفق الشاعر فيها كذلك الى اتقان وصف الشباب واجادة وصف الشيخوخة ، كما جاءت في المقصورة بعض الحكم الرشيدة ، وليس على القصيدة من مأخذ غير قوله ـ في وصف الهمّ المسنّ ـ

يبيت طول الليل في مضجعه　　مستأنس السعلة وحشيّ الكرى

فان الاستئناس اذا كانت بينه وبين الوحشية مطابقة ، فليس بين السعلة والكرى مثل ذلك وهذا ما كان ينبغي على الشاعر ملاحظته ورعايته ..

وفيما يلي نصّ المقصورة :

عهدُ الصبا ـ سقياً لأيام الصبا ـ　　أشبه شيء بأزاهير الرُبا
ان الصبا كالورد في نضرته　　وعمره واللون منه والشذا
واهاً على شرخ الشباب المشتهى　　خلّف ذكراه بقلبي ومضى
لقد ذوى غصن حياتي بعده　　وكان ريّان التصابي والمنى
اطيب عيش المرء في شبابه　　فان تولى فهو عيش مزدرى
ان حياة المرء ما عاش ترى　　احوالها مختلفات في الرؤى
كالنَهَر الجارى الذي تغيرت　　اوضاعه في الارض كلما جرى

فهـــو لدى المنبع ضحضاح وفي   مصبه تلقـاه بحرا قـد طمى

بيناه يجري في الثرى منعطفا   اذا بواديـه تمطى واسـتوى

طـورا كأسياف الوغى منحنيا   في الارض ينساب وطورا كالقنا

وربمـا عادت مجاريه بـه   راجعة من حيث جـاء القهقرى

وربمـا صادف غوطا فانهـوى   فيه وقـد خرّ خريرا ورغـا

والمـاء فيـه قـد يرى منبسطا   وتارة منـزويا فوق الثـرى

وتـارة تلقاه في مشـجرة   يجري واخرى بين اصلاد الصفا

حتى اذا ابحـر مجراه بـه   كـان الى الدأماء منـه المنتهى

وهكذا انهـار اعمـار الورى   تجري فتنصب الى بحـر الردى

وانمـا العمـر شـباب فاذا   زال فحـزن وشـقاء وضـنى

ما كـان احلى العيش لو ان الفتى   لم يجـد الشيب اليـه مختطى

ليت الفتى كالبـدر في النشـأة اذ   عـاد هلالا كل شـهر فنمـا

او ليته كالشـجر النـابت اذ   يورق في الصيف ويعرى في الشتا

او ليت هذا الشيب ان كان ولا   بدّ من الشيب اتى قبـل الصبا

شيبة الانسـان مـرآة المنى   بدائـع الآمـال فيهـا تجتلى

والمرء فيهـا ان تمرأى راجيـاً   ابدت له متبسما ثغر الرجـا

ويح شباب فتـك الشيب بـه   اذ لاح كالسيف عليـه منتضى

بُرْدانِ هذا من وقـار ونهى   حيك وهذا من تصاب وهـوى

لـكن وقار الشيب لا يعدل مـا   في طيّـه من لوثة ومن ونى

يا مسليا ذا الشيب عن شـبابه   بأنّ وخط الشيب ازهار النهى

اقصر هذاذيك عـن القول فلا   يقـاس ذيّالـك تالله بـذا

وما الصبا بمـانع من الحجـا   بل هو في الشيخ يكون والفتى(١٥٤)

وليس من اصبح يمشي الخيزلى   في معرض السبق كماشي الهيذبى

---

(١٥٤) أخذه من المتنبي :

وما الحداثة من حلـم بمانعة   قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وما اياة الشمس في تطفيلها … مثل اياة الشمس في رأد الضحى[155]
وهل يطيب العيش للهم الذي … ان همّ بالنهضة خانته القوى
يبيت طول الليل في مضجعه … مستأنس السعلة وحشيّ الكرى
وانّ ظهر الارض يستثقل من … امسى يدبّ فوقها على العصا

---

(١٥٥) ردّ به على قول الطغرائي :
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع … والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل
وقد اجاد الرصافي فيه اجادة بارعة ..

٨٧) السفر في التومبيل

من قصائده الفخمة الجزلة ، وقد أجاد في وصف ما أورده من المشـــاهد اجادة بارعة •• واستعمل الشاعر عدداً عديدا من الألفاظ الفصيحة المهجورة بما احيا به مواتها من حسن الايراد والتمثيل والصياغة ••

ومن روائع تمثيله :

وتنكر الخيـل ان جـارته في سَنَنٍ ما تعرف الخيل من حُضْر وتقريب

وقوله :

ركبته وبياض الصـبح تحسبه صدر المليحة مكشوف التلابيب

وقوله :

وللنجوم بقـــايا في جوانبه كالعقد منفرطا من جيد رعبوب

وقد ذكر الشاعر أسماء عدة من شعراء الجاهلية وهم امرؤ القيس والنابغة الذبياني وابن العبد ولبيد فأحسن ايرادهم حيث اوردهم ••

وفيما يلي نص القصيدة :

وفدفـــد قاتم الأعمـــاق متّسع طويت اجـــوازه طيّ المـكاتيب
بتومبيل جرى في الارض منسرحا كما جرى الماء في سفح الأهاضيب
ينساب مثل انسياب الايم تحمله حـــوامل عجـــلات من دواليب
كأنهـــا وهي بالمطّاط منعلـــة تمشي بأخفاف انواق مطـــاريب

يمرّ كالريح لم تسمع لأرجله — سوى حفيف كنفخ في الأنابيب

وتنكر الخيل ان جارته في سنن — ما تعرف الخيل من حُضْر وتقريب

تظله قبة فيه منجّدة — قد زانها حسن تنجيد وتقبيب

يخال من حلّ فيها نفسه ملكا — يزهى بتاج على الفودين معصوب

ركبته وبياض الصبح تحسبه — صدر المليحة مكشوف التلابيب

والبدر في الأفق الغربي ممتقع — يرنو الى الفجر في ألحاظ مرعوب

وللنجوم بقايا في جوانبه — كالعقد منفرطا من جيد رعبوب

وللنسيم هبوب في مدارجه — ما ينعش الروح من نشر ومن طيب

فطار من غير تحليق براكبه — بل مرّ يخطر خطرا فوق ملحوب

وسار سيراً دراكا ملء مهيعه — كالوبل يتبع شؤبوباً بشؤبوب

فكنت ابصر حولي الارض جارية — كمثل تيار بحر وهو يجري بي

يلوح فصل الربا وصلاً فأحسبها — من سرعة المرّ قد صفت بترتيب

ما زال يجتاز بي ما في البسيطة من — سهل ومن جبل عالي الشناخيب

حتى بلغت به اقصى مدىً عجزت — عنه العتاق من الجرد السراحيب

وكم علا بي أنشازاً تسلقها — وشاب في السير تصعيدا بتصويب

لا يعرف الأين منه اين موقعه — ولو يواصل اِدلاجاً بتأويب

وكيف يتعب من لا حسّ يتعبه — ولا يسير على ساق وظنبوب

وانما هو يجري في مسالكه — دفعا بقوة غازٍ فيه مشبوب

جربته هابطا اجراع اودية — وطالعا في الثنايا والعراقيب

وملهبا في سهول الارض ينهبها — نهبا ويخلط ألهوباً بألهوب[١٥٦]

فكان اسبق مركوب لغايته — وكنت اقرب طلاب لمطلوب

تلك المطية لا ما كان يذكرها — اديب ذبيان من عيرانة النيب

---

(١٥٦) لو قال (وموغلا في سهول الارض) كان أجود من قوله (وملهبا) · لأن في الايغال معنى التمكن والاستحواذ دون (الالهاب) التي لا تعني غير العدو وشدة الركض ·

لو امتطاهـا لَبيدٌ قبـل تاه بهـا ... على الحواضر قدما والأعاريب[١٥٧]

ولم يهم لو رأى ابن العبد منظرهـا ... من وصف عوجائه في كلّ اسلوب

ولا اطال ابن حجر وصف منجـرد ... عالي السَراة كميت اللون يعبـوب

---

(١٥٧) لو قال (تاه بها على الحواضر تيها) لـكان اجود من قوله قدما ، اذ ان فيه تكرارا للمعنى من حيث سبق له ان قال (لو امتطاها لبيد قبل) ..

٨٨) من ويلات الحرب

من روائع شعره الوجداني ، وهي كذلك من قصائده الممتازة بدقة الوصف وجزالة الاداء على ان فيها بعض المآخذ ومنها قوله ـ في المطلع ـ :

مرت تقول الا يا رب خذ روحي كي استريح بموتي من تباريحي

فان فيه استشهادا بعبارة عامية اللهجة وهي قوله (يا رب خذ روحي) والبيت حريّ بالحذف •• وما جاء بعده يصلح ان يكون مطلع القصيدة ، وهو قوله :

مهزولة الجسم من فقر ومن نكد مصفرة الوجه من همّ وتتريح

ثم قال بعده فأجاد :

باتت بغير عشاء وهي طاوية واصبحت وهي غرثى دون تصبيح
ضنك المعيشة اضوى جسمها فبدت شروى خيال بطرف العين ملموح
وأذبلتها هموم النفس ناصبة فصوّحت وجنتيها اي تصويح
ويلمّها عيشة نكداء يابسة لم تبق من جسمها غير الألاويح
في طرفها نظرٌ وانٍ تردّده لمح المريض اذا ما جاد بالروح
تلفعت بدريس من تخرّقه تخال طرّته بعض التقازيح
فكم ترى العين خرقاً غير مرتقع في جانبيه وفتقاً غير منصوح
تمشي انخزالاً بعبء الفقر مثقلة كظالع في الطريق الوعر مكسوح

وقوله (يابسة) في وصف المعيشة ، عامي الاستعمال ••

ثم قال واصفا فأجاد الوصف :

تأوّهت آهة حمراء دامية تشفّ عن كبد بالهمّ مجروح
وأجهشت ثم أرخت من محاجرها عنان دمع على الخدين منضوح

وأعرضت وهي لم تنبس سوى نظر يغني الألبّاء عن نطــق وتصريح
فرحت من عجبي منها ومن جزعي ابكي لها بين ترجيــع وتسبيح

والأغلب في استعمال التسبيح ان يكون تعبيرا عن شيء بلغ الغاية في الروعة والجمال ونحو ذلك ..

ويبدو ان الشاعر أراد هذا غير انه لم يمهد له في القصيدة بشيء اذ مرّ من قوله في وصف الباكية انها لم تبق منها الهموم شيئا من ملاحة وجمال ..

ثم قال فبلغ الغاية في الابداع وهي من حكمه :

من ليس يُبكيه من ابناء جلدته بكاؤهم فهو من جنس التماسيح
ولا يقوم بعبء المجــــد مضطلعا من لا يقــوم الى انهاض مفدوح
وما السعادة في الدنيــا بحاصلة الاّ باســعاد أطــــلاح مرازيح
ان المـــروءة شيء لا تناوشـــه الاّ ســـواعد اجــواد مساميح
ارى كنوز المعـــالي ما لأقفُلِها غير السماح لعمري من مفــاتيح
والعيش غيهب آمـــال وليس لنا سوى التعاون فيه من مصـــابيح

وانتقل الشاعر بعد هذا الى وصف الحرب فجاء بأبيات سبعة لم يوفق في ادائهنّ ، اللهمّ الاّ ما جاء من قوله :

واستفحلت فتنة عميــاء جائحة تمخضت عن دم في الارض مسفوح

وقوله :

ضاقت على الناس وانسدت مسالـكها فعـــاد كلّ طريق غــير مفتوح
والحرب أغنت اناســاً غنية عجبــاً وآخـــرين رمتهـــم بالمجــاليح

فانها مما جاء قويم العبارة ..

ورجع الشاعر الى الباكية فقال (وقد ختم القصيدة) :

امـــا التي اوجعت قلبي بمنظرها واوهنتـــه بتبضـــيع وتقـــريح
فغادة عضت الحرب الضروس بها عضــاً بناب حديد غير مرضوح
امست تكابد من فقر ألمّ بهـــا آلام عيش بشبع الطعم مذروح[158]
ترنو الى الناس بالشكوى فتحسبها ظمآن يشكو لآلِ حرقة اللوح[159]

---

(١٥٨) بشيع الطعم ، ليس بالتعبير الشعري .
(١٥٩) اللوح : العطش .. والآل : السراب ..

٨٩) على جسر مود

قالها يصف بها ليلة مقمرة وهو على جسر مود ببغداد[١٦٠] •• وهي قصيدة من سبعة عشر بيتا جاء مطلعها فخم الأداء • قال :

لا تبك اربعهم ولا الأطلالا   واربأ بحبّك ان يكون خبالا
واترك سؤالك للرسوم فانها   مما يزيديك بالسؤال ضلالا

اما قوله :

او ما ترى البدر المنير اذا بدا   يكسو الدجى من نوره سربالا

فهو ضرب من شعر الصناعة ••

ومما جاء على هذا الضرب من الأداء الشعري الصناعي :

وجبين دجلة قد صفا متألقا   فحكى السماء محاسنا وجمالا
فحسبت نفسي في السماء مشاهدا   تحتي بدجلة للسماء مثالا
ورأيت من فوقي السماء حقيقة   ورأيت من تحتي السماء خيالا

وكذلك قوله وقد أجاد فيه :

لله ما شاهدته من منظر   يدع الكئيب كشارب جريالا
حفّت جوانبه بكل بديعة   فزها جمالاً واستقلّ جلالا

اما قوله :

وانظر الى حسن الطبيعة انه   حسن يفيدك في الحياة كمالا

فليس بشيء ••

---

(١٦٠) سمي هذا الجسر بعدئذ (جسر الملك فيصل) ثم اطلق عليه في العهد الجمهوري اسم (جسر الأحرار) وهو أحد جسور بغداد •

٩٠) على البسفور

قصيدة من (٢١) بيتا يغلب عليها التقصير والحذلقة ويكثر فيها الشاعر من ايراد المعاني الساذجة ذات المستوى العامي ، كما ان الشاعر كان ظاهر الاخفاق في الوصف رغم انه عرف بالسبق فيه ••

وليس في القصيدة من جيد الشعر غير قوله :

وفي كلّ يوم للزمان عجائب ... بها الناس تغلو او بها الناس ترخص
واعجب ما في الدهر ان هباته ... تزيد لمن فيه المروءة تنقص
ورب أفيكٍ جاء يمذق ودّه ... ويظهر اخلاصا وما هو مخلص
ولكنه في ودّه الثعلب الذي ... يروغ أو الكلب الذي يتبصبص

وقوله :

اذا انا لم انكر على الدهر جوره ... فلا وطئت بي موطيء العزّ اخمص

اما قوله :

ويا ربَّ وجهٍ لم يرقني بياضه ... فلما دنا مني اذا هو ابرص

وكان اولى لو قال (ويا رب وجه قد حمدت بياضه) لأن قوله ذاك ضرب من تحصيل الحاصل وتعليل المعلول ••

وذهب الشاعر يباهي بذكائه وفطنته فقال :

دعوا كشف مكنون الظنون لفطنتي ... فاني بذا من دونكم متخصص
ذكاء لو اجتزت الجدار بنوره ... لشفّ لعينيّ الجدار المجصّص

وليس مثل هذا القول مما يعدّ من الفخر المألوف في الشعر وانما هو دعاوى ذات مستوى عامي ••

٩١) الى غرة آل سعدون

نظم الرصافي قصيدته هذه موجها اياها الى عبدالمحسن السعدون أيام كان رئيسا للوزارة في العراق ، وقد كان السعدون من ذوي البيوتات الكريمة ، ومن هذا الوجه انفذ اليه الشاعر قصيدته يستعديه على الايام ، ويشكو اليه الخصاصة والاملاق •• وتتجلى في القصيدة نفسية الشاعر حين يعبر عن ظروفه الخاصة ••

ومما جاء فيها من الابيات ذات الأداء الرائق الممتع قوله :

وليس العريُ من ثوب معيباً   لكاسي النفس من حلل الاباء
وما ضرّ المهند فقدُ جفنٍ   اذا ما كان محمود المضاء

ومما يؤاخذ عليه قوله :

لأتخذنّ اخلاصي وصدقي   لكم من كل موبقة وقائي

فان خطابه للسعدون جاء أكثر من مرة بضمير المفرد ، وكان اولى بالشاعر ان لا يخرج على ذلك ، وبهذا كان قوله (لكم) في مخاطبة السعدون نابيا عن منهاجه •• فوق انه سبب للبيت شيئا من الركاكة ••

اما قوله :

واجعل ما حييت جميل شكري   لما اسديت من نعم غذائي

فان لفظة الغذاء هذه ليست بملائمة في البيت ، وقد قصر بها الشاعر عن تصوير المعنى الذي كان ينبغي أن يؤديه •

وقوله :

شكوت الى فتى جمّ المزايا   كبير النفس منفرد السناء

فانّ وصفه بانفراد السناء لا مفهوم له ، وانما ساقته القافية لسدّ شاغرها .
ومما اطال فيه المبالغة وجاوز حدودها قوله في (السعدون) :

وكيف يكون مطلوبي حقيراً — وانت أجلّ من تحت السماء

واما قوله :

واعلم انّ ما أشكو اليكم — يسرّ الماردين على عدائي
ويشمت بي الذين لهم نفوس — مرضن من العيوب بكل داء
ولم يشمت بأحرار البرايا — سوى لؤمائهم والأدنياء

ففيه من دواعي الركة قوله (اليكم) وكذلك استعماله لفظة (لم) في نفي الشماتة فانه في مثل هذا الموقع ينبغي استعمال (لا) ..

ومما رك من ادائه :

ولكن بزّة البدويّ أبغي — فمن ثوب عليَّ ومن عباء
ومن كوفيّة صحبت عقالاً — يكون الرأس منها في غطاء
فذا زيّ يتمّ به رجوعي — الى عيش بسيط ذي هناء

ومن شعر الصناعة قوله :

رحيب الباع مؤتلق المحيّا — اصيل الرأي وقّاد الذكاء

اما قوله — بعده — :

صريح في مقاصده اذا ما — أسرّ القوم حسواً في ارتغاء
زكت اخلاقه فصفت ورقّت — فهنّ لكل مكرمة مَرائي

ففيه اجادة في الأداء والتمثيل ..
اما قوله :

فان لم تدرك الايام عريي — بثوب منك يا غمر الرداء

ففيه من الخطأ ان ينسب الى الايام تدارك عريه ، في حين ان الايام هي التي ينبغي ان تتهم بعريه ..
اما مطلع القصيدة فهو :

أعبد المحسن السعدون انّي — اراك مناط أسباب الرجاء

وابصــــر من فعالك بدرَ تمٍّ يلألئ من فخارك في ســـماء
لذلك قـــد اتيت اليك أشكو رثـــاثة بزّتي وبلى كســـائي

وفيه ما هو ظاهر من حسن التعبير والتلطف في عرض الشكوى ..
ومما جاء ساذج التشبيه قوله :

فقـــد رقت ثيابي اليـــوم حتى تكاد تذوب من مس الهـــواء

فالذوب من مسّ الهواء مبالغة عامية ، وقوله (تكاد) كان ينبغي ان يستعمل عوضها (كادت) .

ومما حسن من تشبيهه قوله :

غـــدت شـــفافة حتى كـــأني لبســـت بهـــنّ اثواب الرياء

والقصيدة من خمسة وثلاثين بيتا ..

وتواضع الشاعر كثيرا في مثل قوله :

وهل أنا غير عبد انت منه خصصت أبا عليٍّ بالولاء

ولا يؤاخذ الرصافي على شيء من مثل هذا فقد عرف فيه انه كان يتطامن كثيراً في مخاطبة أصدقائه ومن يجد لهم عليه يداً ، وهذا ضرب من أدبه الخلقي الخاص .. ولـكن لما كان السعدون يومئذ في رئاسة الدولة فان توجيه الخطاب اليه بمثل هذه العبارات ظاهر المسؤولية الأدبية ..

٩٢) الوســام
وفخامة رئيس الوزراء

وهذه قصيدة أخرى قالها في عبدالمحسن السـعدون ، وسبب نظمهـا ان الحكومة الانكليزية منحت السعدون لقب (السير) واهدته وساماً خاصا بذلك ، ولـكن الشاعر لم يحسن التعليل في نظمه ، وهي من مغامز الرصافي وليست من محامده •

ومما أجاد فيه من الوصف الموفق والتعبير الرائق قولـه ـ في الـكلام على صدر السعدون ـ :

صدر بـه كمنت سرائر مجده　　فاستعصمت منـه بأشرف مكمن
واسـتأمنته المـكرمات فأصبحت　　من كلّ شـائنة بأكـرم مأمن

غير انّ البيت الثاني ـ منهما ـ يعبر عن ذات المعنى الذي استوعبه البيت الذي قبله ، ولا بأس من مثل هذا التكرار ما دام يشفع له الأداء الفخم ••

اما قوله :

شرف حبيت بـه فكان مسـرّة　　للمخلصين وحسـرة المتخوّن
جعلته لندن للعـراق كـرامة　　اذ أكرمتك بـه سياسة لنـدن
ليكون فيـك علامة منهـا على　　ما تبتغيه من اعتـزاز الموطن

فافخر به كلّ الفخار وسرْ بنا   ما شئت سير حضارة وتمدّن

فقد كان على الشاعر ان يحمي نفسه من ان يقول قولاً مثل هذا ..
فلا يصح ان يسمى وسام لندن شرفا لمثل (السعدون) ، ولا يليق ان يحث الشاعر ممدوحه على الافتخار بوسامه ، كما ان شهادة الرصافي بأنّ ذالك الوسام كان علامة على ما تبتغيه لندن للعراق من الاعتزاز شهادة فيها تفريط ظاهر ..

* * *

لقد كان الرصافي حسن الرجاء والثقة بأوضاع الحكم في العراق أيام ما سمي بالحكم الوطني رغماً عن ظهور سلطان الانكليز وطول يدهم في الدولة . وقد كان مثل ذلك قد خامر الفيلسوف الشاعر جميل صدقي الزهاوي فنظم في الانكليز ما نظم من الشعر الذي بنى قوافيه على حسن الظن بهم والاستنامة اليهم ..

ولكن الرصافي جاوز ذلك حين أصدر جريدته اليومية السياسية (الأمل) سنة ١٩٢٣م فكان ظاهر التحمس للانكليز يدعو الى التزام صداقتهم والاعتزاز بها ، بحيث حملت جريدته راية الدعاية لسياستهم وكان فيها شديد الوطأة على السياسيين العراقيين المتطرفين في خصومتهم السياسية للانكليز ورجال الحكومة اذ ذاك .

فقد جاء في (أمله) مقال في اطراء (الجنرال مود) الذي اجتاح بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ فكان يوم مقدمه اسوء يوم في التاريخ العراقي .. وقد هلك في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٧ بداء الهيضة ما نصه :

(ازيح أول أمس في حفلة شهدها الكبراء والعظماء من البريطانيين والعراقيين الستار عن تمثال الجنرال مود منقذ بغداد سنة ١٩١٧ .

ونحن هنا لا نريد ان نصف تلك الحفلة ونبحث عن نفسية الذين شهدوها وما كان لها من التأثير في قلوبهم وعلى عواطفهم بل نريد ان نعالج مسألة تاريخية

خطيرة تهم العراقيين والبريطانيين على حدّ سواء وهو تأثير انقاذ مدينة بغداد على يد الجنرال مود وما لهذا القائد الـكبير من المقام الخالد في التاريخ العربي •)

ثم قال (للجنرال مود ميزتان ترفعانه الى مصاف أكابر رجال التاريخ ••• وهاتان الميزتان قلّ من اتصف بهما من عظماء التاريخ وأبطاله ويظهر ان ابطون البريطانية ـ أكثر من غيرها ـ تتحف العالم من حين الى آخر بمثل هؤلاء الأفذاذ الذين تزدان بهم صحائف المجد البريطاني ••) الى غير ذلك مما جاء في جريدته الأمل (العدد ٥٦ الصادر في ٦ كانون الاول ١٩٢٣) •

ومما قاله في افتتاحية عدده الاول (١ تشرين الاول ١٩٢٣) (مثل ضربناه لنزيد به قراءنا الـكرام تشوّقا الى معرفة هذا المرفأ الحصين الذي رست بنا فيه سفينة السياسة التي بها يتعين مستقبل البلاد فما علينا الاّ ان نبلّ غليل شوق القارىء الـكريم بقولنا ان هذا المرفأ هو صداقة حليفتنا مالكة البحار دولة بريطانيا العظمى فاذا صدقت عزائمنا معاشر العراقيين في انشاء دولة مستقلة فما علينا الاّ ان نبنيها على دعائم هذه الصداقة والاّ فلا نأمن ان يتداعى بناؤها بأدنى زلزلة من زلازل المعامع الـكونية والمـكايد البشرية •

ثم قال (لقد ألهمتنا الايام ان لا طريق لنجاتنا اليوم غير ان نمتّ بالصداقة الى حلفائنا الانگليز لـكي نتوصل الى غايتنا الشريفة ولباناتنا السامية ولأجل عين الف عين تكرم •)

وكان الرصافي قد رشح نفسه لعضوية المجلس التأسيسي وكانت خطته في جريدته هي منهجه السياسي الذي رشح نفسه عليه •

وفي افتتاحية العدد ٩ من جريدته الأمل الصادرة في ١٠ تشرين الاول ٩٢٣ كان يدعو الى التعجيل في ابرام المعاهدة البريطانية العراقية • وكذلك يراجع العدد رقم (١٠) من الامل ••

وفي العدد ١٦ من الأمل (١٨ تشرين الاول ١٩٢٣) نجده يكتب قائلا حول مسألة الموصل :

(نحن لانشك ان حلفاءنا البريطانيين سـوف لا يقصرون في الدفـاع عن

مصلحة العراق لأنّ مصلحتنا مصلحتهم ومنفعتنا منفعتهم .)

ومن سذاجته في السياسة وايغاله في حسن الظن بالانكليز ما كتبه في الرد على السياسيين العراقيين الذين ادركوا من البدء فساد السياسة الانكليزية فقاطعوا الحكم ومجالسه ، فلقد جـاء في (الأمل) العـدد الثاني (الصادر في ٢١ صفر ١٣٤٢هـ ٢ تشرين الأول ١٩٢٣م) ما هذا نصه :

(ومن العار ان يتقدم اليك من تطالبه بحقك وتستنجزه وعوده وعهوده هاشّاً باشّاً مجاملاً متلطفاً فتحول وجهك عنه وتظهر له كل نفرة وامتعاض .. فان هذا ليس من صفات السياسيين الحذّق الذين يقابلون حتى ألدّ خصومهم وأعدائهم بجانب عظيم من المجاملة هي أقرب الى الرياء منها الى الحقيقة ...)

وظاهر ان الانكليز لم يحاسنوا الرصافي ولم يولوه منصبا في الدولة .. وقد ادرك هو أيضا بعد حين سوء خطة الانكليز في ادارة البلاد فناصبهم العداء ونظم فيهم قصائد غائظة لهم كلّ الغيظ .. ومن أجل ذلك بالذات قال قوله :

للانكليز مطـــــامع ببلادكم لا تنتهي الاّ بأن تتبلشـــفوا

فشاء بذلك ان يعالج علة بعلة وان يردّ فتنة بفتنة ..

وحين نقرأ شعر الرصافي في الانكليز بعد أن كاشرهم نجده يبلغ فيه النصاب الأوفى من القوة والنكاية والشدة . فلعله شاء ان يكون ذلك له كفارة وطهرة مما صنع من الملق لهم والركون اليهم ..

* * *

والقطعة من خمسة عشر بيتا ، ليس في ما بقي من أبياتها الاّ ما هو على مثل هذا النحو والطراز .. من مثل قوله (المــآب الاحسن) و (فضــل تحسن) ونحوها من التراكيب العامية المنحى ..

٩٣) نحـــن
في يوم حادثة الرئيس

مقطوعة من سبعة عشر بيتا قالها بمناسبة محاولة اغتيال عبدالمحسن السعدون وهي سلسة رائعة •• وقد جاء نظمها على نهج قصصيّ اللهجة ، غير انها ليست على مستوى عال من الأداء •• قال (في المطلع) :

شـاع كالبرق في العراقين يوماً خبرٌ اترع القلـوب كـآبة

فليس لقوله (يوماً) موضع صحيح في هذا المقام •• ولا كانت لفظة الاتراع نازلة في منزلتها ••

ثم قال :

خبر قطرنا العراقيّ قد زلزل منه حتى خشينا انقـلابه

فان استعمال (قطرنا العراقي) جاء فضلة في القول ، كما انه جاء مضطرب الأداء ، من حيث سبق له ان استعمل لفظة (العراقين) تسمية للعراق فكان عليه ان يكتفي بذلك ، فلا يقع الاختلال في التسمية ••

ومما أداه اداءا حسنا قوله :

فهوى يخبط الصعيد صريعا بدماء قـد ضرجت اثوابه

خبر صاح عنده الناس ياللّـه للمجد والندى والنجابة

اما قوله :

واستمرّ الـكرام يرجون ان لو   حقـق الله خلفـه وكـذابه

ففيه استعمال عامي وهو قوله (واستمرّ الـكرام)

وكذلك قوله :

ويحكم ماالذي تقولون للنـاس   أجدٌ مقالـكم ام دعابة

فانه اداء عامي اللهجة •• وفيه ركة ظاهرة ••

وكان قولُه (رغم عاميته وسذاجته) بديع التمثيل :

فاذا كلّ ما جرى هو هـذا   أسدٌ قـد عدت عليه ذبابة

٩٤) في ملعب كرة القدم

قصيدة من عشرين بيتا جاء بها الشاعر على نمط من القصة فجاءت وكأنها (ريبورتاج) رياضي يكتبه مخبر محلي لجريدة من الجرائد ..

وقد ظهر على القصيدة طابع الركاكة والتعكز ، وكذلك لم يوفق الشاعر في تشبيهاته التي جاءت ساذجة موغلة في السذاجة ..

ومما ركّ من أوصافه قوله :

تنحو الشمال بضربة فيردّها   نحـو الجنوب ملاعب لطّام

فانّ لفظة (لطام) ليست باللفظة التي تصلح ان تكون وصـفا في هـذا الموضع ..

ومما اجاد أداءه :

يتراكضون وراءها في ساحة   للسوق معترك بهـا وصدام

والمراد بالسوق جمع الساق ..

اما قوله :

وتمرّ واثبة على وجه الثرى   مرّاً كمـا تتوثب الآرام

فان التشبيه مغلوط من حيث تحدّث عن كرة واحدة فشبهها بالآرام والآرام جمع ..

وكان جميلا رائقا قولُه :

وكأنها والقـوم يحتوشونها   قلب عليـه تهـاجم الآلام

وجاء قوله حسنا :

لابدّ من هزل النفوس فجدها   تعب وبعض مزاحهـا استجمام

وكذلك قوله :

والفكر منهكـة فباستمراره   تهن العقول وتهزل الاجسام

٩٥) الاحسان

انشدت في حفلة افتتاح المدرسة الخيرية الاسلامية للأيتام سنة **١٩٢٨** وكان الثري ّ اليهودي (مناحيم صالح دانيال) قد تبر ّع بنفقات بنائها •• مطلعها :

لو كنت أعبد فانياً في ذي الدنا لعبدت من دون الاله المحسنا

ومن أبياتها المجتلاة قوله :

في مجتنى غرس الخليقة لم أجد غرساً سوى الاحسان حلو المجتنى

وقوله :

كم بل ّ نائرة فأطفأ نارها من بين مشترك الصوارم والقنا

ما لاح كوكبه بمَوْهِنِ غُمّةٍ الا ّ اعاد ضحىً سناه الموهنا

ما ان تظلل موطن بظلاله الا ّ اعز ّ الله ذاك الموطنا

وقال :

نفحاته تمحو معايب اهله من حيث تعمي عن رؤاها الأعينا

ولو قال تصرف لكان اللفظ آلف بالمعنى واجود في الأداء •• على انه معنى متداول •

وقال :

لم ادر والآثار منه كثيرة في الغرب لِمْ نزرت وقلّت عندنا

وهو يحتاج الى التصحيح كأن يقول :

وعجبت ـ والآثار منه كثيرة في الغرب ـ اذ نزرت وقلّت عندنا

وقال فأجاد :

أفنحن نجهله وقد علم الورى   في الشرق نشأتَه ربيباً عنـــدنا

لو قال (من قبل) لـكان أحسن من قوله (في الشرق) ، فان قوله (ربيبا عندنا) ظاهر منه انه يريد به (عند أهل الشرق) •• وفي البيت ضعف تأليف ، فقد أراد الشاعر ان يقول (وقد علم الورى نشأته ربيبا عندنا في الشرق) • وربما توهم سامعه انه يريد (وقد علم الورى في الشرق) أي علم اهل الشرق ، وليس هذا ما يريده الشاعر ••

اما قوله :

ويسرّني اني اشـــاهد موطني   قـد نال من بركاته بعض المنى

ففي (بركاته) عامية ظاهرة ••

وقوله :

واذا استريب بما اقول فشاهدي   هـذا البناء ومن حماه ومن بنى

فانه معنى ساذج ، اذ ليس الموضع موضع استرابة •• وقوله (ومن حماه) لا معنى له •

واجاد الشاعر بقوله :

قـــد شيد للأيتام مأوى واقيـــاً   يُهتمّ بالأيتـــام فيـــه ويُعتنى
ليكون فيــه شفاؤهم من جهلهـم   ومن الظما ومن الطوى ومن الضنى

اما قوله :

فلنكْنه بأبي اليتامى بعـــد ذا   اذ لا يخاطب مثله بسوى الكنى

ففيه تقعر في اللفظ وسذاجة في المعنى •

ومما أجاد فيه :

سعد امرؤ بذل الفواضل للورى   عفــواً وعوّد نفســه ان يحسنا

(عفواً) هذه لا معنى لها في البيت ••

٩٦) الجرائد

قصيدة من (٣٢) بيتا ، وصف بها الشاعر أوضاع الجرائد في الآستانة حيث كان الجدل قد استشرى بين أصحابها ومحرريها ، ويشير الى اختلاف القراء بسبب اختلاف ما يقرأون من الجرائد •• ومما أجاد فيه قوله :

وما هي الا ّ ضجة كل ّ صائت ... بها مد ّ للدنيا حبالة صائد
اضاعوا علينا الحق ّ فيها تعمّداً ... وعقبى ضياع الحق سود الشدائد
ولم ار شيئا كالجرائد عندهم ... مبادئه منقوضة بالمقاصد
يقولون نحن المصلحون ولم اجد ... لهم في مجال القول غير المفاسد
وكيف يبين الحق ّ من نفثاتهم ... وكل له في الحق ّ نفثة مارد

(كل صائت) تعبير مغلوط هنا ، لأن الصائد لا يصوت عند الصيد •• والصواب أن يقول (كل صائد) أو (كل طامع) ونحو ذالك •

ومن ذلك قوله :

على رسلكم يا قوم كم تسمعوننا ... مقالة محقود عليه وحاقد

ومنها :

أتبغون في تلفيقها نفع واحد ... وتغضون عن إضرارها ألف واحد
ألا ان ّ صحف القوم رائد نجحهم ... وما جاز في حكم النهى كذب رائد

٩٧) وقفة في الروض

من ثلاثين بيتا وهي منظومة على نمط ظاهر الصناعة لاسيما قوله :

للنرجس المطلول ترنو أعـــين" فيهـــا وتبسم للأقاح ثغـــور
تخذت خزاماها البنفسج خدنها وغـــدا يشير لوردها المنثـــور
وكأن" محمـــر" الشقيق وحوله في الروض زهر الياسمين يمور
شمع توقّد في زجاج احمـــر فغـدا حواليه الفراش يدور

ومما أجاد في ألفاظه :

متعطـر فيهـا النسيم كأنمـا جيب النسيم على الشذا مزرور

فهو رائع التمثيل والتشبيه •• وقوله :

يحكي عمود المـــاء فيها آخذاً صُعُداً عمود الصبح فيـه ينير

ومنه :

تتناثر القطرات في اطرافهـا فكأنمـــا هي لؤلؤ منثـــور

ومما رك" من ادائه وتمثيله قوله :

ان الزهـــور تكنهن" براعـــم مثـــل العلوم تجنّهن" صـدور
وتضو"ع النفحات منهـــا مثله تبيينهـــا للنـــاس والتقـــرير

فقد لجأ فيه الى النمط الفقهي •• على ان التشبيه فاشل مضطرب • فالزهور

التي تكنها البراعم معروف فيها انها غير ناضجة والعلوم في الصـــدور شيء غير هـــذا •

ومن ضحل معانيه وساذجها قوله :

قد كاد يمكن عند ظني انه بالماس يوشر منه لي موشور

وكذلك قوله :

مثلت بهـا الأغصان وهي منابر وتلت بهـا الخطباء وهي طيور

ومما جاء ركيك العبارة قوله (ولفكرتي بصفاتهن مرور) وقوله (حتى كلانا ناظر منظور) •

٩٨) ما رأيت في بك اوغلي

قال ناشر الديوان في تقديمها (قالها ـ الشاعر ـ عندما ذهب الى حيّ بك اوغلي في الآستانة سنة ١٨٩٨م وقد كان اذ ذاك معمما وذلك قبل ان يستبدل الطربوش بالعمامة) •

والقصيدة من ثمانية وثلاثين بيتاً ،قال في مطلعها :

ذهبت لحيّ في فروق تزاحمت ... به الخلق حتى قلت ما أكثر الخلقا

ومما جاء رصين الاداء ، قوله :

فكم فيه من صرح ترى الدهر متلعا ... يمدّ الى ادراك شرفته العنقا
قصور علت في الجوّ لم تلق بينها ... وبين النجوم الزهر في حسنها فرقا
هنالك للأرضين افق بروجه ... تضاحك ابراج السماوات والأفقا
بروج ولكن شارقات شموسها ... تدور بأفق يجمع الغرب والشرقا

لو قال (وبين النجوم الزهر في جوّها فرقا) لكان اصوب •• فان المساواة بين القصور والنجوم انما كانت هنا في البعد لا في الحسن •

ومما أجاد في ادائه :

خدود جرى ماء التشبيبة فوقها ... ففيه عيون الناظرين من الغرقى
محاسن كالأزهار قد طلّها الهوى ... وهبّ نسيم العشق من بينها طلقا

وقال في حسان المسرح يغازلن الشباب :

أوانس قد نادَمْنَ كلّ غرانق ... فمنهنّ من تسقي ومنهنّ من تسقى

ومما أجاد فيه قوله :

فانّ العراق اليوم قد نشبت به نيوب الدواهي فهي تعرقه عرقا

ومن ذلك قوله :

جزوها عقوقاً وهي أمّ كريمة وأَلأَمُ ابناء الكريمة من عقّا
أدامت لها الأحداث مخضاً كأنها قد اتخذتها الحادثات لها زقّا
سأبكي عليها كلما جلت سائحاً وشاهدت في العمران مملكة ترقى

ومما يؤاخذ عليه انه لم يحسن التخلص والانتقال من التشبيب الى الشكوى ، فقد علل دخوله (حيّ بك اوغلي) بقوله :

ولكنني ما جئت الاّ توصّلا لذكرى شقاء في العراق به نشقى

وليس في هذا ما يصلح ان يسمى بحسن التعليل أو حسن التخلص ..

وكذلك يؤخذ على الشاعر انه انصاع لحكم القافية فأساء وصف لائمه حين لامه على ولوج (حي بك اوغلي) بعمامته .

فقد لامني لما رآني بحيّهم فتى منه قحف الرأس ممتليء حمقا
فقال أفي الحي الذي شاع فسقه تجول ألم تمنع عمامتك الفسقا[161]

فان لائماً مثل هذا لا يبعت بالحماقة .. اذ انه من الامر الواضح ان يكون وجود رجل بعمامته وبزته الدينية في مثل هذا الموطن المريب مدعاة استغراب

(١٦١) نقلت جريدة الايام البغدادية لصاحبها الاديب الكاتب الاستاذ عبدالقادر البراك في عددها (٤٩) الصادر في ١٠ حزيران ١٩٦٢ فصلا من مذكرات الشاعر بشارة الخوري (الاخطل الصغير) جاء فيه :
(ولكن معروف الرصافي لم يلبث ان قدم ببروت في أوائل شباط سنة ١٩٠٩ فاجتمعنا اليه لاول مرة في (قهوة البحر) وقد ذهبت اليها مع الشاعر المعروف أسد رستم فاذا هو يحيط به الشيخ رشيد رضا والشيخ مصطفى الغلاييني والشيخ محمد ياسين ومحمد أفندي الباقر .. ولقد كان الرصافي مجبّباً معمما ...
وكان الرصافي يفي الكأس حقها كما يفي القرطاس حقه ، فما لبثنا ان انتزعناه ــ ممتنّاً ــ من حلقة قطبها (الشيخ رضا) الى حلقة اخرى قطبها (العازار) وما ادراك بالفرق بين الحلقتين) ..

الناس ولومهم الشديد ، حتى من كان منهم من الدعار والفسقة ..

غير ان الرصافي لم يجد ما يتمّ به البيت سوى هذا ..

وقوله (ألم تمنع عمامتك الفسقا) يحتاج للتصحيح وذلك بأن يقول (ألم تمنعك عمتك الفسقا) ليجيء اللفظ معبرا عن العنف في لوم مثل هذا اللوم ..

ومما ركّ من ادائه قوله : (لا أريد لها مذقا) وقوله (يترك الهمّ منشقا) وقوله (وان كان فيها الشعر ممتلئا عشقا) فان العشق لا يقرن بالامتلاء .

ومما قاله :

رأيت مبانيـــه وجلت بطـــرقه فما أحسن المبنى وما اوسع الطرقا

ففي قوله (فما احسن المبنى) خطل في العبارة فقد ذكر المباني والطرق مجموعة في صدر البيت ، وفي عجزه اورد الطرق مجموعة وافرد المباني ..

ومن الأداء المختلّ قوله :

وماذا ترى فيـــه اذا زرت حانة ترى الانس يشدو في فم يجهل النطقا

٩٩) السدّ في بغداد

قالها يخاطب حازم بك والي بغداد بعد خروجه الى سد الحويوة من شاطيء الفرات الذي انكسر فأغرق بغداد وهذه هي الحادثة التي قال فيها الشاعر قصيدة (سوء المنقلب)، وقد مرّت برقم (٣٥) ..

والقصيدة من ثمانية وثلاثين بيتا وقد جاءت رائقة المعاني جزلة الألفاظ .. قال في مطلعها :

نجيت بالسدّ بغدادا من الغـــرق — فعمّها الأمن بعد الخوف والقلق
قد قمت بالحزم فيها والياً فجرت — امورها في نظــام منــك متّسق
ويح الفرات فلو كانت زواخره — تدري بعزمك لم تطفح على الطرق
ولا غـدت تجرف الأسداد قاذفة — منها بسيل على الانحاء منــدفق
حيث الحويوة امست منــك طالبـة — رتقاً لسدّ بطــامي السيل منفتق
باتت تجيش بتيــار وبات لهــا — اهــل العراقين في همّ وفي قلق

ومما اجاده من الأداء :

قالوا نحا شقة قصوى وما علموا — بأن عـزمك يدني ابعـد الشـقق
فصدّق الله ظنّاً منــك أحسنه — قوم وكذب ظنّ الجاهل الخرق
اذ جئت والسدّ تحت الغمر مكتسح — والنهر يرغو بموج فيه مصطفق

ومن رائع قوله :

سلك صارم رأيٍ قـد أزلت بـه — ما كان في السيل من طيش ومن نزق
فمــا تموّج ماء النهــر من غضب — وانمــا أخـذته رعـدة الفـرق

ومن حسن ادائه وتمثيله :

لمـــا اقتدحت زناد الرأى مفتكرا   في الخطب ألهبت منـه فحمة الغسق
فأدبر الهـــمّ وانشقت غياهبـــه   كما قد انشقّ سجف الليل بالفلق

وختم القصيدة بقوله :

تالله لو بلغت زهر النجوم يدي   من كلّ جرم بصدر الليل مؤتلق
رتبتها حيث كلّ الناس تقرؤهـــا   سطرا بمدحك مكتوباً على الأفق

وهو يماثل قول الشاعر :

(ليت الـكواكب تدنو لي فأنظمها   عقود مدح فما ارضى لـكم كلمي)

ومن المآخذ عليه قوله :

ودّ الفرات حيـــــاءاً منك يومئذ   لو غار يسلك تحت الأرض في نفق

فانه لو استعمل بعض أفعال الشروع من نحو بات وراح لـكان خيراً من قوله (غار) ..

وقوله :

تقضي النهار برأب الثأي مجتهداً   وتقطـــع الليـــل بالتدبير والارق

فان عطف الارق على التدبر ليس بشيء .. والأرق علة مانعة من النوم تطرأ على الشخص دون أن يكون له الخيار فيهـا وهي غير السهد والسـهر وما الى ذلك مما كان يحسن ان يستعيض به عن ذكر الأرق .

ومن الصناعة قوله : (من خالق الحزم الاّ حازم الخلق) .

واما قوله :

ثبتّ عزمك في امر يزلّ به   عزم الحصيف بما يحوي من الزلق

فليست (يحوى) هذه بلفظة شعرية ، وهي ظاهرة الزيادة .. ولو قال (لما فيه من الزلق) لجاء القول خلواً من الحشو ..

وقد كرر الشاعر تكأةً لم تكن من ضرورات التعبير ، وهي لفظة (لنا) في قوله (تنحلّ بالرأي منك المشكلات لنا) وقوله (زادت وضـوحا لنا حتى على الشفق) . فهي ضرب من اللغو ..

١٠٠) الســاعة

من أربعة عشر بيتا يصف بها الساعة ، مطلعها :

وخرساء لم ينطق بحــرف لسانها   سوى صوت عرق نابض بحشاها

ومما جاء من أبياتها سديد الأداء حسن المعنى قوله :

بها يتقاضى الناس ما يوعدونه   ويرشد ضُـلاّل الزمان هداها

وقوله :

تدور عليهــا عقرب دور حائر   بتيهاء غمّت في الظلام صواها
تريك مكان الشمس في دورانها   اذا حجبت عنــك الغيوم ضياها

وقال يشير الى ان الساعة كانت بسيطة في الدهر القديم ثم تطورت :

بنتها النهى في الغابرين بسيطة   فتمّ على مرّ الزمـان بناهــا

١٠١) ذكرى لبنان

قصيدة من ستين بيتا ، وقلّما يوفق الرصافي فيما يطيل من شعره .. وقد ظهرت الصناعة على كثير من أبياتها ، فمما ضحل من ادائه :

واذا بدت تهفو القلوب صبابة فيهـا وتركع دونها العينـان

فان ركوع (العينين) ظاهر الضحالة .

ومما ظهرت فيه الصناعة قوله (على انه جميل) :

أخذ الدلال مواثقا من عينها ألاّ تزال مريضة الاجفـان

ومما جاء ظاهر الصناعة والتكلف :

ومشت فخفّ بها الصبا فتمايلت مرحاً فأجهد خصـرها الردفان
جال الوشاح على معاطفها التي قعدت وقـام بصدرها النهـدان

ومما جاء ساذج الفكرة قوله :

حيث الرياض يهزّ عطف غصونها شـدو الطيور بأطـرب الألحان

ومثله قوله :

فكأنّ لبناناً عروس اذ غـدا يزهـو بنشر غـدائر الأغصان
وكأنما البحر الخضمّ سجنجل يبدى خيـال جمالها الفتّـان

ومما جاء بديهيا عامي الأداء قوله :

جبل سمت منه الفروع واصله تحت البسيطة راسخ الاركـان

ومما جاء ظاهر الصناعة قوله :

وترى النجوم على ذراه كأنهـا   من فوقـــه درر على تيجـــان

ومما تحذلق فيه وتكلف :

يا صـــاحبي أتذكران فانني   لم انس بعدكما سوى النسيان

ومما جاء سمجا خطل التمثيل والاستعارة ، قوله :

والليل يسمع ما نقول ولم يكن   غير الـكواكب فيـــه من آذان

اما الابيات الجيدة في القصيدة فقليلة منها قوله :

متجاولين من الحديث بسـاحة   ركض البيان بهـــا بغير عنـان

فهو متين الأداء بليغ التمثيل .. وكذلك قوله :

فكأنّ جولتنا بصـــدر ظـلامه   سرّ يجول بخـــاطر الـكتمان

وقوله ـ يصف الزهر ـ :

فبرزن من وشي الطبيعة بالحلى   فكأنهـــنّ بحسنهن غـــواني

وقوله يصف القوم في لبنان ، وقد جاء فيه بالرائع الفخم البليغ :

متخاذلين بهـــا وهم اعوانهـــا   ومن البـلاء تخاذل الأعوان
ضعفت مبـاني كلّ امرِ عندهم   ما بين هادمهـــا وبين البـــاني
وتفرقوا دنيـــا كأن لم يكفهم   في النائبـــات تفـــرّق الأديان

١٠٢) لبنـــان

قصيدته هذه من أربعة وثلاثين بيتا وهي من شـعره المتين الفخم ، غير ان القصيدة لم تخل من بعض المعاني الساذجة والتأليف الضعيف كقوله في المطلع :

اری الحسن في لبنان أينع غرسه		وقارب حتى امكن الـكفّ لمسه

فان صدره رائع حسن ، ولـكن عجزه ضحل عامي •• وكذلك قوله :

كأنّ جبـــال المتن حدبة عابد		هوى ساجداً شكراً وبيروت رأسه

فانه تشبيه ممجوج متهافت ••

اما قوله :

محل اصطياف الاغنياء من الورى		يعيش عزيزاً فيــه من ذلّ فلسه
فمـن يبذل الدينـار فيمـا يريده		فمـأواه محمـود والاّ فعكســه
كمثل الذي لا تصرف الفلس كفّه		ولو كان دون الفلس يقطع ضرسه

فهو عامي سخيف ، لا يحسن بشاعر من الفحول ان يزيد بمثله أبيـات شعره •• فوق كونه يحتجن من ذمّ لبنان ما لا يمحوه ما قاله في مدحه ••

وقوله :

فمــا كلّ ما قالت بـــه شعراؤه		سوى ثلث ما يحويه بل هو خمسه

ظاهر ان القافية هي التي جنت على الشاعر فأوردته هـــذا الضحضاح من الموارد •• والقياس بالثلث والخمس لايصح أن يساق الاّ في شعر المتون عنـد

ارادة نظم القواعد الحسابية من أجل مساعدة الصبيان على حفظها ..

ولكن الشاعر اجاد في قوله ـ يصف لبنان ـ :

زكا مغرساً فالذام ليس يؤمّه ... وطاب جنى فالسوء ليس يمسّه
قسا صخره لكن تفجّر ماؤه ... فلانَ بكفّ العيش منه مجسّه
لقد لبس الجوّ اللطيف فزانه ... بما فيه من غرّ المحاسن لبسه
ففي الليل لم يزعجك برد نسيمه ... وفي الظهر لم تلفحك بالحرّ شمسه[١٦٢]
فمن كان في طرق التواصل عثرة ... فقد جاز في شرع المحبّة دعسه
تضيء نجوم السعد واليمن فوقه ... فينجاب شؤم الدهر عنه ونحسه
ويهمس في اذن الطبيعة همسَه ... فيضحكها فوق الربا الخضر همسه

ومما اجاده ، قوله :

ونبع الصفا والتماع فيه كلاهما ... من الحسن ملأى بالبدائع كأسه
جرى الماء في واديهما متدفقاً ... بأنشودة الاطراب تنطق خرسه

وقال ـ يصف الشاغور ـ :

جرى ماؤه العذب الزلال محاكيا ... به الماس صفواً أو هو الماس نفسه
ترى طبع واديه رؤوفا بأهله ... شديدا على ما يزعج النفس بأسه
فمن زاره مستأنسا فهو أنسه ... ومن جاءه مستنزها فهو قدسه
فيا لائمي في حبّ لبنان انني ... احسّ لعمري منه ما لا تحسّه
وان تحمدوا منه الأيادي فانني ... انا اليوم من بعد الأياديّ قسّه

وفي ذكر قسّ الايادي صناعة ظاهرة ، وليس في البيت معنى مستقيم ..
وكذلك قوله (ومن جاءه مستنزها فهو قدسه) فليس له معنى واضح ..

---

(١٦٢) الاستعانة بالحرف (لم) في نفي الازعاج واللفح غير بليغ وانما ينبغي ان يستعين بالحرف (لا) والنصّ على نفي الازعاج عن برد النسيم في الليل لا محل له ، فان التشكي من برد النسيم غير التشكي من حر الشمس عند الظهيرة ..

وجاء بعده قوله :

عجبت لمدفون بـه بعد موته   ولم ينتفض حيّاً وينشقّ رمسه

ففيه مبالغة رائعة واداء رصين ..

ومما جاء من معانيه الساذجة قوله :

فمن لم يزره وهو ربّ استطاعة   تحتّم في سجن الحماقة حبسه
ومن زاره مستشفيا زاره الشفا   وان كان قبلا يائسا منه نطسه
ولو جاءه من فيه مسّ وجنّة   لما حلّه الاّ وقد زال مسّه

واما قوله :

وما حلّه مستوحش النفس واجم   من الناس الاّ تمّ بالضحك أنسه

فهو ظاهر السذاجة ، ولفظة (الضحك) هنا ممجوجة فهّة مبتذلة ..

واجاد في قوله (وهو من شعر الصناعة) :

كتبت كتاب المدح في وصف حسنه   فضاق ولم يستوعب الوصف طرسه

وقد ختم القصيدة بقوله :

الا انّ في لبنـان جوّاً مروّقا   اذا ما شفى المسلول لم يخش نكسه

لا مورد للمسلول في هذا المجال .. وليس البيت مما يصلح ان تختم به قصيدة .. فانّ من دأب الشعراء ان يعنوا بخواتيم قصيدهم عنايتهم بمطالعها . وقد كان (حسن الختام) باباً معروفاً في أبواب البديع ..

١٠٣) في مكتبة الاوقاف

انشدت في حفلة افتتاح مكتبة الاوقاف التي انشأها الشيخ أحمد الشيخ داود وزير الاوقاف سنة ١٩٢٨م وهي من القصائد المجوّدة ، وقد اثار بها الشاعر موضوع الضجة التي قامت بها ـ يومئذ ـ المحافل الدينية في بغداد ، ضدّ فكرة جمع الكتب من المساجد وايداعها مكتبة عامة تكون في متناول الجمهور ..

ومما اجاد فيه قوله ـ وهو يغمز حفظتها من أئمة المساجد ـ :

وكانت على علم حراسها تحفّ الظنون بها والريب
فمدّ اليها معالي الوزير يداً دأبها الغوث عند الكرب(١٦٣)
فأخرج منها كنوز العلوم لأهل الفنون واهل الأدب

وقوله :

لقد رضي العلم عن فعله وان أخذ الجاهلين الغضب

وقال ـ يغمز القوم من رجال الدين ويثلب نهجهم ـ :

ارى هؤلاء ضعاف العقول وان قد نراهم غلاظ الرقب
تضيق عن الحقّ ارواحهم وان لبسوا واسعات الجبب

وقال ، وقد ختم به القصيدة :

وقد كان عزمك فيما اردت يفلّ ظبى المرهفات القضب

(١٦٣) لفظة معالي لقب من ألقاب الدولة كان يطلق عند ذكر وزير وتسميته .. والوزير هنا هو الشيخ أحمد الداود .

فمـــن كان جـــذلان فليبتسم ومن كـــان غضـــبان فلينتحب

فرضه الابتسام على الجذلان لا مبرّر له وانما يحسن هنا اطراؤه لأنه سرّ لعمل من أعمال الخير •• ولـكن فرضه الانتحاب على الغضبان فيــه من التحدى والاستخفاف ما فيه •

ولم تخل القصيدة وهي مؤلفة من ثمانية وعشرين بيتــاً من بعض المآخذ كقوله (زوايا الشجب) وقوله (يا للفحول لهذا العجب) وقوله (ونجمد في غفلة هكذا) فانها من الركيك الضحل ••

كان الرصافي كثيرا ما يباهي بجزالة شـعره ومتـانته وينفي عـن شـعره الركاكة •

فمن قوله في ذلك :

لقد نزهتَ من غمـــز ولمز كما نزهتُ من شعر ركيك

وقوله :

وهل يخطر الشعر الركيك بخاطري اذا كـان في طوعي اختشـاب متينـه

ولـكن شعر الرصافي لم يسلم من الركاكة وهي كثيرة فيه ••

١٠٤) آل الجميل

قصيدة من سبعة عشر بيتا يمتدح بها فخري الجميل •• قال في مطلعها :

آل الجميل سرور كلّ حزين   كهف اليتيم وملجــأ المسكين

في صدر البيت عامية ظاهرة وركاكة ••

ومما اجاد فيه :

تعنو لهم سَرَوَاتُ كلّ قبيلة   وتهابهم آســاد كــل عرين
واذا تلوّثت الجبـــاه بخزية   فجبــاهم انقى من النســرين
عزّت بهم دار الســلام فهم بهـا   اركان عــزّ كالجبال مكــين
فاذا تقطعت المنى بك فاعتصم   منهم بحبل في الرجــاء متين
تتفاخر الأخرى بفضـل دفينهم   كتفاخر الدنيــا بفخر الدين
ذاك الذي مجد الجدود بمجده   قــد زاد تمكينــا على تمكين
ان ابن عيسى ابن الهمام محمد   لأجـلّ نجــل بالثناء قمــين
يا ابن الأكابر قــد دعوتك ظامئا   ظمـأ الحياة فجُدْ بمــا يرويني
وانا المشوق ولست ممن شاقهم   بقــر العذيب ولا مَهَا يبرين
لـكنّ قلبي لا يزال يشوقه   ظبي أقام بدار قسطنطين(١٦٤)
فأرش جناحي كي اطير بريشه   فيكون ظنّي في نداك يقيني(١٦٥)

---

(١٦٤) يريد بذلك (القسطنطينية) •

(١٦٥) المسموع (راش) ولـكن الشاعر احسن في استعمال الفعـــل رباعيا ••

اني اذا آوي اليــك فانمــا   آوى الى ركن أشــدّ ركين

وهي أبيات رائقة حسنة الأداء ظاهرة السلاسة ••

ومما ركّ من أبيات القصيدة قوله :

وأنا العليل بحاجــة تدري بهــا   واظن فضلك ناجعاً يشفيني

وكذلك قوله وقد جاء ساذجاً عامياً :

واعــذر فاني بالحقيقــة لم أبح   الا اليك وانت خــير فطــين

أما قوله :

واذا تماحكت الخصوم فبأسهم   يدع الخصيم مجــدّع العرنين

فلا أجده من المدح في شيء رغم اان شارح الديوان حاول ان يفلسفه على وجه ما •

أما قوله :

قد عاقني الاملاق عن سفري الى   من طــال معتلجاً اليــه حنيني

فجيد وهو صريح في عرض الحاجة التي كانت تتلجلج في صدر الشاعر •

١٠٥) البلبل والورد

موشحة من سبعة وعشرين بيتاً ليست بذات وزن في الموشحات ، اذ انها جاءت بسيطة الأداء والتأليف •

ومن مقاطيعها قوله ـ وهو أجودها ـ :

حتى اذا الورد مضى وانقضى   وعـادت الروضـة كالبلقعة
مسّت حشـا البلبل نار الغضى   من حرقة البين الذي اوجعـه
لا تسـأل البلبل عمـا مضى   في زمن الورد لـه من دعـة
ولـكن اسـأل في السماء القمر   عن خبـر الورد مع البلبـل
اذ كان يصغي منهمـا للسـمر   وهو مطـلّ ناظر من عـل

ومما يؤاخذ عليه من الألفاظ غير المتخيرة قوله :

مضمومة اوراقهـا الناضرة   مثـل فم يطلب تقبيـل فم

فلو قال (مثل فم مال لتقبيل فم) لجاء بالتوفيق الظاهر في وصفه • فان لفظة (الطلب) في مقامها هذا غير موفقة لما يلامسها من الغلظ والخشونة • وفي لفظة (الميل) توكيد على واقعية القبلة ، وليس شيء من هذا في الطلب •

أما قوله :

فظل يرنو مستديم النظر   رنوّ ظمـآن الى منهل

فخطأ ، لأن الظمآن اذا رأى المنهل اطمأن اليه وشعر بالراحة وأمن نصيبه من الريّ وابتلال العروق •

وانما يصح أن يقال في الظمآن مثل هذا اذا كان ينظر الى كأس ماء في يد آخرين لا رجاء له في ارتشاف شيء منه •

وقوله :

ينطق بالحبّ لها بائحاً   وهي التي تفعل إنطاقه

يريد أن يقول (وهي التي تنطقه) فسلك في تعبيره مسلك المتكلمين والفقهاء في مصطلحاتهم المعروفة •

فقال (تفعل إنطاقه) وكانت تلك المصطلحات من أقسى ما طرأ على البيان العربي من الأداء الجامد البليد •

وقوله :

لتخبر البلبل بعض الخبر   لعله غمّته تنجلي

فانه استعمل (لعل) فيه استعمالاً عامياً •

أما قوله :

فانه بات حليف السهر   مذ نزح الورد عن المنزل

فرائق جميل •

١٠٦) اغرودة العندليب

ارجوزة من اثني عشر بيتا قالها على لسان العندليب ، وكانت قد لحنت ايامئذ على لحن خاص فاتخذت نشيداً ينشده طلاب المدارس ، وفي الارجوزة مغزى ينهد الى الحرية والانطلاق ..

مطلعها :

سمعت شعرا للعندليب تلاه فوق الغصن الرطيب

ومن جميل أبياتها :

فسل نسيم الأسحار عني كم هزّ عطف الأغصان لحني

وسل بشدوي زهر الرياض اني بحكم الازهار راضي

فكم زهور بما أفوه أصغت وقالت لافض فوه

الأصل في استعمال (كم) ان تجيء مع المفرد لأن القصد من ايرادها التمثيل بالقليل .

ومما يؤاخذ عليه قوله :

أطير فيها لفرط وجدي من غصن ورد لغصن ورد

فانّ المعروف أن البلابل لا تعنى بالورد فهي غير الفراش ، كما ان الورد لا أشجار له انما يقوم على شجيرات ونجوم لا ترتفع عن الارض شيئاً ، والبلبل لا يدنو الى مثل هذه الشجيرات ..

وقوله :

فان اردتم ان تؤنسوني ففي المباني لا تحبسوني

ان البلابل لا تحبس في المباني انما تحبس في الاقفاص ..

١٠٧) الصيف

قصيدة من واحد وعشرين بيتا .. يصف بأبياتها الصيف وهي من روائع شعره في الوصف قال في مطلعها :

جـــاء المصيف فجفت الأنداء وشـــكت يبوستها به الأشـــياء
وتوقدت عنـــد الهجيرة شمسه فتلمظـت بلعابهـــا الصـــحراء
وعلى الديار تراكمت من شمسه ملء الفضـــاء حرارة وضـــياء

واما قوله :

فعلى من الشمس المنيرة أصبحت غضبى تجيش بصـــدرها الشحناء

فانّ الشحناء لا مكان لها هنا . وكان حرياً بالشاعر ان يختار لفظة غيرها ليسد بها شاغر القافية .

وقوله :

حتى استجار الليل من لفحاتها ركبٌ سَرَوْا فهدتهم الجوزاء

ضعيف التأليف ، فانه يريد ان الناس لا تسافر في النهـار القائظ من جراء شدة الشمس عليهم فيفزعون الى الليل يسافرون فيه ..

اما وصفه أشعة الشمس بقوله :

فحكت اشعتها حـرابا أشرعت بيضاً فمـــا بحديدها اصـــداء

فرائق بديع .. اما قوله :

انظر الى الحسناء في رأد الضحى تمشي فتلفح وجههـا الرمضاء

ففيه وهمٌ ظاهر ، فان الشمس في رأد الضحى لا يصح فيها مثل هذا المعنى •• وقد ردّ الشاعر نفسه هذه القالة حين قال في ذات القصيدة :

أضحى فطابت في ضحاه ظلاله   واتى الاصيل فطابت الأفياء

وكذلك ردّ على نفسه بقوله :

ولئن قسا عند الهجير فريحه   هبت بحاشيته وهي رخاء

اما قوله ـ يصف الحسناء ـ :

ان كان حرّ الشمس لوّح وجهها   فكذاك تؤذي الضرّة الورهاء

فبارع جميل النكتة ، فانه جعل الشمس والغادة الحسناء ضرتين ، بحيث فعلت الشمس بضرتها ما فعلت من لفح وجهها بالرمضاء ، واستنزاف العرق من جبينها ••

وأعقب هذا بفصل وفق فيه لتصوير أوضاع اجتماعية تلابس حياة فقراء الناس ومملقيهم ••

وقال :

اني لأغفر للمصيف ذنوبه   ولو ان غارة هيضه شعواء
فالصيف أرأف بالفقير من الشتا   ولذا تحبّ قدومه الفقراء
قلّت بـه الحاجات فالفقراء في   ايامه والأغنياء سواء
من كان اعوزه كساء منهم   فالصيف ملحفة له وكساء

وفي القصيدة مفارقات في الأداء فمنها ما يغلب عليه الغريب من اللفظ ، ومنها ما هو مبتذل عامي •

١٠٨) الشتاء

موشحة من أربعة مقاطع وهي من مستملح الشعر وظريفه •• ومما اورده فيها مورد الجدّ قوله :

والريح من برد الشتا صرصر   والجوّ يبدو عابساً مطرقا
قد صار فيه الترب المعسر   اذ لم يجد فيه له مرفقا
يا أيها الناس ألا فاذكروا   من كان منكم في الشتا مملقا
وأحسنوا فالفوز للمحسن

ومما جاء حسن الأداء والعبارة قوله ـ في المطلع ـ :

قد كانت الأغصان مخضرّة   وكانت الطير بها تسجع

ومنها قوله :

والليل قد طال على من شتا   وصار ليلاً بارداً مظلما

وقوله :

ان الشتا ارحم للمعدم   منكم وان اوجعه برده
لأنه بالعارض المسجم   ينبت زرعا يرتجى حصده

ومما جاء على وجه من الظرف والفكاهة قوله :

لعلّ هذا الرعد مذ صوّتا   هرّب منه تلكم الأنجما

وكذلك قوله :

علام قد غيّم ليل الشتا   فارتاعت الانجم مذ غيّما
واحتجبت فيه عن الأعين

اما قوله :

والغيم أمست عينه تدمع   من اجل هذا المشهد المحزن

فانه قاصر التعليل لأن المطر لا يقع في الليل دون النهار ••

١٠٩) التلغراف

ـ أو الاسلاك البرقية ـ

رجز من خمسة وثلاثين شطرا جاء على نمط الطرديات الشعرية ، مطلعه :

للبرق أسلاك تؤدى الأخبار   دقيقـة مثـل دقـاق الأوتار

وقد أنفق الشاعر عدداً كبيراً من شـطوره في وصف الـكهرباء وأثره في شؤون الناس :

وكم لهـــا بين الورى من آثار   تطوى المسافات بهم في الأسفار

وتنقل الأخبار ذات الأخطار   ثـم تضـــيء ليلهـــم بالأنوار

فتجعل الآصال مثـــل الابكار   مشـــرقة مبهجـة للأنظـــار

والقصيدة ذات طرافة ظاهرة ، وهي ضرب من الشعر غفل المحدثون عن النظم على منواله ..

١١٠) بيروت والتباريس

مقطوعة من ستة عشر بيتا يطرى فيها الشاعر بيروت ويشير باللوم الى وكر من أوكار القمار هناك قال في المطلع :

إنّ لبيروت بعمـــــرانها أمكنة تعلو التباريســـا

وفي البيت قصور في الأداء فقد أراد الشاعر ان يصف امكنته ـ هذه ـ بكونها تفضل التباريس وتمتاز عليها فلم تسعفه لفظة العلو في تحقيق ارادته .

ثم شرح أمر التباريس هذه فقال :

وما التباريس سوى مقمر يقضي على اللاعب تفليسا
يشـــدّ بالافلاس ايامـــه من حلّ في ملعبه الـكيسا

وهي تعابير عامية .. ثم يقول فيجيد في أدائه (غير ان البيت الثالث جـــاء ضئيلاً)

مُعَرَّس ، يقصده من نحـــا في اخريات الليـــل تعريســـا
ومـــرقص ترقص في بهـــوه أوانس تحكـــي الطواويســـا
ما فيـــه من باريس الاّ الذي يؤثر عن غـــادات باريســـا

ثم يقول :

لاســـيما أربـــع لبنانهـــا تلك التي تحكي الفراديسا
فكم كناس قد حوت للظبا وكم حوت للأســـد عرّيسا

ويقول ـ واصفا بيروت ـ فيجيد :

عروس لبنـــان أمـــا والــذي	صيّر مرآتــك قاموســـا[١٦٦]
ما أنت الاّ جنّـــة آمن"	آدم فيهـــا مكـــــر ابليسا
فيك تجلّى الله رب العـــلا	بالحسن مرئيّا وملموسا[١٦٧]
لولا جمال فيـــك مستودع	ما شرح الحـــب" لنا عيسى
كنيسة للحسن في حبّهـــا	قلوبنـــا صـــارت نواقيسا
ما الحسن في شيء بمستحسن	الاّ اذا كـان لــه توســا[١٦٨]

---

(١٦٦) يريد ان البحر هو مرآة لبيروت ٠

(١٧٧) ليس لقوله (رب العلا) مناسبة في هذا المقام ، ولو قال (سبحانه) لأجاد القول ، فان هــذه اللفظة من الــكنايات التي تســاق في معرض الاعجاب والدهشة فيكون ورودها أبلغ في العبارة ٠

فيــك تجلى الله سبحانه   بالحسن مرئيــا وملموسا

وكذلك يكون لهذه اللفظة معنى من الأدب في الحديث عن الباري العظيم ٠

(١٦٨) التوس الطبيعة والسجية ، وفي العين (جبلة كل مخلوق توسه الذي طبع عليه) ٠

١١١) في المستشفى الملـكي

عاد الشاعر صديقه الأديب عبدالمجيد الشـــاوي في أثنـاء مرضه ـ وكان الرصافي والشاوي عضوين في مجلس النواب يومئذ ـ فأنشده هذه الابيات ، وقد كان قد طال مكثه في المستشفى الملـكي الذي يطلق عليه حاليا اسم (المستشفى الجمهوري) ..

وهي من أربعة عشر بيتا ، فيها الجيد الفخم وفيها المتهافت الفه ّ .. فمما اجاد فيه قوله :

فدع عنـــك طبّا ههنـــا تستطبّه ففي المجد طب ّ ضامن ٌ لك ان تشفى

ومما جاء فهّاً جامداً قوله ـ يذكر مجلس النواب ـ :

فان لم تداركه بوصـــل معجّــل تداعت بــه الجدران أو ألقت السقفا

ومما جاء متين السبك بارع الأداء قوله :

فكم لك في تلك المجالس نكتـــة تهز ّ لها الآداب من فرح عطفـــا
اذا انت ارسـلت الحديث مخاطبـا فأية اذن لا تنوط بهـــا شنقا[١٦٩]
رأينا صريح القول فيـــك سجية فلم ترض يوماً للحقيقة ان تخفى

ومما اورده مورد الدعابة والهزل قوله :

أرى مجلس النواب اوحشت بهوه وقد كاد من صمت تغشّاه ان يغفى

وصدره لا يخلو من مؤاخذة بما اورده من الالتفات المختل .

وقوله (يَغْفَى) غير فصيح وانما الفصيح (يُغْفي) ويغفو ..

---

(١٦٩) خير من قوله (مخاطبا) ان يقول (مروّقا) ونحو ذلك مما يصلح ان يكون صفة حسنة للحديث ..

١١٢) الى عبداللطيف باشا المنديل

مقطوعة من خمسة عشر بيتا قالها يمتدح عبداللطيف المنديل احد سروات البصرة ووجهائها ، وقد جاءت القصيدة طرازا من الشعر الوجداني الرقيق ..
قال :

أبا ماجـد اني عهدتك مبصراً ... خفايا امور اعجزت كل مبصـر
اذا خفيت يوما عليـك حقيقـة ... نظرت اليها من ذكاء بمجهـر
وانْ ليلة الخطب ادلهمّت كشفتها ... بأوضاح صبح عن فعالك مسـفر
وتلك مزايا فيك أعلمت الورى ... بأنّ بني المنديل أكرم معشـر
فهل خفيت حالي عليك وقد بدا ... لـكل صديق انهـا حال مقتر
أتيتك من بغداد لم أدر ماالذي ... اتى بي الاّ انني في تحـير
واحمل في جنبيّ نفسـا غنيّة ... وان شقيت مني بجثمان معسـر
ولو كنت في بغداد ارضى بذلّة ... لما جئت الاّ ساحباً فضل مئزري
ولـكنني قد عفت ان ارد الغنى ... ونفسي في قيـد من الذل مقفر
وما عدل السعدون بي عن وفائه ... ولـكن جرى مجرى القضاء المقدر(*)
ولو انني بعت الثنـاء بنـائل ... لما رضيت نفسي بغـيرك مشتري
وان حديثي عنـك غير مرجّم ... وان مقالي فيـك غـير مزوّر
سأرحل عن ديوانك اليوم او غداً ... بعـزمة لا وانٍ ولا متقهقـر
وسوف ترى منّي لدى الدهر شاكراً ... وان كنتُ أعيا عن تمام التشكر

(*) السعدون : هو عبدالمحسن السعدون .

واكتب للتـــاريخ ما انا كـــاتب ليجعله احـــدوثةً كلُّ مخبـــر

ومما ورد فيها من حسن التعليل قوله ــ وقد مرّ ــ :

ولو كنت في بغداد ارضى بذلة لما جئت الآنَ ساحباً فضل مئزري

وفي القصيدة أبيات رائعة ، وما يؤاخذ عليه منها قليل .. كقوله :

سأرحل عن ديوانك اليوم او غدا بعـــزمة لاوان ولا متقهقـــر

فليس للعزم هنا معنى ، وكذلك ما افرط فيه من الوصف في قوله (لا وانٍ ولا متقهقر) فانها ألفاظ لا يقتضيها المقام ..

وقوله :

ولـكنني قد عفت أن أرد الغنى ونفسي في قيد من الذل مقفر

لعل صوابه (مفقر) .

وقوله :

اتيتك من بغداد لم ادر ماالذي اتى بي الآنَ انني في تحيّـــر

فانّ فيه ما ينمّ عن اضطراب الشاعر وذعره النفسي ان ينزل الى مثل هذه المنزلة من استنداء ذوي المال والثراء بلهجة صريحة .

فقد كان يريد أن يفضي بحاجته ويكشف عن عـدمه ، ولـكن كبرياءه واعتداده بنفسه كانا أحياناً ينازعانه دون ذلك .

١١٣) يا دار قسطنطين

يعني بدار قسطنطين مدينة القسطنطينية عاصمة السلطنة العثمانية يومئذ ..
والقصيدة من نسعة عشر بيتا ، الجيد منها قليل .. قال في المطلع :

يا دار قســـطنطين انت فريدة　　　في الحسن لولا جـو ّك المتقلب

ومما جاء حسن الأداء والعبارة قوله ـ يصف رطوبة الجو ّ في القسطنطينية ـ:

فتلين شر ّتهم وليس بهـم ضنى　　　وتشيب ارؤسهم وما هم شيّب

وقوله يصف تصنع القوم وملقهم :

فاذا تلألأت الثغــــور تبسماً　　　فالبرق في تلك المباسم خلّب

اما قوله :

عجبا فكم حمل رأيت ومذ نضا　　　ثوبَيْ تصنّعه اذا هـــو ثعلب

فان تثنية الثوب ليس لها جدوى في البيت سوى اقامة الوزن . والاستعانة بمثل هذا الاسلوب في اقامة الوزن ليس من حسن توفيق الشاعر ..
وجاء قوله :

حلمت نمورك خدعة وتظاهرت　　　بصداقة الخرفان فيـك الأذؤب

جيد الأداء .. اما قوله :

وترى الفتى منهم يعود محوقلاً　　　حتى يـروح لعنّـــة يتطبـــب

فيغلب عليه الأداء العامي فوق كونه ضحل المعنى ..
ومما جاء ضربا من التقعر قوله : (وعن الجنوب وذكرها أتجنب) ..
وختم القصيدة بقوله :

هذي صفاتك يا فروق برغم من　　　أثنـوا عليك بغـير ذاك وأطنبوا

١١٤) فلكس فارس

من قصائده ذات المستوى البليغ ، فهي ظاهرة الجزالة والسلاسة .. قال :

ان فلكس بن فارس رجل   بنا افتقار الى غنى أدبه
ثمّ له السبق في العلاء بما   احرز يوم الفخار من قصبه
مفوّه لو رآه يخطب في المحفل قسٌ جثا على ركبه
ينطق عن فطنة لها حكم   تبرىء قلب الجهول من وصبه
لم يصغ مصغ الى خطابته   الاّ وقد راقه فأعجب به
تعود كلّ الخطوب هينة   اذا فزعنا منها الى خطبه
أتعب في النصح نفسه فأتت   راحة اهل البلاد من تعبه
يطلب ان تنهض الرجال الى   مجد يجدّ الكرام في طلبه
سل عنه لبنان كم تطرّبه   منه خطاب فماد من طربه
وسل دمشق الشآم عنه وما   بعد دمشق الشآم من حلبه
كم ليلة للشكوك داجية   أنارها باليقين من شهبه
حرّ يؤاخي في الحق كلّ فتى   حرٍّ ولو شطّ عنه في نسبه
ان قال قولاً او انتضى قلماً   فنصرة الحقّ منتهى أربه
فاركن اليه وخلّ حاسده   محترقاً من جواه في لهبه
في نسبة الجوى الى الحسد غرابة .

١١٥) مليكة غناء العرب

قالها في المغنية (منيرة الهَوْزَوَزْ) والقصيدة من ستة عشر بيتا ، وهي ذات مستوى عامي ساذج ، وليس في أبياتها ما هو رصين الأداء فخم مقبول غير قوله :

فلو سمع القــوم ألحانها　　　لشــقوا عمائمهم والجبب

غير انه من ناحية معناه ليس بشيء ، وانمـا هو محض نبز وتحرش بفئة لا شأن لها في الموضوع ..

وقد كان الرصافي يتعمد معابثة القوم واغاظتهم كأنه يجزيهم على ما كانوا يصنعونه به من المغايظة أيام اعتمامه وضعفه ..

ومما جاء ركيك الأداء قوله (بأكبر عون وأقوى سبب) وقوله (وعنه الأغاني تزيل التعب) .

ومما ضحل من معانيه واختلجت عليه الرميّة فيه قوله :

بلحن اذا امتدّ هزّ القلوب　　　وخـدّر ابداننــا والعصب

وقوله وهو ظاهر السخف :

وان هي قامت لانشــــادنا　　　جثــونا لها وثنينـــا الركب

اما قوله في خاتمة القصيدة :

فبادر اليهـــا ولا تكترث　　　لما جاء من ذمّها في الكتب

فقد اورد (الكتب) في غير موردها الذي ينبغي لها ، كما انه خرج عن النهج السليم في المدح فانه لا يحسن غمز الممدوح بعد مدحه من دون ان يكون لذلك ما يقتضيه ..

ولم يتقن الشاعر صناعةً ارادها وهي الجناس في يبتزّ ويعتزّ من قوله :

تلــوح فتبتزّ بدر الدجى وتشدو فيعتزّ فــنّ الأدب

لو قال (فيهتزّ) لكان قوله أمثل منه اذ قال (فتبتز) .

وجاء من عباراته ما لا مفهوم له في صناعة الفنّ اذ قال :

فقــد أدركته على رسلها ونالت أقاصــيه من كثب

وهو يريد انها وفقت في الغناء ، ولكن الأقاصي والكثب كلام لا طائل فيه من معنى فنّي ..

وسخيف كذلك قوله(*) :

أرى فمهــا صيغ من حكمــة وأبخســه اِن أقـــل من ذهب

(*) نبزنا بعض شعر الرصافي أحياناً بكونه سخيفاً ، ليس مما ابتكرناه كأسلوب في النقد .. انما كان الرصافي نفسه قد قاله في نقد الشعراء من خصومه فمن ذلك :

ولا عجب ان عابني الشاعر الذي يقول سخيف الشعر وهو مقلد

١١٦) الى جميع الغواني

مثنيات شعرية تتألف من ثماني قطع .
ومما جاء منها حسن الأداء رقيق اللفظ قوله :

ومنكنّ سمراء تحكي الدمى   وتبعث في القلب ميت الهوى
على شفتيها يلوح اللمى   فيضرم في الصبِّ نار الجوى

وقوله :

ومنكن صفراء في لونها   كأن قد تردّت شعاع الأصيل
اذا ما تمشّت على هونها   أصحّت هبوب النسيم العليل

ومما جاء منها عامياً مبتذلاً :

فمنكن بيضاء ما مثلها   (عدا حمرة الخدّ) الا القمر
فتلك التي طاب لي وصلها   كما ليلة البدر طاب السمر

ومما ركّ من قوله :

أرى عينها وهي خلاّبة   فأمسك بالكفّ مني الضلوع

ومما جاءت فيه المبالغة بلهاء :

ومنكن من هي مثل النجوم   من البعد ناظرة تبتسم
فتلك عليها فؤادي يحوم   وتلك اليها الردى أقتحم

على ان القصيدة بصورة عامة من قصائد الصناعة وليست من الشعر الجيد المطبوع ..

١١٧) قصر البحر

قالها يصف فندق قصر البحر في بيروت وهي من ثمانية وعشرين بيتا ..
ومما يؤخذ عليه منها :

وتمتلىء العيون به ابتهاجا　　اذا نظرت وتنشرح القلوب

فقوله (اذا نظرت) كلام زائد ..

فمن شمس يصافحها طلوع　　ومن شمس يعانقها غروب

فهو من شعر الصناعة ، وقوله :

ومن سفن تجيء بها شمال　　ومن سفن تجيء بها جنوب

لا يصدق على الواقع من امر السفن في البحر المتوسط فانها لا تخضع في سيرها للريح ..
وقوله :

أطلّ على المياه فقابلته　　بوجه لا يمازجه شحوب

لو قال (لا يمازجه قطوب) لكان اثبت للمعنى الذي يريده ، فان نفي القطوب يعني لطف المقابلة وبشر اللقاء ، اما نفي الشحوب فليس وراءه معنى اصيل ..
وقال يصف السفن فيذكر منها الرواكد والتي لا تزال تمخر عباب البحر ببخارها :

وأخرى حوله خمدت لظاها　　وأخرى في الفؤاد بها لهيب

فلم يحسن الشاعر اداء المعنى الذي أراده اذ جاء باللفظ البعيد الذي لا يورد في التعبير عن مثل هذا المعنى .. على ان البيت برمته فضلة في القصيدة ينبغي حذفه ، وليس من ضرورات الوصف ان يمرّ الشاعر على كل شيء اتي عليه بالشرح والتفصيل ..

وقوله :

يقبّل جانبيه البحر حتى   كأنّ البحر مشغوف كئيب

لا ضرورة للفظة كئيب في وصف البحر أو وصف المشغوف .. وانما كان ذلك من صنيع القافية .

اما قوله :

كأنّ الموج في الدأما رجال   وهذا القصر بينهم خطيب
تخاطبهم مبانيه فيعلو   من الأمواج تصفيق مهيب

فساذج بليد التمثيل ..

وانتقل الشاعر بعدئذ الى التشكي من وضع العراق والرثاء لحالته ، قال :

تبسمت البلاد بكل ارض   وما زال العراق به قطوب
فها هو من تكاسل قاطنيه   تجرّ عليه كلكلها الخطوب
اذا تدعو الرجال به لخير   يجيبك من تخاذلهم مجيب
فيالهفي على بغداد أمست   من العمران ليس لها نصيب
سأبكي ثم أستبكي عليها   اذا نضبت من العين الغروب
أيا بغداد لا جازتك سحب   ولا حلّت بساحتك الجدوب

ولم يكن هناك رابط بين الحديث عن قصر البحر وبين الحديث عن بغداد وقد ظهر قصور الشاعر في محاولة الربط بين الحديثين ظهوراً واضحا .. على ان أبياته تلك جيدة متينة .

ثم انتقل الشاعر الى موضوع آخر لا علاقة له بما قاله من التلهف على

بغداد من جراء انها لم يكن لها من العمران نصيب ••

فها هو ذا يقول :

تطـــاول ساكنوك عليَّ ظلمـاً	فضـاق عليَّ مغنـاك الرحيب
وكم نطقـــوا بألسنة حـــداد	يسيل بهـا من الأشداق حـوب
رماني القوم بالالحاد جهـــــلا	وقالوا عنـــده شـــكٌ مريب
ألا يا قوم سوف يجـدّ جدّي	وسـوف يخيب منكم من يخيب
فمن ذا منكم قـــد شقّ قلبي	وهل كشفت لـكم فيَّ الغيوب
فعنـــد الله لي معكـــم وقوف	اذا بلغت حناجرهـــــا القلوب

والعجيب من أمر الرصافي ليس هو الالحاد الذي يظهر في العديد من قصائده فقد ظهر في عالم الشعر والفكر ملاحدة كثيرون حرصوا على نشـر آرائهم الصريحة في الدين والتقاليد متحملين في ذلك كل المسؤوليات ، ولـكن العجيب من امره انه يقول القالة التي هي كفـــر بواح ثم ينعى على ناقديه ومزيفي رأيه بأنهم يتجنون عليه وان له معهم موقفا بين يدي الله يوم الحساب ••

اما رده على خصومه بأنّ ايّاً منهم قد شق قلبه فماز ايمانه من كفره ، فانه رد ظاهر المغالطة والمـكابرة فان الناس انما واخذوه بما قاله هو وصرح به غير مرة في قصائده ، فلا معنى لشق الصدر بعد الاقرار ••

ولسنا نريد من الرجل ان يؤمن ، فانّ هـــذا امر موكول الى نفسه •• والـكننا لا نرضى له ان يتستر على نفسه بمثل هذه السُتُر ، وهو ذو رأي كان ينبغي عليه اذ جاهر به ان يتحمل نتائجه كائنة ما كانت ، وذلك هو شأن رجال الفكر في التاريخ ••

ولـكن الرصافي اذ كان يملك الجرأة الجـــريئة في الـكشف عن آرائه ومعتقداته فانه لم يكن يملك من الجرأة شيئا في مجابهة ما يثار عليه من ضجة(*) •

(*) في كتابنا (الرصافي ؛ ذاتيته ونفسيته) تفصيل لهذا المعنى •

وكان الشاعر الفيلسوف جميل الزهاوي أصلب منه وأثبت في مثل هـــذه المواطن ، وأجمل اعتذاراً وتخلصاً .

على ان إلحاد الرجلين كان مضطرباً مترجرجا كايمانهما .. وفي القاهرة (سنة ١٩٣٩) في مقابلتي للعلامة الفيلسوف الجليل الاستاذ محمد فريد وجـدي ذكر الرجلين بين دعاة الالحاد ، فقلت له ان إلحادهما غير مستقر فانهما على رغم ما يجهران به أحياناً من الـكفر لا يتخلفان عن نظم القصائد في المناسبات الدينية اذا طلب اليهما ذلك .. فرأيته اطمأن الى هذا الرأي ..

١١٨) محاسن الطبيعة

موشحة انفذها الى (ندرة بك المطران) وهي من عدة مقاطع تبلغ أبياتها اثنين وأربعين بيتا •• غير انها ليست من الشعر الذي ينسب للفحول ، فقد جاءت ساذجة عامية ••

ومما جاء بارعاً من أبياتها قوله :

والبدر في مفرق هام السما   تحسبه التاج على مفرق

وقال يصف البحر :

لم تخف في اثنائه خافية   حتى ترى فيه اهتزاز النسيم

ومن نماذج هذه المقاطيع قوله :

وظل يرنو تارة خلفه   وتارة ينظرها مغرما
ثم تدانى واضعاً كفّه   في كفها يطلب ان يلثما
وخرّ من وجد على الناصية   وقلبه يركض ركض الظليم
وهي غدت من اجله جاثية   واحتضنته كاحتضان الفطيم

فان هذا محض ألفاظ ملقاة على عواهنها ، وهي كذلك عامية اللهجة ساذجة المعنى ، ولم يوفق الشاعر في وصف هذا المشهد كما وفق في وصفه شعراء كثيرون ••

وكان المقطع الأخير من هذه الموشحة قوله :

يا من بنى المجد فأعلى البنا	فكان أعلى الناس في مجده
اِقبل من العبد جميل الثنا	وان يكن قصّر عن حدّه
ومُرْهُ ثم احكم به ان ونى	ما يحكم السيد في عبده
اذ انت بالمنقبة السامية	قد خصك الله العزيز العليم
فاهنأ ودم في عيشة راضية	رغم المعادي وسرور الحميم

فقد رضي ان يعبر عن نفسه بالعبد ، وهو من المجاملات السمجة التي زال مقتضاها ، ولم يعد من حسن التعبير استعمالها وايرادها ..

وقوله (ومره ثم احكم به) تعبير عامي .. وقوله (رغم المعادي وسرور الحميم) اداء ركيك مضمحل ..

والموشحة تافهة بصورة عامة ..

١١٩) ليلة في دمشق

قصيدة من ثلاثة وعشرين بيتا قال في أوائلها فأجاد :

صوت كأنّ الغانيات أعرنه هيف الخصور
سرى الهموم عن الفؤاد بجوف حالكة الستور
والعود ينطق باللحون بلهجتي (بَمٍّ) و (زير)
يرمي به الصوت الرخيم على الدجى لمعات نور
يحكي الزلال لدى العطاش أو الثراء لدى الفقير
أصغيت منقطعاً اليه عن المواطن والعشير
فحسبت نفسي في الجنان بغير ولدان وحور

ثم انتقل الشاعر الى ادكار العراق وكانت سفرته تلك أولى سفرة غادره بها الى الخارج ، وقد أحسن في هذه الابيات وصف خلجاته :

وذكرت من تبكي عليّ هناك بالدمع الغزير
تستوقف العجلان ثمة بالرنين عن المسير
وتقول من مضض الفراق مقال ذي قلب كسير
أبني سر سير الأمان من الطوارق في خفير
يا أمّ لا تخشي فانّ الله يا أمي مجيري
أعلمت اني في دمشق أجرّ اذيال السرور
بين الغطارفة الذين تخافهم غِيَرُ الدهور

من كــلّ وضــاح الجبين أغــرّ كالبــدر المنــير
حــرّ الشــمائل والفعــائل والظــواهر والضــمير

ومما ضحل من تعابيره :

وطربت من صــوت يجيء اليّ من غــرف القصــور

أما قوله :

مــلأ الظــلام توقـداً كالـكهرباءة في الأثــير

فانه ضحل الأداء والتشبيه ..

١٢٠) حول البسفور

من خمسة عشر بيتاً ، وهي من روائع قريضه ، وقد أحسن بها الوصف ، وجاء فيها بالجزل من اللفظ :

خليلي قومًا بي لنشــهد للربا بجــانبي البسفور مشــهد أسرار
أجيـلا معي الأفكار فيهـا فانهـا مجــال عقــول للأنام وأفكــار
خليليّ ان العيش في ماء (شرشر) اذ الشمس تستعلي وفي ماء خنكار[١٧٠]
سفوح جبــال بعضها فوق بعضها مكللـــــة حافاتهــن بأشــجار
يروق بجنبيهــا خــرير مياهها ويشــجي بقطريهــا ترنّم أطيـار
ويجري النسيم الرطب فيهـا كأنه تبختر بيضــاء الترائب معطــار
معاهد زرها في الهواجــر تلقها موشــحة فيهــا برقة أســحار
نزلنا بها والشمس من فوق أرسلت على منحنى الوادي ذوائب أنوار
وقــد ظلّ من بين الغصون شعاعها يوقع ديناراً لنا جنب دينــار[١٧١]
كأنّ التفاف الدوح والنور بينها جيوب من الأنوار زرّت بأزرار
تميل اذا هبّ النسيم غصــونها فتأتي بظــلّ في الجوانب مورّار

(١٧٠) شرشر وخنكار موضعان بالقرب من البسفور ..

(١٧١) البيت مأخوذ من قول المتنبي :

(وألقى الشرق منهـا في ثيابي   دنانيراً تفــرّ من البنــان)

على ان في ايراد لفظة (لنا) ركة ظاهرة . فهلاّ قال (الى جنب دينار) .

ترانا اذا ما الطير في الدوح غردت نميـــل بأسماع اليهـا وأبصـــار
رياض تنسمنا بها الريح ضحوة فنمّت لنا من طيبهنّ بأســـــرار
يلوح بها ثغـــر الطبيعة باسماً فيفترّ منها عن منابت أزهـــار
مشاهد في تلك الربا ومناظـــر تجلت على اطرافها قدرة الباري

١٢١) تأثير التربية

قالها في بيروت بعد ان شاهد مسرح الحيوانات ، وهي من ثلاثة وعشرين بيتا ، وقد جاءت اوائلها ضعيفة ضئيلة المعاني ..

وكان من خطأ التشبيه فيها قوله :

اما الـكلاب فجـاءت وهي كاسية ... يرقصن منتصـــباً في اثر منتصب
قامت على ارجـــل تمشي معلـّمةً ... مشي المليحة في أبرادها القشب

فليس من صواب القول تشبيه الـكلاب بالملاح من النســـاء .. ولـكن قوله :

وكانت الأسد تجري في اطاعتها ... مجرى الكلاب بحكم الخوف والرهب

مقبول التشبيه لوجود دواعيه .. ولفظة (بحكم) هنا فقهية الأداء .

وأجاد الشاعر في قوله :

شاهدته مشهداً بدعاً علمت به ... ان الغرائز لم تطبع على الشغب
وان خبث البرايا في طبائعهـــا ... لابد فيه سوى الاطباع من سبب
وان ليث الشرى ماصيغ مفترسا ... لـكن احالته فرّاساً يد السغب
وكم من الناس من قد راح مندفعا ... بدافع الجوع نحو القتل والسلب
وان تربيــة الانســـان يرجعه ... اكسيرها وهو من ترب الى الذهب
هذا اذا حسنت اما اذا قبحت ... فالمندليّ بها يمسي من الحطب

فكلّ ما هو في الانسان مكتسب   فلا تقل : فيه شيء غير مكتسب[١٧٢]

قوله (صيغ مفترساً) ليس بالتعبير السليم ..

ومن عامي ألفاظه ومعانيه ما جاء في قوله :

خضعن للسوط حتى ان أعقدها   لو يأمر السوط يغدو مرسل الذنب

فان قوله (لو يأمر السوط) ظاهر العامية وارسال الذنب المعقّد سمج المبالغة .

وقوله :

كأنما الليث لم يخلق اخا ظفر   محدّد الناب قذّافاً الى العطب

فان (قذّافاً الى العطب) تعبير ركيك .

ومن حكمه الحسنة :

والمرء كالنبت ينمو حسب تربته   وليس ينبت نبع منبت الغَرَب

وكذلك قوله :

فاحرص على أدب تحيا النفوس به   فانما قيمة الانسان بالأدب

---

(١٧٢) هذا قول لا يقرّه علماء النفس ، فللغرائز عندهم اثر ثابت في النفوس والطباع ..

١٢٢) يقظة الشرق

انشدت في مأدبة نادي المعلمين لتكريم وفد الجامعة المصرية مساء ٩ شباط ١٩٣١ في اوتيل (كارلتون) ببغداد ..وهي قصيدة من عشرين بيتا جاءت اشبه بريبورتاج صحفي تحدث فيها الشاعر عن النهضة التي يراها دبّت في الشرق فذكر الهند والترك والفرس والكرد والصين والنيل وبغداد والحجاز ونجدا وغير ذلك . ولم تحتو القصيدة على شيء من المعاني ذات المستوى الراقي ، انما جاءت معانيها على جانب من السذاجة الفطرية .

وكان على الشاعر ان يقول من الشعر ما يرقى الى مستوى المناسبة غير انه اكدى فجاءت قصيدته باردة جوفاء ..

ومما أخطأ فيه من حيث الأداء اللغوي قوله :

سلام على مصر التي أرسلت بكم   فطاحل علم لا تحيـد عن القصد

صحيحه (ارسلتكم) وليس ارسلت بكم .. لأن تعدية الارسال بحرف الجرّ لا يكون الاّ مع غير العاقل وقد جاء في الذكر الحكيم (اني مرسلة اليهم بهدية) اما مع العاقل فلا تصحّ ..

وليس بين أبيات القصيدة بيت يحسن سماعه غير النزر اليسير ومن ذلك قوله :

وتمتـــدّ بين النيل منهـــا ودجلة   مدى الدهر اسباب التعاون والودّ

وقوله :

تباشير صبح لاح بعـد نحوسة   مشيرا الى ما نرتجيه من السعد

واما قوله :

لقـد جئتم روّاد علـم وحكمة   فحييتم ازكى التحيات من وفد

فأحسن منه ان يقول :

وفدتم علينا اليوم روّاد حكمة   فحييتم ازكى التحيات من وفد

١٢٣) الى القزويني[١٧٣]

القصيدة من الشعر ذي الطابع الفصيح الناصع .. وقد جاءت في أربعة وعشرين بيتاً نحا فيها منحى مهيار الديلمي في روائعه ، قال :

قف بالديار الدارسات وحيّها ... واقر السلام على جآذر حيّها
وانشد هنالك للمتيّم مهجة ... فنيت من الاهواء في عذريّها[١٧٤]
وسل المنازل هل علمن بأنني ... قد شفّ جثماني الهوى بظبيّها
يا قلب أيّ هوى اصابك عندما ... أصميت باللحظات من ثعليّها
رشأ اذا ابدى ابتسامة شائق ... اجرى المدامع من عيون عصيّها
شغل القلوب بحبه ولطالما ... فتكت ضعاف لحاظه بقويّها
من لي بلثم مقبّل من شادن ... عذب الثنايا الواضحات شهيها
يا عاذلا صدع القلوب بلومه ... مهلا فليس خليّها كشجيّها
من ذا استطاع يردّ عن غيّ الهوى ... فئة ترى كلّ الرشاد بغيّها
دع يا عذول اخا الغرام معظمّا ... للدار يلثمها كرامة ميّها

---

(١٧٣) ترجم له الاستاذ علي الخاقاني في شعراء الحلة (هو أبو المعز السيد محمد بن محمد المهدي بن حسن بن أحمد بن الحسين بن الأمير ابي القاسم الشهير بالقزويني علامة جليل وزعيم مطاع وفقيه مرن وأديب مطبوع ولد بالحلة عام ١٢٦٢هـ وتوفى سنة ١٣٣٥هـ) .

(١٧٤) استعمال (الاهواء) جمع هوى بمعنى الحبّ مما يؤاخذ عليه الشاعر فان هذا الجمع انما يرد للهوى بمعنى الغيّ ..

كأفاضل الفيحـــاء حيث تفاخرت ... بسريّها الجحجاج وابن سريـّها
السيد الســـند الهمام محمـــد ... فرع النبوة وابن خـــير وصيهـــا
كم شـــاع للفيحـــاء بين بلادنا ... شـــرف حوته بفضـــل قزوينيـّها
ذاك الذي كم من مناهل فضله ... فازت محـــلأة النفوس بريـّهـــا
يا سيدا في المجـــد احرز شهرة ... ملأت مســـامعنا بصوت دويـّهـــا
و'الـَتـْكَ' نفسي ترتدي بل سؤددا ... وقد ارتدته فكنت خـــير وليـّها
لم لا اســـود بحبكم في امـــة ... فرض المهيمن حـــبّ آل نبيـّهـــا
زهت المـكارم فيك حيث لبستها ... شـــيماً تزّيا الأكرمون بزيـّهـــا
فعشقت منك على البعـــاد خلائقاً ... شغلت ـ و حقك ـ مهجتي عن حيـّها
فاليكها عـــذراء عـــزّ قيادهـــا ... لولا مديحك لم تبح برويـّهـــا
وافتك في رمضان تنشـــر مدحة ... عبقت تهـــانيك الحسان بطيـّهـــا
لتشدّ معك عـــرا الوداد وثيقة ... بيـــد ، ولاؤك كان خـــير حليـّهـــا
اني لأغبطهـــا اذا هي انشـــدت ... بنديّ عفّ الذيل منك ذكيـّهـــا
وغدت تجيد المدح منـــك لسيد ... شهم الغطارفة الـكرام أبيـّهـــا

وقد ضاهى الرصافي بقصيدته هذه شعراء الحلة المجودين مضاهاة ظاهـــرة موفقة ..

١٢٤) الى حماة الاطفال

قصيدة من (٢١) بيتا جاءت في أوائلها بعض الابيات الفجة الركيكة كقوله :

لله تلك الدار من متبوّءٍ　　بذّ النجوم بقدرة المتعالي

فليست لقدرة المتعالي مناسبة في موقعها هذا ، وانما يساق مثل ذلك في المواطن التي يقع فيها ما يشبه خرق العادة مما يقتضي بالغ الاعجاب والدهشة .
وقد جاء مثل ذلك موفقاً في قوله من قصيدة :

مشاهد في تلك الربا ومناظر　　تجلت على اطرافها قدرة الباري

فانه قول قاله في مقامه الذي ينبغي له .

ومما ركّ من ادائه (كافحتم الأدواء في ايتامنا) وكذلك قوله :

ضمنت لأيتام الأرامل طبهم　　وغذاءهم وبشائر الاقلال

فان (بشائر الاقلال) هذه ظاهرة الركة ..

وجاء ذكر الاجبال في غير مقتضاها من قوله :

وعنوا بتربية البنين عناية　　زادوا بها شمما على الأجبال

ولكنه أجاد في قوله :

وبنوا لهم داراً بما جادت به　　أيدي أكارمهم من الاموال
صانوا بها الانسال من أمراضها　　ومن الحقوق صيانة الانسال
دار تقيهم بالأواقي كلّ ما　　يخشى من الاوجاع والأوجال

وقوله :

أحماة اطفال الأيامى انكم　　جدراء بالتعظيم والاجلال

وجاءت خواتيم أبياته جيدة موفقة بارعة الأداء رائقة المعاني :

في حومة الاحسان طال صيالكم ... حقاً فأنتم اشرف الأبطال
سيدوم مسعاكم ويبقى دأبكم ... في الدهر غير مهددٍ بزوال
ولسوف يذكركم ويشكر سعيكم ... من سوف يخلفكم من الاجيال
لله انتم من افاضل خلّص ... فاقوا الانام بأشرف الأفضال
اني احاول ان اكون معينكم ... لولا موانع يعترضن حوالي
لو ان ذات يدى استطاعت رفدكم ... ما فاق نول الرافدين نوالي
ولو انّ ايامي تجود بصحتي ... ما جال اقوى العاملين مجالي
ان لم اعنكم بالفعال فانني ... ما زلت من اعوانكم بمقالي
فاليكم هذا الثناء مخلدا ... من مادح في المدح غير مغال

١٢٥) شاعر البشر

أراد بشاعر البشر ابا العلاء المعري وهي تسمية شاءها الرصافي للمعري وجاء في حاشية الديوان تسميته بشاعر البشرية الأعظم ، وفي هذا غلوّ ظاهر ..

وهذه مثنيات شعرية تتألف من ثلاث وعشرين رباعية ، واسلوب الشاعر في مثنياته هذه ليس بالاسلوب السويّ وذلك لما يغلب عليه من التهريج كقوله (شاعر يملأ الفضا) وقوله (شاعر الارض والسما) وقوله (عالمي بفكره).

وقوله :

لا تقل شاعر العرب ... انه شاعر البشر

وقوله :

ما ورى فيه وريه ... قبله كل من شعر

ومما خرج به عن النظام الشعري في مثنياته قوله :

حكم العقل واجتهد ... وتغابى عن القدر
هو في القول ما اعتمد ... غير ما ذاق واختبر

وكان عليه أن يأتي بالروي على الدال في الشطر الثاني حسب ما التزمه من ذلك في هذه المثنيات ..

أما قوله (ونفت كل ما استقرّ) يصف به نفسية ابي العلاء فانه ركيك اللفظ قاصر الأداء ..

ومن مبالغاته التهويشية :

هـــو بالشعران شـــدا يتجلى لـــك الهـــدى

ومن خبيث قوله ولئيمه :

دينهـــم مـــن ريائهـــم وهــــــو في أغبيائهـــم
ليس في اذكيائهـــــــم غير من مان أو مكـــــر

وقوله :

شــــاعر ليس فوقـــــه شــــاعر من بني البشـــر

ومما جاء عامي اللهجة قوله :

عنـــدما غمّـــــه الردى اظلم الجـــوّ واعتكـــر

ومما تحذلق فيه قوله :

نحـــن اسرى ذواتنـــا خشـــــية من مماتنـــــا
كـــم وكم في حياتنـــــا مبتـــدا مالـــه خبـــر

ومما جاء سليماً مستقيما من أبيانه قوله :

ابصـــر الحـــقّ بالعمى لم يضِرْه عمى البصـــر

وقوله :

شــــاعر شـــعره اجتلى صـــوراً كلهـــا غـــرر

اما قوله ـ في وصف الناس ـ :

شرّهـــم غـــير محتمـــل خـــيرهم غـــير منتظـــر

فانه رغم سذاجته وعاميته يمثل وجهة نظر المتشائمين ••

١٢٦) ذكرى المآثر التيمورية

نظمها في ١٤ كانون الثاني ١٩٤٥ وجـاء تاريخها في الديوان مغلوطـاً وتقع مقطوعته هذه في اثني عشر بيتا وهي مما جاء من شعره فصيح اللفظ متين الأداء قال :

لأحمـد تيمـور مآثر لم تزل ... تشـير بتعظيم اليهـا الأنامل
شـوامخ كالأطـواد عاليـة الـذرا ... ولـكنهـا لا تعتريهـا الزلازل
تزيد على كرّ الجديدين جدّة ... وتبلى الدواهي دونهـا والغوائل
اذا ذكرت في القوم حـلّ لها الحبا ... وقام لها جمع من القوم حافل[١٧٥]
هو العالم الحبر الذي كان علمه ... كأخلاقه فيـه النهى والفضـائل
اذا لم يزن علم الفتى حسن خلقه ... فما هو في شيء على الناس طائل
به فقدت مصـر العزيزة فاضلا ... لـه في مغانيهـا مسـاع فواضل[١٧٦]
أقام بها ما فاق في الفضل نيلها ... خـزانة كتب تنتحيها الأفاضـل
مناضـدها للتـائهين معـالم ... واسـفارها للظامئـين مناهـل
اذا غمّ افق العلـم ابدت اثارة ... تقـوم بهـا للحـائرين دلائل
عليه سـلام الله ما هيب عالمٌ ... وعِيبَ باهمـال التعلم جاهـل
ولا برحت مصر ينير لهـا الدجى ... رجال عظـام من بنيهـا اماثل

لو قال (قماطرها) لـكانت اوقع اداءاً من (مناضدها) ..

---

(١٧٥) يكثر الرصافي في شعره من ذكر القيام وحلّ الحبا الى درجة من الابتذال بلغت الافراط .. وقوله هنا : (وقام لها جمع من القوم حافل) ضرب من سخيف القول ..

(١٧٦) وصف مصر بالعزيزة لا يقتضيه المقام وانما هي لفظة سوّى بها الشاعر استقامة البيت ..

١٢٧) أبو الطيب المتنبي

القاها في الجامعة الاميركية في بيروت في الثاني من حزيران سنة ١٩٣٤ في ذكرى ابي الطيب وهي من ثمانية وأربعين بيتا غير أن أربعة أبيات منها لم تورد في ديوانه ، وقد أتممنا درج القصيدة نقلا عن جريدة الاستقلال الصادرة يومئذ ..

والقصيدة احدى مجوّداته وقد جاءت ثرّة بالرقة والسلاسة ..

ومما يؤاخذ على الرصافي فيها انه كابر في نقد (ابن عباد) وكان ابن عباد قد عدّد على المتنبي مساوئه في الشعر ، ولكل شاعر مآخذه ومساوئه فليس في الشعر عصمة أو قدسية يمسك عندها الناقد لسانه ..

وقول الرصافي في (ابن عباد) :

طماعة منك غير واعيـــة　　　وهي لعمري حماقة وبَلَـهْ

كأنّ الرصافي أراد ان يترك به في الأدب سنّة جديدة يثبت بها للشاعر عصمة تحميه من نقد النقاد ..

ولكنه في ذات قصيدته ذكر من الشعراء من يرجع منشد شعرهم كآكل البصلة .

وها هي القصيدة ذه :

كـان ابو الطيب امـــرءاً قولة　　　يبتكر الشـــعر مذكياً شـــعله
صـاحب نفس كبـــيرة شرفت　　　فشـرّفت حلّه ومرتحله(١٧٧)

(١٧٧) للرصافي في المتنبي رأي غير هذا ففي جريدته (الامل ــ العدد ٩ سنة ١٩٢٣) قال : (سمعت مرة أحد أصدقائي الفضلاء وانا في القدس يتكلم عن المتنبي بأنه كبير النفس فأنكرت عليه ذلك ، وأنا أبين هنا رأيي في هذه المسألة بما يتضح به وجه الانكار ...) .

كان هو الشاعر الذي انتشرت ... اشعاره في البلاد منتقلة

اوجد للشعر دولة عظمت ... به فعزّت من قبله دوله

من كلّ معنى اغرّ مؤتلق ... في لفظة كالعروس في الحجلة

وربما رقّ لفظه فبدت ... في شعره كلّ كلمة ثملة

وربما لم تبن مقاصده ... لأنها فيه غير مبتذلة[178]

فسائلن عن قريضه حلباً ... كم قطفت منه زهرة خضلة

خلّد ذكراً لسيف دولتها ... ايام وشّى بمدحه خلله

فاعجب لسيف لم تبل جدّته ... وشاعر بالمديح قد صقله

لو حاز موسى مضاء عزمته ... ما تاه في التيه عندما دخله

وهو الذي اجتازه بيعملة ... تحمل منه الهمام لا التكلة

قد بات كافور من جراءتها ... على الموامي بمهجة وجلة

اذ أعجزته بالسير عن طلب ... لا خيله تختشي ولا ابله

فسل به النيل يوم ناقته ... تغمرت منه وانتحت جبله

كيف اتى مصر كالعقاب لكي ... يبلغ فيها بشعره أمله

وكيف أحيا بالمدح أسودها ... ثمّ وشيكاً بهجوه قتله

في شعره حكمة مهذّبة ... وروعة بالذكاء مشتعلة

ونغمة بالشعور صادقة ... وصنعة بالفنون متّصلة

قدرته في البيان واسعة ... يتيه فيها السؤال والسأله

اذا المعاني بذهنه ازدحمت ... ما ربكت في انتقائها حيله

كم شاعر قد قفا له اثراً ... وناقد راح يبتغي زلله

فأخفقوا عاجزين عن درك ... لبعض ما كلّه تيسّر له

قل لابن عباد أي منقصة ... من اجلها كنت مكثراً عذله

ام شعره والعصور ما برحت ... تسعى بكل استجادة قبله

لكنما رمت من مدائحه ... ما لم تكن سالكا له سبله

طماعة منك غير واعية ... وهي لعمري حماقة وبله

---

(١٧٨) تعليل عدم وضوح المقاصد بعدم الابتذال تعليل غريب ..

ا كبر من اكبـــر القريض به ... واكبـــر القاتلين مـــن قتله
يا قاتليـه لو تعلمون بـــه ... اذن قتلتـــم نفوســـكم بدله
لـكنكم تجهلـــون رتبتـــه ... ماذا فعلتم يا أجهل الجهلة
قتلتم الشعر والاجادة والابداع ... فيـــــه يا ألأم القتـــلة
لستم بذا القتل من بني اسد ... بل انتم فيه من بني ورلة
لم يزل الدهر بعد مقتله ... يضرب في الشعر للورى مثله
كان له عنـــد كلّ بادهة ... بدائع في القريض مرتجلة
يصطاد في الشعر كلّ شـاردة ... من القـــوافي بفطنـــة عجلة
فـــلا تقســـه بغـــيره أدبا ... وهل تقاس المعطـــار بالتفلة
كم شاعر يدعي وليس لـــه ... من شعره غير منطق الحجلة
ان انت انشدت شعره هزءا ... من هجنة فيه تأنف السبلة
الشـــعر معنى ألفاظه حسنت ... فنســـقت في بلاغـــة جمله
وكلمـــا قصّـــرت قوالبـــه ... عن حسن معنـاه اوسعت خلله
حسن المعـــاني بلفظها شوه ... كحسن حسناء ثوبها سـملة
من ذاق في الشعر طعم معجزه ... فأحمد الشاعر الذي أكلـه
أيّ مقـام هيجاؤه احتدمت ... بالشعر يوماً ولم يكن بطله
كان عزيزاً يأبى الهوان فمـــا ... قرّ عليـــه يوماً ولا قبله
كم منزل قد نبا به فسرى ... متخذ الليل في السرى جمله
كان كما قال وهو مفتخر ... بفضل ما قالـــه وما فعلـــه
(جوهرة تفـــرح الشراف بهـــا ... وغصّة لا تسيغها الســـفلة)

١٢٨) الى الجواهري

قصيدة من ستة وأربعين بيتا خاطب بهـا الشاعر العراقي محمد مهـدي الجواهري ، وعلى أنا لا ننكر شاعرية الجواهري وكونه من شعراء الطبقة الاولى في العراق ، فانا نجد الرصافي أسبغ عليه نعوتاً جاءت ظاهرة المبالغة(*) ..

قال في مطلعها :

بك الشعر لابي اصبح اليوم زاهرا　　وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا
فأنت الذي ألقت مقاليد امرهـا　　اليـه القـوافي شرّداً ونوافـرا

وهذا قول ليس فيه من الجد شيء ظاهر وانما أملته روح من اليأس على الرصافي فقاله ..

ومما جاء فيه الطباق كثير الروعة قوله :

وان انت أطلقت النفوس من الأسى　　بانشـاده يوما أسرت المشـاعرا

(*) من شعراء الطبقة الاولى في العراق ـ هذا اليوم ـ العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي والدكتور عبدالرزاق محيالدين والاساتذة محمود الملاح وحافظ جميل والشيخ علي الشرقي والسيد هادي كمالالدين وخاشع الراوي وأنور شاؤل والشيخ محمدعلي اليعقوبي وعلي الخطيب ومحمد بهجة الاثري ومهدي مقلد وكمال عثمان .

على ان شعراء الطبقة الاولى يتفاوتون في نفسهم الشعري تفاوتاً لا مجال لايضاحه في هذه الحاشية ..

اما قوله :

بلغت من الابداع ارفع ذروة هوى النجم عنها صاغراً متصاغرا

فهو ـ رغم فرط المبالغة فيه ـ من شعر الصناعة ..

وكانت المبالغة مفرطة حين استرسل فيها فقال :

وانك أرقى الناطقين تكلّماً بحقٍّ وأنقى الساكتين ضمائرا

لقد تجلت للناس ـ فيما بعد ـ قصة نقاوة هذا الضمير ..

ومما اورده في غير مناسبة قوله :

وقد تبصر الماء الزلال به القذى فتغمض عنه بالاباء النواظرا

وفي البيت خطأ ظاهر فان الاغماض يقتضي الرضا وهو ما يناقض الاباء ، وفي القرآن الكريم (ولا تيمموا الخبيث ، منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه) أي أخذاً بالتسامح وعدم تقصي العيوب ..

على ان البيت لا يحتجن حكمة رشيدة فان الاباء لا محل له بالنسبة الى القذاة تكون في الماء وقد مر في هذا المعنى قول بشار :

اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربه

ومما جاء في مستوى عامي قوله (وأسأل فامنن بالجواب تفضّلا) وقوله (اذا كان هذا هكذا منك واقعا) وقوله (ولدنا وعشنا ثم متنا وكلّ ذا على غير اذن) .

وذهب الرصافي يناقش الجواهري نقاشاً في منطق الحياة وفلسفتها فيطيل فيه ..

ومن القواعد التي اوردها الشاعر وهي مما لا يطرد قوله :

فما عاش في محياه عيشا مرفّها من الناس الا من تحيّل ماكرا

ومما احسن اداءه وبيانه ، ما قاله في خواتيم القصيدة :

نعم كنت في تلك الاماديح شاتما   زمانا يوالي كلّ من كان جائرا
وكنت بذاك المدح للمدح هاجيا   وكنت بذاك الشعر للشعر حاقرا
اذا الدرّ امسى كالسحاب محقّرا   شددت بـــه للنابحات سواجرا
وما العار في هذا عليّ وانمـا   على من أضاعوا مجدهم والمفاخرا

وهي أبيات من روائع الشعر في الاعتذار من قولٍ قيل في مدح من لا يستحق المدح ..

١٢٩) الثناء المخلد

قصيدة قالها في مدح فخر الدين آل الجميل وقد كان احد ممدوحيه الذين اكثر النظم فيهم ، وهي من أربعة عشر بيتاً ، جاء في أوائلها :

ألا بلّغوا عني رسالة منشد أبا الماجد النجل النجيب محمّد
رسالة من لا ينشد الشعر مادحا به الناس الاّ شاكرا غير مجتد
الا يا ابن عيسى ابن الهمام محمد وأكرم من ينمى لأكرم محتد
سأقرض في شكري لك الشعر خالداً وأرسله نوراً به الناس تهتدي

وقال :

وأجعله شعرا اذا ما تنوشدت قوافيه يوما أسكتت كلّ منشد
عليك به أثني ثناءاً مخلّدا ومثلك اهل للثناء المخلد
وقفت من العلياء في خير موقف وشوهدت بالاحسان في خير مشهد
وجددت مجداً غير بالٍ وانما بمسعاك زادت جدّة المتجدّد

وقال في أواخرها :

تفقدتني في العيشة الضنك منعما فيالك في الانعام من متفقّد
على حين قد أنسى الرجالَ زمانُهم ذويهم ومن يختصّهم بالتودد
ومدّ احابيل القطيعة بينهم وأقعدهم للشر في كلّ مرصد

أما قوله :

اقيده بالمدح والمدح مطلق وأطلق فيه الحمد غير مقيد

ففيه اضطراب وصناعة وحذلقة ..

وقوله ـ وقد ختم به المقطوعة ـ :

وأغلى غلاءً في المعيشة فاحشا   يروح به ذو الاحتكار ويغتدى

فليست له وشيجة بموضوع القصيدة ..

وقوله :

أرجّع في الانشاد أنغام لحنه   بصوت كصوت البلبل المتفرّد

الشاعر ينزل نفسه منزلة المغني ويزعم لنفسه صوتاً يزاحم به البلبل الفريد في لحنه وتغريده .. وهو مما لا يصحّ .

وقد سمعنا صوت الرصافي فكان أجشّ عريضاً وأصوات البلابل معروفة برقتها وغضاضتها ..

١٣٠) تقريض كتاب

بيتان قالهما في تقريض كتاب للزهاوي ألفه بعنوان (الفجر الصادق) :

هـــذا كتاب فيـــه يتضح الهدى علنـاً فتسـطع للعقـول حقـائق
يا ظلمة الشبهات والـكذب انجلي فلقد بدا للحقّ (فجر صادق)

من شعر التقريض • وقد شاع لدى القوم في فترة من الزمن ان ينظموا في تقريض الـكتب والرسائل •• وقد طبع الـكتاب سنة ١٣٢٣هـ في مطبعة الواعظ بالاستانة وتمام عنوانه (الفجر الصادق في الردّ على منكـــري الـكـــرامات والخوارق) وقد ألفه الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي في الردّ على السلفيّة ومن نحا نحوهم من منكري كرامات الأولياء •

ولم يكن الزهاوي ممن يعتقدون ذلك ولا الرصافي •• وقد قيل ان الزهاوي كان مغضوباً عليه من السلطات العثمانية • وقـد تقرر يومئذ نفيـه من الاستانة الى اليمـن فصـنع هـذا الـكتاب ليدرأ عن نفسه غضب السلطات العثمانية • والى ظروف مشابهة يعزو بعضهم سبب تأليف السيد شكري الآلوسي كتابه في شرح القصيدة الرفاعية التي مشى بها في ركب الصوفية الى مدى بعيد •

١٣١) الأفول المشرق

قصيدة من عشرين بيتا كانت مما نظمه في خواتيم أيامه ، قالها بعد شنق العقداء الاربعة في بغداد وهم صلاح الدين الصباغ وكامل الشبيب وسعيد فهمي ومحمود سلمان ..

وهي قصيدة رائعة الأداء وجدانية الحسّ .. قال :

أيها الأنجم التي قد رأينا ... عبراً في أفولها كالشموس
ان هذا الأفول كان شروقاً ... في دياجير طالع منحوس
وسيأتي الزمان منه بسعد ... تنجلي منه داجيات النحوس
شنقوكم ليلاً على غير مهل ... ثمّ واروا جسومكم في الرموس
أفكانوا في ظلمة الليل تجرأ ... هرّبوا المال من جباة المكوس
هكذا الخائف المريب يواري ... فعلة السوء منه بالتغليس
شنقوكم لأنكم قد أبيتم ... ان تكونوا في ربقة الانكليس
فاستحقوا اللعن الذي كرّرته ... خاليات القرون في ابليس
سيديم الزمان لعناً عليهم ... شائع الذكر في بطون الطروس
ايها الأنجم التي تركتنا ... في اسى من مصابها محسوس
في سبيل الاوطان متّم ففزتم ... بأجلّ التمجيد والتقديس
وستبقى الذكرى لكم ذات رمز ... هو تعظيمكم بخفض الرؤوس[١٧٩]

(١٧٩) التعظيم بخفض الرؤوس معنى أكثر الشاعر من ايراده في شتى المناسبات ، وهو هنا ظاهر السخف .

وسيجري احترامكم في مجاري ... شـــرف خالدٍ لـكم قدموس

ان يومـــاً بـــه نعيتم الينـــا ... يوم بؤس كيوم حرب البسوس

فيـه أبدت منّا الوجوه كلوحاً ... في شـحوب وغبـرة وعبـوس[180]

اذ سكنّا وفي القلوب ارتجـاج ... متـــل تيـــار لجّـة القاموس

وأطلنـــا عن الـكلام سكوتاً ... معـــرباً عن نشيدنا المهموس

ووجمنا حزناً ورُبّ وجـــوم ... يتـــأتى من صاخبـات النفوس

برئت ذمّـــة المـــروءة منّـــا ... ان نسي يوم شنقكم او تنوسي

ويلاحظ ان القصيدة من المقاطيع الجامعة بين الرثاء والهجاء •• وقد عنّت للشاعر فيها معان ولفتات ظاهرة البراعة لاسيما ما جوّده فيها من حسن الوصف والتمثيل ••

(180) البيت ركيك ومضمحل وهو أولى بالحذف والشطب ••

١٣٢) أبيات مترجمة

جاء في الديوان انه قال هذه الابيات مترجما ، وهي أبيات اوردت في ذات الله جلّ اسمه .. قال :

فيـــك يا أغلــوطة الفِكَرِ   حـار فكري وانقضى عُـمُري
ســافرت فيــك العقول فَمــا   ربحـــت الاّ اذى الســـفر
رجعت حســرى وما وقعـت   لا على عـــين ولا أثر(١٨١)

يا واحـــد الذات كثير السمى   ومن تجلى ظاهـــراً واحتجب
انت لدى الفرس تسمى خُدا   انت تسمى الله عند العرب(١٨٢)

اوّل انــــت ولـكـــن اوّل   ماله في ســانح الفكر ابتـــداء
آخــــر انت ولـكن آخـــر   ماله في راجح الحجر انتهـــاء

هذه المقاطيع كل منها من وزن فاولاها من (المديد) والمقطوعة الثانية من (السريع) والثالثة من (الرمَل) .

---

(١٨١) هذه الأبيات نسبها العاملي المتوفى سنة ١٠٣١هـ (في الـكشكول ١ : ٢٢ طبعة قم بايران ١٣٧٧هـ) لابن ابي الحديد واوردها بالنص التالي :

فيـــك يا اغلوطة الفكـــر   تاه عقلي وانقضى عمـــري
سافرت فيك العقول فمـــا   ربحت الاّ أذى الســـفر
رجعت حســـرى وما وقعت   لا على عـــين ولا أثـــر
فلحى الله الاولى زعمـــوا   انـــك المعلـــوم بالنظـــر
كـــذبوا ان الذي طلبـــوا   خـــارج عن قوّة البشـــر

(١٨٢) لو قال (وانت تدعى الله) لـكان أجود ..

١٣٣) الى طه الراوي

بيتان انفذهما الى العلامة الجليل السيد طه الراوي •

قال :

بأيّ سـلام أم بأيّ تحيّـة اليك أزين اليوم بدء خطـابي
فانك اهل للمحامد كلهـا وما انا فيمـا ادّعي بمحـاب

لا معنى لنظم مثل هذه المقاطيع المختزلة التي يغني عنها السطر الواحد من النثر •• على أن الأستاذ الراوي حرىّ بكل اِطراء واِجلال فلقد كان من أماثل علماء العربية وكبار أئمتها المبرزين ••

---

١٣٤) الى البطل عبدالـكريم الريفي

خمسة أبيات قالها في عبدالـكريم الريفي بطل المغرب وقائده في مقـارعة الفرنسيين بعد أن وقع في قبضتهم ، وهي أبيات رائقة متينة ولـكن الشاعر كان حرياً ان يطيل في هذا المقام غير أن كلالاً أصاب قريحته فأمسك عند هذا الحد •

قال :

أعبدالـكريم وأنت البطـل وفيـك الرجاء وفيـك الأمل
لئن قـرّ سيفك في غمـده فمـا ذاك من خـور او ملل
ولـكنّمـا دهـرنا قُلَّب وايامـه مـن قـديم دول
تهـزّ البطـولة اعطافهـا اذا ما جعلناك فيهـا المثـل
سـيخلد ذكـرك في الناهضـين وتثني عليـك الضبى والأسـل

١٣٥) بداعة لا خلاعة

قصيدة من أربعة وأربعين بيتا ولـكنّ الذي جاء منها في الديوان واحـد وأربعون بيتا ، وهي ضرب من الأدب المكشوف وقد بدأها بقوله :

مثلـت في دلالهـا عـريانة فـأرتني محاسـنا فتّـانة
حيث طارحتها الغـرام ببيت بالمرايا قـد زوّقوا جدرانه
فكأني وقـد نظـرت لمعـراهـا من النور مبصـر اسطوانة
وتجلّى خيالهـا في المرايا حاكيا من جمالها أعيـانه
فتأمّلت في تقاطيـع جسـم جعل الحسن كلـه عنوانه
ظَلْتُ أرنو الى الجمال بعين تشـتهيه وتتقي هجـرانه
فأريها من الغـرام فنـوناً وتريني من حسنها أفنـانه
ثمّ أسلمت للمليحة قلبـاً أوجب الحسّ بالهوى ايمانه
وتقحّمت موهج الحبّ حتى أصبح القلب صـالياً معمعـانه
هاك من وصفها وان شئت فاعذر أو فلم مملك الغرام عنـانه
هي غمـازة اللحاظ لعوب ذات دلّ ظريفـة لحّـانة

والمآخذ عليها كثيرة لا محلّ لاثباتهـا بعـد حذف الكثير من أبيـات القصيدة .. ومن أبرز هذه المآخذ ما اكثـر ايراده من الألفـاظ الوحشية والمفردات الغريبة .

وقد نظم الجواهري في معارضتها قصـيدة كانت أروع منهـا معنى وأرق لفظـاً ..

١٣٦) في دار النقيب

أربعة مقاطع قوام كل مقطع منها ثلاثة أبيـات ، وهي نمط من الشـعر المصنوع بشبه كلّ الشبه ما ينظم ليكون نشيدا ينشده التلاميذ ..

وجاء في أوائلها :

أمّا وقـد طلع الرجاء يشـع انوار السـرور
في دار مولانا النقيـب بوجـه مولانا الأمير
فاذهب لشأنك ايها اليأس المخيّم في الصدور

وهي تعابير ضحلة عامية ساذجة ..

لاسيما ما بدأ به القصيدة من قوله (أمّا وقد ...) .

أما قوله :

ماذا يخـاف القوم من ميـل الزعانف للنفور
بعد اقتران النـيرين السـاطعين بكـل نور
في وجـه مولانا النقيب ووجه مولانا الأمير

فهو من شعر الصناعة .. والتمثيل فيه ذو ادراك عاميّ ..

وقوله (ميل الزعانف للنفور) تركيب ساذج ضحل ..

وقوله في المقطع الأخير :

مـدّ النقيب الى الأمـير يد المعاضد والنصير
فليَخْزَ كـل مشاغب في القـوم يلهج بالشرور
وليحي مـولانا النقيـب حيـاة مولانا الأمير

فليس فيه مما يحسن سماعه غير البيت الأول ..

على ان زجر المشاغبين والدعاء عليهم بالخـزي لم يكن يحسن ايراده في المناسبة التي نظمت فيها القصيدة .

والمراد بالنقيب هو السيد عبدالرحمـــن النقيب أول رئيس للوزارة في العراق بعد انحسار العهد العثماني عنه .. والامير هو الامير فيصل .. والابيات مقولة قبل تتويجه كملك على العراق .

١٣٧) الحقّ المغتصب

سبعة أبيات كتبها الى العلامة عبدالوهاب النائب بعد عودته الى النيابة في المحكمة الشرعية •

قد أخذ الحقّ من الغاصب　　وعاد ممنوحا الى النائب

قوله ممنوحاً ليس بالملائم للمعنى لأنّ الحديث يتعلق بحقٍّ عادَ الى صاحبه ، وما يمنح من الأشياء هو غير مايستحقّ من حقّ •• وكان عليه ان يقول (وعاد مردودا الى النائب) أو نحوه ••

واكثر الشاعر من استعمال حرف الجر (الى) في أبياته ، كالذي مرّ وكالذي يأتي :

عالم بغداد وانسانها　　والمنهل العذب الى الشارب
تختلف الناس الى فضله　　من ذاهب منهم ومن آئب

استعمال اللام من حروف الجرّ اولى من استعمال (الى) في قوله (الى الشارب) ••

وكذلك قوله :

ودار شرع الله مزدانة　　في جانب تزهو الى جانب

فليس ثمة من معنى ذي شأن في قوله (في جانب تزهو الى جانب) •

وقوله :

في علمـــه ووعظـــه تهتدي وتقتـــدى في رأيه الثـاقب

استعمال حرف الجر (في) هنا خطأ بياني وانمـا كان عليه ان يستعمل (الباء) فيقول :

بعلمه ووعظـــه تهتدى وتقتـدى برأيه الثاقب

وختمها ببيت التاريخ وهو قوله :

بعـد ظلام دامس أرخوا أشـرق شرع الله بالنائب

وهو بيت حسن الصياغة والعبارة ..

على ان قصيدته هذه وما يحكيها من قصائده قد تكون من أولياته ..

اما المصادر التي ورد فيها شيء من أوائل شعر الرصافي فقليلة .، منها كتاب (لبّ الألباب) للاستاذ السيد صالح السهروردي ، وكتاب (مساجد بغداد) للآلوسي ، وفي ديوانه المنقود شيء يسير منه ..

وقد ذكر مصطفى علي (سمعت الرصافي يقول انه احترق نحو ستمائة بيت من شعره فيما احترق له من أثاث بسيط وكتبٍ في حريق شبّ في غرفته التي كان يسكنها في عهد الطلب بمدرسة نايلة خاتون) .

وقال أيضا (وقفت على قصائد للرصافي نظمها قبل طبع ديوانه الأول فلما اخبرته بها نهاني عن ضمّها الى ديوانه ولعله حكم عليها بالوأد لأنها من أوائل شعره) ..

١٣٨) تحت تصوير النائب

بيتان قالهما تحت تصوير النائب وهما :

مـذ غـاب عنـا في المنيـة شخصه فانظـر الى تصويره من غـائب
تلقى المعـاني المعربات عن العلى في صورة لأبي الحسـين النائب

اولهما ضحل ركيك ..

---

١٣٩) الى عبدالـكريم العلاف

ثلاثة أبيات قالها اجابة لمن التمسه ان يقـول شـعراً ينـوه فيـه بشـعر العلاف .. ويبدو انه قال أبياته هذه على وجـه التقريض .. على ان شـعر العـلاّف لا يخلو من بعض المقاطيـع الحسنة ، ولـكن الغالب عليه انه نمط من شعر المتفقهة ..

قال :

فأجبتـه عبدالـكـريم محلـق من شـعره بقـوادم وخـوافي
فلـكم سـمعت لـه قوافي جمـة كانت لعمـر الله خـير قـوافي

١٤٠) وقفة عند شراغان

شراغان على ما جاء في هامش الديوان قصر ملوكي على ضفة البسفور ، بناه السلطان عبدالعزيز ، وهو أعظم القصور فخامة في الآستانة ، وادقّها صنعة ، وابهجها منظرا ، ويقال انه صرف على بنـائه الملايين •• ولمـا اعلن الدستور العثماني اتخذ مجلسا للنواب • فشبّ به حريق ، وكان الرصافي في الآستانة فقال هذه القصيدة ••

وهي من ثمانية وثلاثين بيتا يجزع الشاعر فيها على القصر المحترق • وقد جاء في أوائلها من الجيد المتين قوله ــ من أبيات متفرقة ــ :

قصر أطلّ على البسفور مرتفعـا … اليه يشخص طرف العقل حيرانا
راقت مبانيه اتقـــانا وهندسة … مستوقفاً صنعُها من مَـرَّ عجلانا
لو كان عرشا لبلقيس لمـا خضعت … للأمر حـــين أتاهـــا من سليمانا
فيه الحوادث امست وهي ناطقـــة … بألســـن دلعتهـــا فيـــه نيرانا
فلو رأيت وقـد شبّ الحريق به … والريح تصفق للنـــيران اردانا
رأيت ملـكا كبـيرا ثمّ محترقاً … يذيب منه لهيب النار عقيـــانا

ومن روائع أبيات القصيدة قوله :

يا درّة في ضفاف البحر ضيّعها … قوم وكان بهـــا البسفور مزدانا
كم قد اضاءت بوجه البحر مشرقة … ورصعت من رؤوس الهضب تيجانا
يا أيها القصر مذ امسيت محترقا … أبكيت في البحر اسماكا وحيتـــانا

ومنها قوله :

يهتز فيــك لهيب حين نبصره　　نهتزّ بالحزن ارواحاً وأبدانا

ومنها قوله (وفيه حكميات بارعة) :

ليس الجلوس ببهو القصر مفخرة　　لمن هـم اليـوم أشقى الناس أوطانا
قد ضيعوا الحزم حتى انهم ندموا　　على الذي كان منهم بعد ما كانا
يعيش ذو الحزم مسروراً ومغتبطا　　وتارك الحــزم لا ينفــك ندمانا
وأحــزم الناس من ان نام بات لـه　　طرفٌ على حدثان الدهـــر يقظانا
اين الطريق الى العلياء نسلــكها　　فاننـــا لم نزل يا قوم عميـــانا

وجاء من أبياته لاذع الاسلوب بارع النكتة :

لا الشعب يخلع أثواب الخمول ولا　　نوابه يلبسون الصــدق قمصــانا
الناس تسعى لدنيـــا نحــن نهملها　　ما أسعد الناس في الدنيـا واشقانا

ولم تخل القصيدة من بعض المآخذ وكان منها قوله (كل القصور عبيـد وهو سيدها) فانه عامي اللهجة والمعنى ..

وقوله :

للنار فيــك حسيس كنت أحسـبه　　ضحكاً على من بســوء الرأي أبكانا

فان التمثيل فيه ظاهر البشاعة .

ومن بارع وصفه وتمثيله :

معـــاول من شواظ النار هادمة　　ـ يالعجائب ـ كالأطواد جدرانا

اما قوله ـ بعده ـ وهو يصف جهد رجال الاطفاء اذ كانوا يهدمون من البناء ما استطاعوا في سبيل اطفاء النار :

قمنا امامك والنيران صـــائلة　　ندكّ منك على الأركان اركانا

فان استعماله لفظة (امامك) ترك في البيت شيئاً من الركة .. ومثل ذلك استعماله لفظة (القيام) .

وقوله :

فأنت تملأ صــدر الجوّ أدخنــة　　ونحن نملأ صــدر الارض احزانا

غريب اذ لا مفهوم لملء صدر الارض بالاحزان ..

١٤١) ام الطفل في مشهد الحريق

جاء في هامش الديوان ان هذه القصيدة قيلت في حريق شبّ في حـــارة الفاتح من مدينة استانبول وهو حريق هائل اجتـــاح عدة حارات فتركها قاعـــا صفصفا ••

والقصيدة في ثلاثة وأربعين بيتا •• والمآخذ فيها على الشاعر ذات نسبة ليست باليسيرة ازاء ما جوّد فيه •

فمما لم يحسن تمثيله :

اثارت النار في اطرافها رهجـا   من الدخان كأنّ النار ابطـــال

فان تشبيه النار بالابطال غير سديد ، بل هو ظاهر الخطل ••

وقوله :

يا ريح مهلاً فلا تذري الرماد بها   ان الرماد الذي تذرين أموال

ضحل تافه وهو عامي الأسلوب يغلب عليه محاكاة لهجة النوائح ••

وقوله :

اودى الحريق بدار كنت اسكنها   وكنت من بعضها للقوت أكتـــال

فان اكتيال القوت لا تدعو الى النصّ عليه داعية ، بهـذا اللفظ الساذج •

وقوله بعده :

واليوم أصبحت لا دار ولا وزر   آوي اليـــه ولا عمّ ولا خـــال

فانّ العم والخال ظاهر في ايرادهما الخضوع لحكم القافية فضلاً عن كونهما

من بعض معالم النهج العامي الذي يكثر مثله في المآتم والمناحات ..

وقوله :

حتى وقفت وايناساً لوحشتها حنيت رأسي وحَنْيُ الرأس إجلال

وهو قول أشبه بتمثيلية تختلط فيها الكوميديا بالتراجيديا ، فلا يدري امرؤ ايضحك عندها ام يبكي ..

فما يجدي تلك المرأة التي احترقت دارها ، وضاع عليها مالها ومأواها ، وهي في أشدّ حالات الجزع والتعاسة ، ان يأتي الشاعر فيحني لها رأسه ظاناً ان ذلك سيكون ايناساً لوحشتها .. وما معنى ذلك التذييل الضحل في كلامه حين يقول (وحني الرأس اجلال) ؟!

ومما يؤاخذ عليه الشاعر في هذه القصيدة انه اتخذ منها جريدة دعاية للدستوريين فها هو ذا يلقي الى سمع (ام الطفل) في مشهد الحريق قالَتَهُ الغريبة النابية عن مواقعها :

ألست من امة أيدي الرجال بها قد فكّ عنهن بالدستور اغلال

ثم يقول (وبئس ما استغله من مناسبة لقوله) :

فاستبشري اليوم فيما مسّ من ظمأ بأن وردك عند القوم سلسال

اما ما أحسن اداءه وجوّد بيانه فمنه قوله (في أوائل الأبيات) ..

ما للديار ترآى وهي أطلال هل خفّ بالقوم عنها اليوم ترحال
كانت بها السمرات الخضر زاهية واليوم لا سمر فيها ولا ضال
ما بالها وهي انقاض مبعثرة تغير فيهنّ ابكار وآصال
هل هدّ بنيانها من فوق صاعقة او هدّ بنيانها من تحت زلزال
بل قد عفتها ولم تترك بها اثراً ريح لها من لهيب النار أذيال
شبّ الحريق بها ليلاً مشيدةً فما أتى الصبح الآ وهي أطلال

واجاد في وصف مظهر القوم في محنتهم حين قال :

قد رحت للحيّ مذعوراً أيممه ولي عن الزمر الباكين تسآل
وفي العراص ديار القوم خاوية وفي الشوارع نسوان واطفال

ومما جاء ظاهر الرقة قوله (على لسان ام الطفل) :

انى تجردت من دنيـــاي حاسرة   مالي سوى طفلي الباكي بها مال
أيّ امرىء بعد هذا اليوم ذي جدة   يعـــولني حيث لا زوج ولا آل
ان الحـــريق خبت نيرانه ومضـــت   وما خبت في فؤادي منـــه اوجـــال

وجاء في خواتيم أبياته قوله (وهو مما أجاد فيه) :

تلك التي قـــد شجتني في مقالتها   وكم لها في نساء الحيّ امثـــال
فهل يصدّق قومي ما ظننت بهـــم   حتى تقوم لهم في المجد أفعـــال
واكثر المال حمداً ما يعـــان به   من عضّهم من نيوب الدهـــر اِقلال
يا قوم هـــذى سبيل العرف واضحة   فليمض فيها لـــكم وَخْدٌ واِرقال

١٤٢) ثالثة الأثافي

قالها في الحريق الكبير الذي حدث في حارة اسحاق باشا في الآستانة وكان ثالث حريق كبير حدث فيها .

والقصيدة من واحد وثلاثين بيتا وهي من شعره الجزل الرصين ، وقد لمحت من أبياتها ملامح العربية العرباء فجاءت من شوارد الشعر وروائع القريض .. قال :

قعدت بقارعة الطريق تنوح ... والطفل يجذب ردنها ويصيح
تبكي وقد ضحك الحريق بدارها ... كالبرق يضحك في الدجى ويلوح
ضحيت وقد قلص الظلال فوجهها ... للشمس في وجناته تلويح
جرّ الحريق على الديار ذيوله ... فجرى لذلك دمعها المسفوح
ولقد وقفت حيالها ومدامعي ... تسخو سوى ان العزاء شحيح
فغدا يلقنني الأسى من عينها ... لحظ" برقراق الدموع سموح
يا أيّماً أجرى الغداة دموعها ... بيت" بجائحة الحريق مَجوح
لا تهلكي جزعا فانّ بيوتنا ... ما للملمّ بأهلها تسريح
أعليك انت تضيق كلّ ديارنا ... هذي واكثرها ديار فيح
فاقني عزاءك فالحياة وان أرت ... بعض السرور فكلها تتريح
قف بالديار فقد أناخ بها البلى ... وانظر فقد فرغت بهن السوح
نزل الحريق بها فشتت شملها ... فغدت عراصاً وهي قبل صروح
بكر الشواظ بها ينضنض ألسناً ... من هول مطلعها تذوب الروح

نشر اللهيب على البيوت ملاءة ... حمراء تصفق جانبيها الريح

فتعبست منه السماء وأمطرت ... نارا وقد أخذ اللهيب يسيح

وعلا الدخان على البيوت سحائبا ... برق المهالك بينهنّ لموح

اما الشرار فكان وَبْلاً منبتاً ... نوباً برائحة الدمار تفوح

والشمس قد كسفت بجون دخانه ... وبدت عليها سفعة وكلوح

يا قوم ساء مصيركم فالى متى ... لا تسمعون لما يقول نصيح

هلاّ أخذتم للخطوب عتادها ... كي لا يكون لكم بها تبريح

هذا الحريق وكل يوم ناره ... تغدو عليكم تارة وتروح

فالنار ما برحت تفوه بألسن ... ذرب وان كلامها لفصيح

لم لم تعوا ما قلن قبل مكررا ... او ما كفاكم ذلك التصريح

نمتم الى نوب الزمان فان أتت ... قمتم كما يتململ المذبوح

وأهمّكم ادنى الامور وفاتكم ... نظر الى الأمر القصيّ طموح

كم في الحوادث من نذير قد اتى ... فيكم بأسرار الزمان يبوح

اما الحريقان اللذان تقدّما ... فكلاهما شِقٌ لكم وسطيح(١٨٣)

قد أنذراكم بالخراب وأنبآ ... ان التراخي في الأمور قبيح

عجبي الى تلك المصايب كيف قد ... نسيت ولم تبرأ لهنّ جروح

سرعان ما تنسون عظم مصابكم ... ولو ان شقة منتهاه طروح

لا تستنيموا للزمان فأخذه ... خلس وقوس الحادثات ضروح

---

(١٨٣) شقّ وسطيح : كاهنان كانا في الجاهلية .

كلمة في الختام

الآن وقد أتممت نقد الجزء الاول من ديوان الرصافي اودّ ان اثبت ان ذلك كان جهداً قضيت فيه نحواً من سنة على الرغم من ضيق الوقت واضطراب الظروف وعروض المشاكل .

وكنت استرق الوقت للنظر في ديوان الشاعر ونقده ولم تكن لديّ نسخة منه وانما كنت أتردد على مكتبة الخلاني لمطالعته ، وكان الكثير من فصول هذا النقد قد كتب هناك .

ولعله من الواضح أنّا لا نجد في المكتبة العربية كتباً على هذا النهج المفصل أو نحوه في نقد شعر الرصافي ومن في طبقته من الشعراء ، مما جعلني افتقد المراجع التي أرجع اليها في هذا الوجه ولذلك جاء بحثي ضرباً مستقلا في نمطه وطريقته .

على ان نقاد الرصافي لم يكونوا قليلين ، غير ان نقدهم تناثر في الصحف وربما ضاع منه ما ضاع ..

وممن عني بنقد شعر الرصافي ، الاستاذ البحاثة الشاعر محمود الملاح ولكنه لم ينشر بعد شيئاً في هذا المعنى .

واورد الاستاذ الفقيه الشاعر السيد هادي كمالالدين الحلي ما اورد من المآخذ على شعر الرصافي في كتابه (مآخذ الشعراء) وهو مخطوط .

وممن كتب في نقده الاستاذ ابراهيم العلوي اذ نشر بعض الفصول في مجلة المعرفة البغدادية بعنوان (سرقات الرصافي) .

وذهب الدكتور صفاء خلوصي الى ان (الرصافي) كان نرجسي السلوك ..

وغمز الدكتور داود سلوم خلقه الشخصي (تطور الفكرة والاسلوب في الادب العراقي ، ص ٩٥) •

وقد تعرض الرصافي في حياته لضروب من النقد العنيف الذي تغلب عليه المعابثة ، فكان مثل ذلك مما يرتاع له فلا يجد بدّاً من الاستخذاء والاستكانة • وممن استنّ هذا السنن في نقده للرصافي الاستاذ المنشيء البليغ ابراهيم صالح شكر في جريدته (الناشئة الجديدة سنة ١٩٢٣) فترك في النقد الادبي خطة مروعة ••

وكانت بعض قصائد الرصافي تعارض بأسلوب هزلي ساخر فتنشر في الصحف فيشيط لها الرجل ، كقصيدته التي قالها احتفاءاً بشاعر الهند طاغور • كما كانت بعض قصائده تجابه بالاستخفاف كقصيدته في المتنبي ••

وقد كتبتُ فصولاً اخرى في نقد الرصافي بعنوان (الرصافي ، ذاتيته ونفسيته) رجعت في تثبيت احكامي فيها الى ذات شعره ••

ولعلي اوفق لنشر هذه الفصول ، يوما ما ••

والواقع ان شعر الرصافي خضع لتيارات كثيرة فهو لا يمثل نهجا واحداً مستبيناً انما يمثل مناهج شتى •• وفي كتابي هذا حاولت ان اشير الى هذه المناهج ، ما وسعني ان اتنبه اليها ••

وسيكون كتاب (الرصافي في اوجه وحضيضه) مؤلفا من ثلاثة أجزاء تصدر تباعاً ان شاء الله ••

ولا يمكن ان يكون الرصافي ولا غيره بمنجاة من النقد فان النقد حق العلم على اهله •• والذين يغالون في تكريم الاشخاص الى درجة التأليه يجدون ازاءهم قوماً هم اشد كفرا بمثل هذه الألوهيات الملفقة ••

ونحن لم نشأ هدم الشاعر ولا تحطيمه فما لنا في ذلك من حاجة وانما قلنا فيه ما قضته شرعة النقد الادبي السليم •• على اننا لا نعصم انفسنا من الخطأ في تقدير ما هو (اوج) من شعره وما هو (حضيض) وفوق كل ذي علم عليم •

الشيخ جلال الحنفي

الفهرست

الشيخ جلال الحنفي

الرّصافي

في اوجه وحضيضه

نقد بياني لقصائد الديوان

الجزء الأول

ساعدت وزارة المعارف على نشره

مطبعة العاني ـ بغداد
١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م

صحح

★ يرجى تصحيح الأبيات الشعرية الواردة خطأ في الكتاب وقد اثبتناها فيما يلي مصححه ازاء أرقام صحائفها .

★ (ص ٣٤) :

(لله در الموت من خطبة فيها استوى ذوالعي والمصقع)

★ (ص ٤١) :

(ثم هذي الارض فالزهرة ما) ورد خطأ بلفظ (هذه) ..

★ (ص ١٠٩) :

(أراها فأبكي وهي رهن يد البلى بدمع كما ارفض الجمان المنضد)

وردت خطأ بلفظ (الجمال) .

★ (ص ١١٣) :

(وما الناس الا اثنان في الشر كله جهول تلهى او حليم تبلدا)

وردت خطأ بلفظ (حكيم) .

★ (ص ٣٦١)

(فعشقت منك على البعاد خلائقاً شغلت وحقك مهجتي عن ميّها)

وردت خطأ في أصل الديوان (عن حيّها) .

★ (ص ٣٦٨) :

(من كل معنى اغر مؤتلق في لفظه كالعروس في الحجلة)

وردت خطأ (في لفظة) بالتاء .

★ (ص ٣٨٢)

(اذا الدر امسى كالسخاب محقراً) بالخاء المعجمة وقد وردت خطأ (السحاب) بالحاء المهملة .

الشيخ جلال الحنفي
ص٠ب ١٦٧ بغداد (الجمهورية العراقية)

FOREWORD

Ma'ruf Al-Rusafi (1875—1945) is one of the greatest Iraqi poets in the first half of the present century. The collection of his poems appeared in several editions, and his poetry is read and appreciated throughout the Arab World. However, his poems are uneven. Some of his verse attains the highest peak of greatness, while some of it is poor.

The author of this book has undertaken the task of studying his poems and presenting them in the light of modern criticism.

Al-Rusafi occupies an uncontested position in the history of modern Arabic literature. The critical study of his poetry will not in any way cast a shadow on his genius. The author is sure the lovers of Al-Rusafi's poems will derive an additional pleasure from reading this book.

للمؤلف في المجال الشعري

ـ كتب لم تنشر ـ

★ المجموعة الثانية ·

مجموعة من قصائده التي نظمها بعد سنة ١٩٥٦ ·

★ الاهاجي ·

ديوان يحتوي على جمهرة من قصائده الهجائية

★ نماذج من شعر الملاح ·

جولة جالها المؤلف في دواوين الشاعر العراقي المعاصر الاستاذ محمود الملاح·

★ السقطات

يتضمن سقطات محمد بهجة الاثري الشعرية ·

★ الحكم والأمثال في الشعر العراقي المعاصر ·

SHEIKH JALAL AL-HANAFI
P. O. B. 167 Baghdad, (Iraq).

AL-RUSAFI

in the

Zenith and Perigee of his Poetry

A CRITICAL STUDY OF MA'RUF AL-RUSAFI'S POETRY

Vol. 1

by

SHEIKH JALAL AL-HANAFI

Published with the assistance of the Ministry of Education

Al-Ani Press, Baghdad 1962